الفكر الدينى وقضايا العصر

دكتور: محمود حمدى زقزوق

دار الرشاد


الفكر الدينى
وقضايا العصر

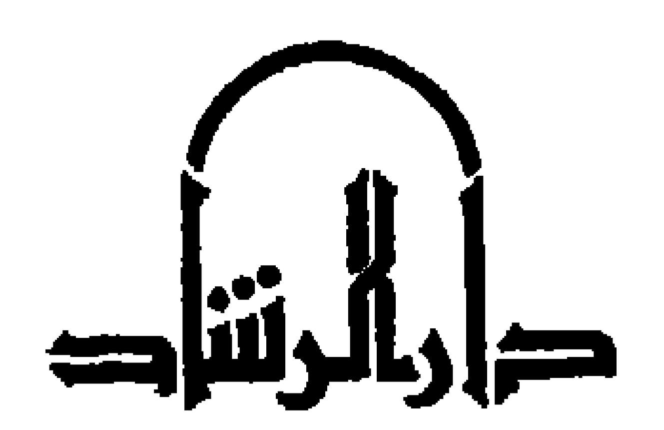
بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية
إدارة الشئون الفنية

زقزوق ، محمود حمدى .
الفكر الدينى وقضايا العصر / محمود حمدى زقزوق . —
القاهرة : دار الرشاد ، ٢٠٠٨ .
٢٤٤ ص؛ ١٧x ٢٤ سم .
تدمك ٦ـ ١٤٠ ـ ٣٦٤ ـ ٩٧٧
١ـ الثقافة الإسلامية .
أـ العنوان ٢١٤

الناشـــــر : دار الرشاد
العنـــوان : ١٤شارع جواد حسنى — القاهرة
تليفاكـــس: ٢٣٩٣٤٦٠٥
بريد إلكتروني: Dar_al rashad @ hotmil.com
رقـم الإيداع : ٢٠٠٨/١٦٥٤٢
الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
الطبـــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــوان : ٧ & ١٠ ش السلام — أرض اللواء- المهندسين
تليفـــون : ٣٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٣٢٥١٠٤٣
الغلاف للفنان: عبادة الزهيرى



دكتور. محمود حمدى زقزوق




بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

لا جدال فى أن هناك خللاً ما فى الفكر الدينى المعاصر ، ولكن هذا الخلل ليس وليد اليوم ، فهو خلل يمتد لقرون عديدة سابقة شهدت تراجع الحضارة الإسلامية. وقد انعكس هذا التراجع على الفكر الدينى إن لم نقل إن تخلف الفكر الدينى كان أحد أهم أسباب هذا التراجع . ويدل على ذلك أن جهود العديد من المصلحين على مدى القرون الماضية قد انصبت على إصلاح الفكر الدينى اقتناعًا منهم بأن إصلاح الفكر الدينى هو السبيل إلى إصلاح الفكر بصفة عامة ، الأمر الذى من شأنه أن ينعكس بدوره على أحوال الأمة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى .

وأبرز من تصدى لذلك فى العصر الحديث كان الشيخ محمد عبده وتلاميذه من بعده . وعلى الرغم من الجهود الحثيثة والمحاولات المتواصلة على هذا الطريق فإن النتائج ظلت متواضعة إلى حد بعيد ، وذلك بالنظر إلى العقبات الكبيرة التى تراكمت على مر الأيام ، وتركت آثارها العميقة على عقول المشتغلين بالفكر الدينى ، مما تسبب فى كل مرة فى عودة المياه الراكدة إلى سكونها المعتاد .

وعلى الرغم من كل ذلك فإننا لم نصل إلى حد اليأس ، ولا يجوز لنا أن نصاب بالإحباط ، فما دامت الحياة مستمرة فى سيرها فالأمل سيظل قائمًا فى تغيير الفكر وتصحيح المسار .

ومن هنا كان هذا التنبيه النبوى الذى يقول : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[1] . وهذا الحديث ليس المقصود منه حرفية النص وانتظار تمام المائة سنة حتى يظهر مجدد يلقى بحجر فى مياه الفكر الراكدة . فالمقصود هو حقيقة التجديد بصرف النظر عن بداية المائة سنة أو منتصفها أو ختامها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه .

ولا يجوز أن تتوقف محاولات التجديد والإصلاح بالنظر إلى بطء الثمار ، فبعض الأفكار قد تأخذ وقتًا غير قصير إلى أن تثمر ثمرتها المرجوة . فحياة الفكر ونموه فى حاجة إلى الكثير من الوقت والصبر والعناية المتواصلة حتى تتحقق الآمال المعقودة عليه .

إن الأمة فى حاجة مستمرة إلى التذكير بما يحيط بها من مشكلات وما يواجهها من تحديات على مستوى الفكر بصفة عامة والفكر الدينى بصفة خاصة ، والكشف عن الكثير من الحقائق الغائبة التى توارت أمام ركام الغثاء الذى ملأ الساحة الفكرية الدينية ، كما أن هناك ضرورة ملحة للتوعية المتواصلة بقيم الدين الدافعة إلى تقدم المجتمع وترقية الحياة .

والكتاب الذى يسرنا اليوم أن نقدمه إلى القارئ الكريم نحاول من خلاله – استكمالاً لما بدأناه فى مؤلفات أخرى – أن نلفت الأنظار وننبه الأذهان إلى ضرورة إعادة النظر فى الأوضاع التى آلت إليها أحوال أمتنا الإسلامية على مختلف المستويات بصفة عامة وعلى مستوى الفكر الدينى بصفة خاصة فى محاولة لإعادة الوعى بالمسئولية الحضارية من أجل إخراج هذه الأمة من أزمتها الحضارية الراهنة التى طالت أكثر مما ينبغى .

والموضوعات التى اشتمل عليها هذا الكتاب تمثل مجموعة مقالات ومحاضرات تم إعدادها فى السنتين الماضيتين ، ننشرها هنا دون تغيير أو تعديل . وقد قسمناها إلى خمسة فصول يشتمل كل فصل منها على الموضوعات التى تتصل بطريق مباشر أو غير مباشر بالعنوان الذى وضعناه لكل فصل ، وذلك على النحو التالى :

لقد جاء الفصل الأول بعنوان : الفكر الدينى والحقائق الغائبة ، وجاء الفصل الثانى بعنوان : العقل الإنسانى ودوره فى التقدم الحضارى . أما الفصل الثالث فقد جاء بعنوان : قضايا معاصرة فى ضوء تعاليم الإسلام . وفى الفصل الرابع تناولنا موضوع الإسلام والغرب وقضايا الحوار . أما الفصل الخامس والأخير فقد جاء بعنوان : حوار مع الماضى البعيد .

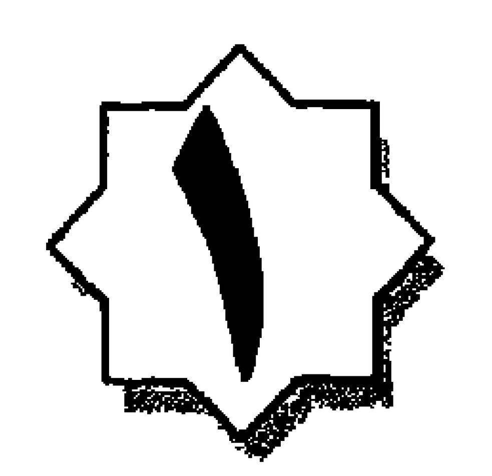
ونأمل أن يكون فى هذه الفصول فائدة لقارئ أو نفع لباحث أو تنبيه لغافل أو تذكير لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

الفصل الأول

الفكر الديني والحقائق الغائبة

- تجديد الفكر الديني
- مقاصد الشريعة
- الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع
- الدين والفلسفة
- الدين والخرافة
- السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة
- الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر
- قل إنما أنا بشر مثلكم
- الإيمان والحب



تجديد الفكر الدينى[1]

يطلق الفكر ويراد به بوجه عام جملة النشاط الذهنى ، كما يراد به أيضًا حركة التصورات والمفاهيم فى العقل الإنسانى . وهذا يعنى أن الفكر يمثل نشاطًا وحركة مستمرة ، فإذا توقفت هذه الحركة فإن ذلك يعنى توقف حياة الإنسان أو غيابه عن الوعى . ولعل ذلك ما دعا الفيلسوف المعروف ديكارت إلى اعتبار الفكر مساويًا للوجود حين قال عبارته الشهيرة (أنا أفكر ، إذن أنا موجود) . فإذا وصفنا الفكر بأنه علمى فمعنى ذلك أنه فكر منظم . فالإنسان حينئذ لا يترك مفاهيمه وتصوراته حرة تحوم فى نفسه كيفما اتفق ، وإنما يقودها بكل حزم على أسس منهجية إلى هدفه الذى هو العلم . وعندما نصف الفكر بأنه دينى فلا يعنى ذلك أنه فكر مضاد للعلم وإنما هو أيضًا فكر منظم يقوم على أسس وقواعد تؤدى إلى معلومات دينية صحيحة.

والتجديد فى الفكر سنة من سنن الحياة ، وبدون هذا التجديد سيبقى كل شىء على حاله دون تغيير ، وبذلك تتجمد الحياة . وهذا أمر مضاد لطبيعة الحياة ذاتها . ونظرًا إلى أن الفكر الدينى يعد جزءًا لا يتجزأ من الفكر الإنسانى ، فإنه يمكن القول بأن تجديد الفكر الدينى يعد ضرورة حياتية .

ومن المأثورات النبوية المعروفة : « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »[2] . وهذا الحديث النبوى من شأنه أن يدفع علماء الدين المسلمين إلى التجديد المستمر فى الفكر الدينى ، لأن الدين بطبيعته قد جاء ليكون دينًا للحياة بكل أبعادها المختلفة ، ومن هنا فإنه لا يجوز أن ينفصل

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

عن الحياة والتأثير فيها . فإذا تم عزله عن الحياة فسيتحول إلى مجرد رسوم وطقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة .

والتجديد فى الفكر الدينى عمل يقوم به الإنسان الذى يرتاد الطريق لقومه فيرى ما لا يرون . والذين يرتادون الطريق ويتقدمون الصفوف ويكشفون معالم الطريق هم الرواد فى كل أمة وهم المجددون . وقد شهد تاريخ الفكر الإسلامى العديد من هؤلاء الرواد الذين أثروا الحياة الإسلامية والفكر الإسلامى برؤاهم السديدة وأفكارهم الرشيدة .

واعتمادًا على المأثور النبوى المشار إليه وجدنا العديد من مفكرى الإسلام المستنيرين يبذلون جهودهم فى سبيل تجديد الفكر الدينى . وفى هذا الاتجاه وجدنا الشيخ أمين الخولى فى كتابه « المجددون فى الإسلام » يعود بنا إلى المؤلفين القدامى الذين كرسوا جهودهم فى قضية التجديد . ومن هؤلاء جلال الدين السيوطى (٩١١هـ) فى كتابه « التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » ، والمراغى الجرجاوى (١٠٣٥هـ) فى كتابه « بغية المقتدين ومنحة المجدين على تحفة المهتدين » .

وقد بلغت فكرة التجديد للدين - كما يقول الشيخ أمين الخولى - إلى حد أن نظمت شعرًا كما نظمت متون العلوم . وإذا كان الأقدمون قد بدءوا حديثهم عن التجديد مبكرًا منذ حوالى القرن الثالث الهجرى فإنه - كما يقول أيضًا - « لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ولا اعتراض لمعترض ، ولم تعد فكرة التجديد بدعًا من الأمر يختلف الناس من حوله ، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأعراض والأوقات مما ينبغى أن تتدخره الحياة لتفيد منه فى ميادين نشاطها ، ولا تضيع الوقت والجهد فى تلك المهاترات التى تكثر وتسخف حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية والاجتماعية إلى ما لابد منه من سير وتقدم وتطور ووفاء بما يجد دائمًا من حاجات الأفراد والجماعات » .

وتواصلاً مع الجهود القديمة شهد العصر الحديث الكثير من محاولات التجديد على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما ممن خصص لهم أحمد أمين كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » . ومن بين الأسماء البارزة فى هذا الصدد الشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ محمود شلتوت ومالك بن نبى وزكى نجيب محمود وغيرهم كثيرون . ولكل منهم أسلوبه فى التجديد ومنهجه فى الإصلاح . ولكنهم جميعًا يتفقون فى الهدف المتمثل فى ضرورة فهم الدين على أنه دين محرك للحياة بكل أبعادها ، فهو علم ومعرفة وأخلاق وحضارة ، فضلاً عن كونه عقيدة وشريعة .

وقد ألف الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى منتصف القرن الماضى مجلدًا كبيرًا بعنوان : المجددون فى الإسلام . ولم يقتصر الأمر على المفكرين العرب . فقد انطلقت أصوات المجددين من مناطق أخرى من العالم الإسلامى . ومن هؤلاء - على سبيل المثال لا الحصر - محمد إقبال فى الهند (قبل التقسيم) فى كتابه المعروف « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » . وقد كانت آلية التجديد فى كل هذه الجهود تتمثل فى مبدأ الاجتهاد الذى يعد اليوم الفريضة الغائبة فى عالمنا الإسلامى المعاصر .

ولكن التيار الأعظم من علماء المسلمين على مر العصور وقف عقبة فى طريق أى تجديد ، ناهيك عن أى اجتهاد . ومن هنا تجمد الفكر الدينى وتجمد الاجتهاد ، ووقف الفكر الدينى عند فترات التراجع الحضارى يجتر من تراثها ويعود باستمرار إلى ما أفرزته من جمود فكرى متحجر . فالدين فى عرف هذا التيار ليس فى حاجة إلى تجديد أو اجتهاد جديد ، وذلك فى تحد واضح للمأثور النبوى المشار إليه ، وترسيخًا لهذا الفهم المتخلف فى العقول انتشرت بين المسلمين مقولات تقول : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ، « ولم يترك الأول للآخر شيئًا » .

وهذه المواقف المتحجرة تسير فى اتجاه مضاد لسنة الحياة وطبيعة الأشياء . فركب الحياة يواصل السير بلا انقطاع وعجلة الزمن لا تتوقف عن الدوران ، ولكن عقول كثير من القائمين على أمر الدين لم تعد قادرة على مسايرة الزمن ولا مؤهلة لفهم تطورات العصر . وأصبحت أصوات المنادين بالتجديد بمثابة صرخة فى وادٍ أو نفخة فى رماد .

وتقنع الغالبية العظمى من علماء الدين فى عالمنا العربى والإسلامى بما لديهم من علم قديم ورثوه عن الأسلاف ، وينامون قريرى الأعين يغطون فى سبات عميق لا شأن لهم بما يدور فى عالم اليوم ، يسخرون من دعاة التجديد ويعتبرونهم مارقين خارجين عن جادة الصواب . أما غيرهم ممن يحتكرون الإسلام لأنفسهم ويقصون غيرهم من ساحته فكل همهم هو الحصول على مكاسب سياسية تصل بهم إلى كراسى الحكم . وهكذا يتجنى هؤلاء وأولئك على الإسلام أكثر من جناية خصومه عليه .

ولا شك فى أن قعود علماء الأمة ومجتهديها عن تحمل مسئولياتهم قد فتح الباب على مصراعيه للغلاة والمتشددين والمتعصبين والجاهلين ، الأمر الذى عم بلاؤه واشتدت وطأته ، وتم اختزال الدين فى بعض الشكليات التى خرجت به عن جوهره الحقيقى فى كونه دينًا للحياة .

فهل نترك دعاة الجمود والجهل والتخلف يقودون مسيرتنا الدينية والاجتماعية ، والحضارية بصفة عامة ؟ إننا إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد فرطنا فى الأمانة وتخلينا عن المسئولية الملقاة على عاتقنا نحو ديننا وأوطاننا . ولابد لنا من البحث عن سبيل للخروج من المأزق الحضارى الراهن الذى يتوقف استمراره على استمرار سيطرة الفكر الدينى المتخلف ، الذى راح يمتد كالأخطبوط فى مجرى حياتنا وشرايين مجتمعنا .

ولعلى أسمح لنفسى بأن أعرض اقتراحًا متواضعًا فى هذا الصدد أرجو أن يكون له رد فعل إيجابى . ويتلخص هذا الاقتراح فى تشكيل مجموعة عمل من صفوة العلماء والمفكرين والمهتمين بأمر الفكر الإسلامى والمعنيين بقضايا الأمة ، وتتكون هذه المجموعة من عدد لا يزيد على خمسة عشر عضوًا ، وتتفرغ لعملها مدة كافية ، وتتاح لها كل الإمكانات اللازمة لتقوم بالمهام التالية :

أولاً : وضع خطة شاملة ومتكاملة لتجديد الفكر الدينى بصفة خاصة وتجديد الفكر بصفة عامة، وتقدم مشروعًا قابلاً للتطبيق تسترشد به الأمة فى مسيرتها الحضارية ، لإخراجها من النفق المظلم الذى يراد لها أن تظل حبيسة فيه .

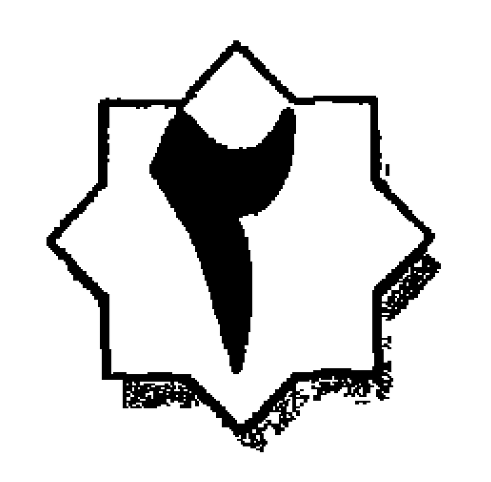
ثانيًا : تحديد الآليات المناسبة للتنفيذ ، الذى يجب أن تشارك فيه جهات عديدة مثل الأزهر الشريف ووزارات الأوقاف والثقافة والإعلام والتربية والتعليم ، والتعليم العالى والتنمية المحلية والمجلس الأعلى للشباب وغيرها من جهات حكومية وأهلية أخرى .

ثالثًا : اقتراح قائمة بالموضوعات ذات الأولوية التى يمكن بحثها وإعداد دراسات جادة فيها يقوم بإعدادها صفوة من العلماء والمفكرين ، ويتم توزيعها فى مكتبة الأسرة على نطاق واسع ، وتجرى مناقشتها فى البرامج المختلفة فى وسائل الإعلام وتضمينها فى المناهج الدراسية فى المدارس والجامعات فى حملة قومية جادة للتنوير . وتتبنى الدولة تنفيذ الخطة الموضوعة على النحو المشار إليه ، نظرًا لأن الجهود الحالية - على الرغم من أهميتها البالغة - مبعثرة ومصابة بداء التشرذم فى جزر منعزلة دون أى تنسيق ، الأمر الذى يفقدها الكثير من الفاعلية والتأثير .

إن الأمر جد لا هزل فيه ولم يعد يحتمل التأخير . وفكرنا بصفة عامة ، وفكرنا الإسلامى بصفة خاصة ، فى أشد الحاجة إلى التجديد لنضخ فى شرايينه دماء ثقافة جديدة تعمل على تمكين العقل من أداء دوره كاملاً فى الحياة ، وتحريك الطاقات الكامنة لدى الشباب ، وتشجيع الراغبين فى العمل على المشاركة الجادة من أجل تغيير الواقع المتخلف وإنقاذ أمتنا مما يتهددها من تطرف بغيض فى الفكر وفى السلوك ، وتواكل مرذول فى ميادين العمل وفقدان لهويتها الحضارية . ولسنا فى هذا الصدد أقل من ماليزيا التى تقوم حاليًا بتنفيذ مشروع أسمته « الإسلام الحضارى » تتبناه الدولة هناك بكل مؤسساتها .

إننى إذ أطرح هذا الموضوع للمناقشة فإنى آمل أن يشترك مثقفونا وعلماؤنا فى بلورة هذه القضية وإلقاء المزيد من الأضواء عليها لنصنع معًا عملاً ننهض فيه بأمتنا ونؤدى لها بعض الدين المستحق لها فى أعناقنا .

* * *



مقاصد الشريعة[1]

يهتم كثير من المتدينين اهتمامًا كبيرًا بأداء الشعائر الدينية المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ويعتقدون أنهم بذلك قد التزموا بتعاليم الدين وأرضوا الخالق الذى ينتظرون منه سبحانه أن يجزل لهم الثواب فى الآخرة . وهذا هو مبلغهم من العلم . ولا يشغل هؤلاء أنفسهم بما وراء ذلك من مقاصد وغايات .

فتصورهم لمفهوم العبادة ينحصر فى هذه الشعائر المعروفة اعتمادًا على ما جاء فى القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنس والجن لهدف واحد وهو العبادة لله وحده فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] . وحقيقة الأمر أن مفهوم العبادة فى الإسلام ، والذى تقصده الآية الكريمة ، يتسع ليشمل كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، أيًّا كان هذا العمل دينيًّا أم دنيويًّا ، طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم ، فذلك كله داخل فى مفهوم العبادة .

ولا شك فى أن أداء الشعائر المفروضة أمر مهم للغاية لأن الإسلام قد قصد بها مصلحة الإنسان فى المقام الأول . فالله غنى عنا وعن عبادتنا - كما يؤكد ذلك القرآن الكريم - ولكنه فرض علينا هذه الفرائض تربية وتهذيبًا وارتقاء بالإنسان . فالصلاة هدفها - كما جاء فى القرآن الكريم - أن ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3] ،

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١٥/ ٩/ ٢٠٠٧ .

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت : آية ٤٥ .

والصيام هدفه التقوى ، أى الوقاية من الوقوع فى المنكرات ، والزكاة تطهير وتزكية للإنسان ، والحج فيه منافع دينية ودنيوية .

ولكن الإسلام ليس هو هذا الجانب الشعائرى فقط ، إنه أكبر من ذلك بكثير . فهذه الشعائر - فى حقيقة الأمر - تعد وسائل لغاية كبرى . فمن المعلوم أن الإنسان لا يعيش وحده فى هذا الكون . ومن هنا فإن علاقته فى هذا الوجود تدور فى دوائر ثلاث تنحصر فى علاقته بنفسه ، وعلاقته بالآخرين من بشر وكائنات حية وغير حية ، وعلاقته بخالق الكون وهو الله سبحانه وتعالى . وعلى الإنسان أن يبذل جهده فى سلامة هذه العلاقات واستقامتها وتحقيق المصالحة مع ذاته ومع الآخرين ومع الله سبحانه وتعالى . ومن شأن الشعائر الدينية أن تدرب الإنسان على تحمل مسئولياته فى هذا الصدد . فإذا لم تفلح فى ذلك فلا خير فيها . فقد حُكى للنبى ﷺ شأن امرأة تصوم وتصلى وتزكى ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : « **هى من أهل النار** »[1] كما ورد فى الحديث الشريف أيضًا أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[2] .

فالشعائر إذن وسائل تربوية للوصول إلى غايات أسمى ومقاصد نبيلة إذا تحققت كان لها أثرها فى نشر الأمن والسلام فى كل ربوع المجتمع .

ويمكن إجمال المقاصد الشرعية من الأحكام التى جاءت بها الشريعة الإسلامية فى كلمة واحدة تعد عنوانًا على الإسلام ذاته ، ونعنى بذلك قيمة «الرحمة» التى جعلها القرآن الكريم الهدف الأسمى من الرسالة الإسلامية كلها ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3] ، والتى تعد على قمة منظومة القيم الإسلامية .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

(٣) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

ومن هنا اتجه الإسلام فى أحكامه إلى تأكيد أمور ثلاثة تنبع كلها من ينبوع الرحمة . ومن هذه الأمور العبادات التى شرعها الله تهذيبًا للنفس الإنسانية لتجعل من الفرد مصدر خير للمجتمع – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – . أما الأمر الثانى فهو إقامة العدل بين الناس دون استثناء حتى مع الأعداء ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1] . أما الأمر الثالث فيتمثل فى تأكيد المصلحة الحقيقية للناس فى دنياهم وأخراهم . والمصلحة المقصودة هنا لا صلة لها بالأهواء والأغراض ، ولا بالمصالح الفردية وإنما تعنى الخير كل الخير بأشمل معانيه للناس جميعًا .

ومن هنا شرع الإسلام من الأحكام ما يحمى هذه المصالح التى تبلغ الحاجة إليها مبلغ الضرورة ولا تقوم حياة الناس بدونها . وهذه المقاصد الضرورية تتلخص فى خمسة مبادئ أساسية هى حماية النفس والعقل والدين والنسل والمال . وحياة الإنسان فى هذه الدنيا تقوم على هذه الأمور الخمسة التى تعد ضروريات لازمة للإنسان من حيث هو إنسان ، كما تعد أصولاً راسخة لحقوق الإنسان العامة التى ينادى بها المجتمع الإنسانى فى العصر الحديث والتى لا تتوافر الحياة الإنسانية الرفيعة إلا بها .

ويعد المقصد الأول وهو حماية النفس ، أو بمعنى آخر الحق فى الحياة ، أصلاً لكل الحقوق الإنسانية ، ولا مجال للحديث عن حقوق أخرى إذا أنكرنا على الإنسان هذا الحق . وكل إنسان فى المجتمع من حقه أن يكون آمنًا على حياته . وإذا كان الله قد كرَّم الإنسان – كما جاء فى القرآن الكريم – فإن هذه الكرامة ذات أبعاد مختلفة . فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته ، وتنطوى أيضًا على حقه فى الأمن على نفسه بصرف النظر عن جنسه أو لغته أو معتقده. والقرآن الكريم يجعل العدوان على فرد واحد بمثابة عدوان على البشرية كلها .

(١) سورة المائدة : آية ٨ .

وإذا كان تقدير الإسلام لصيانة حياة الإنسان على هذا النحو فإن الهدف لا يتحقق إلا بضمان صيانة العقل الإنسانى الذى به يتم العمل على صيانة الحياة على أفضل الوجوه .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالحفاظ على العقل الإنسانى وحمايته من العبث به بأى شكل من الأشكال ، ولا يكتمل الحفاظ على العقل إلا بضمان حق الإنسان فى الحرية . فالحرية هى قوام العقل . وافتقادها يعنى إلغاء دور العقل . وإلغاء دور العقل يؤدى إلى تخلف الفكر وبالتالى يؤدى إلى تخلف المجتمع . ومن أجل ذلك فإن حفظ العقل يعنى ضمان الحرية للعقل وحمايته من أى عدوان على حقه فى التفكير والتعبير .

والحفاظ على العقل لا يكتمل أيضًا إلا بضمان التعليم للإنسان لتتسع مداركه ويتسع أفق الرؤية العقلية لديه ، وبالتالى يكون قادرًا على المشاركة الفعالة فى تنمية المجتمع وتقدمه وازدهاره ، ويكون أيضًا جديرًا بخلافته لله فى الأرض وإعمارها بالعلم وصنع الحضارة فيها .

والعقل من جانب آخر هو الذى يرشد الإنسان إلى الدين . والدين يعد نزعة فطرية أصيلة فى نفس الإنسان . واختيار عقيدة إيمانية معينة حق أصيل من حقوق الإنسان فلا إكراه فى الدين - كما يؤكد ذلك القرآن الكريم - : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] . فحرية الاختيار مكفولة ولا يجوز أن يتدخل أحد فى حرية الإنسان واختياره لعقيدته . وذلك مبدأ ثابت فى الإسلام يضمن حرية الاختيار للمعتقد الدينى دون تخويف أو إكراه . ومن هنا يفهم حرص الإسلام على جعل حفظ الدين وحمايته ومنع العدوان عليه حقًّا أصيلاً للإنسان ومقصدًا أساسيًّا من مقاصد الشريعة الإسلامية التى ترفع لواء التسامح الذى لا نظير له فى السابق ولا فى اللاحق .

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٩ .

أما المقصد الرابع من مقاصد الشريعة الإسلامية فهو حفظ النسل ويعنى بصفة عامة المحافظة على النوع الإنسانى ، كما يعنى بصفة خاصة المحافظة على الأسرة التى تعد الخلية الأولى فى تكوين أى مجتمع إنسانى سليم ، والزواج يعد السبيل الوحيد لتكوين الأسرة فى الإسلام . وحتى تنشأ الأسرة فى جو من الطمأنينة والاستقرار جعل الإسلام الزواج يقوم على علاقة « المودة والرحمة » حتى يتهيأ للأطفال مناخ صحى لتربيتهم تربية سليمة ليكونوا بعد ذلك عناصر قوية وفعالة فى المجتمع .

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن الإسلام لا يجوز اختزاله فى بعض الجوانب وإهمال الجوانب الأخرى . فالإسلام كل لا يتجزأ ، ولا يكتمل إسلام المرء إلا باكتمال العناصر الأربعة التى تشتمل عليها والتى تتمثل فى العقيدة والشريعة والأخلاق والحضارة . إن الإسلام ليس لِحَى تطول أو تقصر وليس جلبابًا له مواصفات معينة وليس دروشة فارغة أو ذهولاً عن الدنيا وما فيها وليس نقابًا يلغى كيان المرأة .

إن إدراكنا الواعى بمقاصد الشريعة الإسلامية من شأنه أن يحرك المياه الراكدة ، ويحيى الأمل فى النفوس المحبطة ، ويحفز الهمم ، ويوقظ الغافلين ويدفع الكسالى إلى العمل المثمر .

وتأكيدًا من الإسلام على الاهتمام بالدنيا وإعمارها جعلت الشريعة الإسلامية حماية المال أحد مقاصدها . فحب المال وامتلاكه نزعة فطرية لا يجوز مصادرتها . وهذا حق من حقوق الإنسان . وحماية هذا الحق أمر لا يجوز التفريط فيه . فالمال عصب الحياة ، ولا يمكن أن تتقدم حياة الناس وتزدهر بدون المال .

* * *



الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع[1]

من المأثورات النبوية التى يعرفها طلاب الكليات الدينية قصة معاذ بن جبل عندما أرسله النبى عليه الصلاة والسلام قاضيًا إلى اليمن . فقد سأله كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال: بكتاب الله . قال: فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال: فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، أى لا أقصر . فأثنى الرسول على معاذ ويروى أنه قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله[2] .

ومن المعروف أن النصوص التى يرجع إليها الفقهاء محدودة ، ولكن وقائع الحياة ومستجدات كل عصر لا تنتهى ، ومن أجل ذلك فإن إنزال النصوص على وقائع الحياة يتطلب عقلاً راجحًا وأفقًا واسعًا وفقهًا واعيًا . وقد أدرك علماء الأمة وفقهاؤها ذلك جيدًا منذ الصدر الأول للإسلام ، وأعملوا عقولهم فى فهم النصوص من جانب ، وفى إنزالها على وقائع الحياة من جانب آخر . والتمكن من هذين الجانبين يعد أمرًا ضروريًا للتوصل إلى رأى فقهى سديد .

وعلى هذا الأساس انفتح الباب واسعًا أمام المجتهدين الذين قاموا بمهمتهم على خير وجه . ونظرًا لأن العقول تتفاوت والأفهام تختلف فى إدراكها وتصوراتها كان من الطبيعى أن يكون هناك اختلاف فى الآراء بين المجتهدين على مر العصور . ومن هنا نشأت مذاهب الفقه الإسلامى المتعددة . وكان فى ذلك تيسير على جمهور المسلمين ، وانتشرت بينهم العبارة المشهورة « اختلافهم رحمة » .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢/٨/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

وليس هناك حرج من أن يتخير المرء ما تطمئن إليه نفسه من الآراء المتعددة للفقهاء فى المسألة الواحدة . فالأمر فى النهاية متروك لهذا الاطمئنان القلبى الذى عبر عنه الرسول الكريم بقوله : استفت قلبك[1] .

وهكذا كان مبدأ الاجتهاد فتحًا جديدًا فى تاريخ التشريع الإسلامى ، وهذا ما جعل المفكر الإسلامى المعروف محمد إقبال يصف الاجتهاد بأنه مبدأ الحركة فى الإسلام . وتشجيعًا من الإسلام على ممارسة الاجتهاد فى المجتمع الإسلامى قرر النبى ﷺ أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران[2] .

والاجتهاد فى الإسلام مبدأ مستمر على مدى الأزمان ، وليس خاصًّا بفترة زمنية معينة ، والفقهاء فى كل العصور مطالبون بالاجتهاد دون توقف . وإذا كان صاحب الشريعة قد فتح لنا باب الاجتهاد على مصراعيه فليس من حق أحد كائنًا من كان أن يغلق هذا الباب . فإغلاقه يعد إغلاقًا لرحمة الله ، وإغلاقًا للعقول ومصادرة على حقها فى الفهم والتفكير . وهذا يعنى ترك الأمور للتقليد : تقليد الأسلاف فيما توصلوا إليه من فهم كان ملائمًا تمامًا لعصورهم وملبيًا لحاجاتهم .

ومن الحقائق التى لا مراء فيها أن الحياة متجددة ، فالتجديد سنة الحياة وقانون الوجود ، ولا يوجد شىء يبقى على حاله ، فحتى خلايا جسم الإنسان تتجدد بصفة مستمرة . وقد أراد الإسلام لنا أن نمارس الاجتهاد لنواكب متغيرات كل عصر . ونحن نعلم أن الإمام الشافعى عندما جاء إلى مصر واستقر فيها بدأ يعيد النظر فى الآراء والفتاوى التى قال بها حينما كان فى بغداد . لأن الفتوى يجب أن تراعى أعراف كل قطر من الأقطار . وفى هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين : « من أفتى الناس بمجرد النقول من الكتب على اختلاف أعرافهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين » .

(١) رواه الدارمى فى سننه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه ونصه : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

ولكننا - للأسف الشديد - تركنا الاجتهاد ولجأنا للتقليد فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاجتهاد من أى وقت مضى . والملاحظ أنه حتى يومنا هذا نجد فقهاءنا حين يبحثون عن حل شرعى لمشكلة جديدة فإنهم يبحثون عن حل لها لدى بعض المذاهب الفقهية القديمة وفى بطون الكتب التى ألف الكثير منها فى عصور التراجع الحضارى للأمة الإسلامية .

ومنذ أكثر من قرن من الزمان عاب الشيخ محمد عبده على الفقهاء مسلكهم هذا وتمسكهم الحَرْفى بما جاء فى هذه الكتب على الرغم من اختلاف ظروف الزمان والمكان . وفى ذلك يقول : « لقد جعل الفقهاء كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين ، ولم يخجلوا من قولهم : إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت أفكارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة » .

فهل يعقل أن تكون الحلول التى توصل إليها الفقهاء السابقون - مع احترامنا لاجتهاداتهم التى كانت مناسبة لعصورهم - هى نفس الحلول لمشكلاتنا المعاصرة ؟

إن الأمر الذى لا شك فيه أن الفقهاء السابقين - الذين أثروا الحياة الفقهية منذ قرون طويلة - لو قدر لهم أن يُبْعَثوا من جديد ويروا ما طرأ على الحياة والأحياء فى أزماننا من تطورات غير مسبوقة لتغيرت بالقطع نظرتهم للأمور ولكانت لهم وجهات نظر متجددة أكثر تطورًا وأكثر فهمًا لمستجدات العصر من كثير من فقهائنا المعاصرين .

وسأضرب بعض الأمثلة على شيوع التقليد غير المقبول لدى الكثيرين من فقهائنا إلى الحد الذى يصل إلى إلغاء عقولنا تمامًا وإلغاء وظيفتها فى التفكير . فقد بحث الفقهاء فى الآونة الأخيرة قضية اشتغال المرأة بالقضاء . وبدلاً من أن ينظروا أولاً فى وضع المرأة فى المجتمع المعاصر ومدى ما وصلت إليه من ثقافة راقية وعقلية واسعة وأفق رحب وتخصص دقيق فى جميع مجالات العلوم والفنون . بدلاً من ذلك كله لجأ كثير من فقهائنا الأجلاء إلى البحث فى بطون الكتب عما قاله أصحاب

المذاهب الفقهية الأربعة فى هذه القضية ، وتوصلوا إلى أن مذاهب الشافعية والمالكية والحنبلية لا يقرون تولى المرأة لأمور القضاء بجميع درجاته . أما بعض الحنفية فقد أجازوا أن تتولى المرأة القضاء فى الأحوال الشخصية والمدنية ولكنها ليست مؤهلة لتولى القضاء فى الجنايات ، على الرغم من عدم وجود نص قاطع يعتمد عليه يحرم المرأة من هذا الحق .

والأمر الذى لا شك فيه أن آراء الفقهاء السابقين كانت وستظل مجرد اجتهادات تخطئ وتصيب . ولم يدَّعِ مؤسسو المذاهب الفقهية أبدًا أن ما يقولونه هو الحق المطلق . فقد قيل للإمام أبى حنيفة : إن هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا مراء فيه ، فرد قائلاً : لا أدرى ، لعله الباطل الذى لا مراء فيه . ومن المأثور أيضًا عن الإمام الشافعى قوله : « رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .

والسؤال هو : أين نحن من فقه الواقع الغائب عن أذهان الكثير من فقهائنا ؟ وأين نحن من فهم الواقع الحالى للمرأة ؟ . وهل المرأة اليوم هى نفس المرأة التى كانت فى عهد مؤسسى المذاهب الفقهية ؟ وأين الاجتهاد المتجدد الذى فتح بابه واسعًا صاحب الشريعة ؟ وأين نحن من فهم مقاصد الشريعة وجوهر الدين ؟. وإلى متى سنظل عالة على فقهائنا الأقدمين ؟

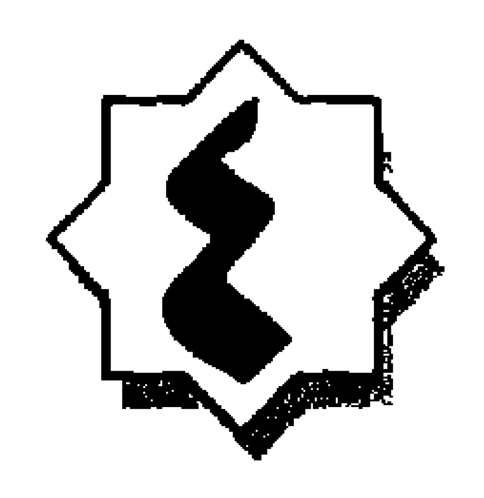
وفى مثال آخر دار البحث حول ختان الإناث الذى هو مجرد عادة وليس عبادة، وأن ما ورد بشأنه من أحاديث كلها ضعيفة لا تقيم حجة ولا يعتد بها . ولكن أحد الشيوخ الأجلاء عندما بحث هذه القضية لجأ إلى البحث فى ذلك عما قاله السابقون وانتهى فى ختام بحثه إلى نتيجة مروعة مرددًا فى هذا الصدد ما ذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية من رأى يقول : « لو اتفق أهل بلد على عدم ختان الإناث فعلى الإمام أن يقاتلهم على ذلك » .

وقد تحدثت مع شيخنا الجليل - رحمه الله وطيب ثراه - عن ضرورة الاجتهاد وعدم الوقوف عند ما قاله السابقون فكان رده : عندما نكون مثلهم فى علمهم يحق لنا الاجتهاد . وهذا أمر غير قائم فى عصرنا .

وأترك الرد على ذلك للشيخ محمد عبده رحمه الله . فمن رأيه أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا معليًا لعقول على عقول . فالسابق واللاحق يستويان فى التمييز والفطرة . وهناك إمكانات متوافرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه : «فاللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه » .

إن الاجتهاد فى عصرنا الحاضر هو الفريضة الغائبة . وممارسة الاجتهاد أصبحت فرض عين على كل من لديه المؤهلات لذلك . ولدينا الكثير من الفقهاء المؤهلين للاجتهاد ، ولكنهم فى حاجة إلى الشجاعة مرتين . كما يرى الشيخ محمد عبده أيضًا : الشجاعة فى رفع قيد التقليد ، والشجاعة فى وضع قيد العقل الإنسانى - الذى هو ميزان الله فى أرضه كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - للانطلاق إلى آفاق التقدم والارتقاء ، ليس فقط على مستوى الفكر الدينى ، بل على مستوى الفكر بصفة عامة وعلى مستوى تطوير حياتنا وتعمير دنيانا وإسعاد أجيالنا فى الحاضر والمستقبل .

* * *



الدين والفلسفة[1]

روى لى أحد الزملاء من أساتذة جامعة الأزهر أنه كان منذ بضعة أعوام فى زيارة لبعض البلاد الأوروبية ، وأراد أن يتعرف على أنشطة أحد المراكز الإسلامية . وهناك التقى بمدير المركز ودار بينهما حديث سأل خلاله شيخ المركز الزميل عن التخصص الذى يقوم بتدريسه فى جامعة الأزهر . وأجابه الزميل بأنه يقوم بتدريس علوم العقيدة والفلسفة . فرد مستنكراً : « كيف تقوم ياشيخ بتدريس الفلسفة ؟ ألا تدرى أنَّ الفلسفة حرام وكفر ؟ » فقال له الزميل بهدوء : أنا مندهش فقط من شىء واحد وهو : كيف أتيت أنت بهذه العقلية إلى هذا المكان ؟ لماذا لم تظل فى بلادك ، وهناك تقول ما تشاء ؟ .

وليس هذا الشيخ وحده هو الذى يحرم تدريس الفلسفة بوصفها كفراً وإلحاداً . فهناك كثيرون من أمثاله لا يعرفون شيئاً عن الفلسفة ولكنهم سمعوا أنها حرام ودرجوا على ذلك .

والقضية فى حقيقة الأمر قديمة قدم الفلسفة ذاتها . ويرجع رفض الفلسفة وعلومها إلى الجهل بها ، والناس فى العادة أعداء ما جهلوا .

والسؤال هو : هل صحيح أن الفلسفة حرام ومعادية للدين ؟

ولتوضيح هذا الأمر نود أن نتعرف على مجمل قضايا الدين وقضايا الفلسفة ومنطلقات كل منهما، وما إذا كانت الفلسفة تؤدى بالفعل إلى الكفر والإلحاد أم لا؟.

إن هناك مقولة قديمة معروفة تعبر عن علاقة الدين بالفلسفة تقول : الفلسفة بنت الدين وأمُّ العلوم . وهذا يعنى أن الدين هو الأصل وهو كذلك بالفعل فهو

(١) نشر بصحيفة الأخبار فى ٣١ مارس ٢٠٠٧ .

قديم قدم البشرية ذاتها . أما الفلسفة فإنه على الرغم من أن التفكير الفلسفى بصفة عامة بوصفه ممارسة فكرية لنشاط العقل الإنسانى يعد مصاحبا للإنسان منذ نشأته فإنه يكاد يكون هناك إجماع لدى مؤرخى الفلسفة على أن تاريخ الفلسفة الحقيقى بوصفه نشاطًا عقليًا منظمًا قد بدأ بالفلسفة اليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد .

والمتأمل فى قضايا الدين يجد - على سبيل المثال - أن القرآن الكريم قد نبه العقول إلى ثلاث قضايا أساسية تعد مجالاً خصبًا للتأمل العقلى ، وجعلها تندرج فى سلسلة واحدة تسلم كل حلقة فيها إلى ما بعدها .

وهذه القضايا هى الإنسان والعالم والله . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(١) فالآفاق تعنى الكون أى العالم بأرضه وسمائه وما بينهما ، أما الأنفس فإنها تعنى الإنسان من بدايته إلى نهايته والذى يعد فى حقيقة الأمر محور هذا الكون ، أما القضية الثالثة فهى الحق . والحق هو الله تعالى .

وهذه القضايا التى وردت فى الآية المشار إليها هى نفس قضايا الفلسفة التى شغلت بها ولا تزال ، وإن تركز الاهتمام فى بعض العصور على بعض الجوانب أو بعض التفريعات المنبثقة عن هذه القضايا الأساسية .

والملاحظ أن ترتيب هذه القضايا من حيث ظهورها تاريخيًا على المستوى الفلسفى هو نفس الترتيب الوارد فى الآية الكريمة . وهو بالفعل التطور التاريخى . فالإنسان عندما يفتح عينيه يجد العالم من حوله بما فيه ومن فيه ، فيتركز اهتمامه وينصب تأمله على هذا العالم ، وبعد أن يفرغ المرء من تأمل هذا الآخر والتعرف عليه نجده يرتد ثانية إلى نفسه متأملاً ذاته فى محاولة للتعرف عليها ، وهذا التأمل يؤدى به - فى العادة - فى نهاية المطاف إلى أصل الوجود ، أى إلى الحق سبحانه . إنها إذن حلقات متصلة تسلم كل منها إلى الحلقة التى تليها - كما سبق أن أشرنا - .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

وتاريخ الفلسفة اليونانية يبين لنا أن السؤال الذى كان مطروحاً فى بداية نشأة هذه الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد كان سؤالاً عن الكون من حولنا ، وبالتحديد عن المادة التى يتكون منها العالم . وقد كانت الإجابة حينذاك تنحصر فى الماء والهواء أو النار أو التراب أو كلها مجتمعة . وهذه الإجابة كانت تعبر بطبيعة الحال عن المستوى الذى وصل إليه العلم حينذاك . ولكن العلم الحديث قد تجاوز مرحلة العناصر الأربعة المشار إليها واكتشف عشرات العناصر التى وصلت إلى أكثر من مائة واثنى عشر عنصراً .

وفى عصر سقراط قيل عنه إنه نقل الفلسفة من السماء إلى الأرض بمعنى نقلها من البحث فى أصل هذا الكون إلى التأمل فى الإنسان ذاته . وقد تأثر سقراط فى هذا التحول بعبارة وجدها على معبد دلفى فى اليونان فى ذلك الوقت تقول : أيها الإنسان اعرف نفسك .

وفى عصر أفلاطون وتلميذه أرسطو أضافا إلى هاتين القضيتين وهما الكون والإنسان قضية ثالثة هى الألوهية أو الميتافيزيقيا . وبذلك اكتملت حلقات هذه السلسلة من القضايا الفلسفية . وهنا يتفق الدين مع الفلسفة فى بحث هذه القضايا . ولكن منطلقات الفلسفة فى بحث هذه القضايا تختلف عن منطلقات الدين ، وذلك راجع إلى أن الدين يعتمد فى التعرف على هذه القضايا على الوحى الإلهى ، أما الفلسفة فإنها تعتمد على العقل ومقولاته .

إن هناك إذن تشابكًا بين الدين والفلسفة ، ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن تناقضًا حاداً يتعذر تجاوزه ، وإن كانت بعض العصور اللاحقة قد عرفت بعض التيارات الفكرية والدينية التى جعلت الدين والفلسفة على طرفى نقيض . وهذا فى حقيقته تفسير خاطئ للعقل وللدين على السواء .

إن الفلسفة إذا كانت تعتمد على العقل ، والدين يعتمد على الوحى . فإن الدين والعقل من النعم الكبرى التى أنعم الله بها على الإنسان . فكيف يؤدى استخدام نعم الله إلى غضب الله ؟ .

لقد خصص الفيلسوف العظيم ابن رشد كتيباً عرض فيه هذه القضية بعنوان : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . ومصطلح الحكمة مصطلح شائع فى الثقافة العربية ويعنى الفلسفة . والشريعة تعبير عن الدين . فابن رشد يعالج فى هذا الكتيب موضوع علاقة الدين بالفلسفة .

ويصور ابن رشد فى هذا الكتيب قوة العلاقة بين الفلسفة والدين بقوله : «الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، وهما المصطحبتان بالطبع والمتحابتان بالجوهر والغريزة » .

ويقول أيضاً : « فإننا- معشر المسلمين - نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع . فالحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » .

وعندما كان الشيخ محمد عبده طالباً فى الأزهر اتصل بجمال الدين الأفغانى وداوم على حضور دروسه فى الفلسفة ، فوشى الواشون إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالات التى توقع فى الشبهات وتزلزل المعتقدات ، فسافر الوالد من محافظة البحيرة - مديرية البحيرة حينذاك - إلى ولده فى القاهرة فور سماعه نبأ هذه « الكارثة » ، ووصل إليه فى الساعة الثالثة صباحاً محذراً منذراً بالويل والثبور وعظائم الأمور ، كما يروى الشيخ محمد عبده فى مقال له فى صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧ م . وقد هدأ الابن من ثورة أبيه وطمأنه إلى أن ما يدرسه أمور لا صلة لها بالكفر والضلال ، فدراسة العلوم العقلية تعد ضرورة لا غنى عنها لأمور الدين والدنيا على السواء .

ولا تزال هناك حتى يومنا هذا عقول متحجرة لا تريد أن ترى الحقائق فى ضوء العقل ، وكأن هذا العقل رجس من عمل الشيطان ، مع أن العقل « قبس من نور الله» واستخدامه فريضة إسلامية وعدم استخدامه يعد من أكبر الذنوب التى تؤدى بصاحبها إلى الهلاك كما يقول القرآن الكريم حكاية عن الكفار يوم القيامة : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم »[١] .

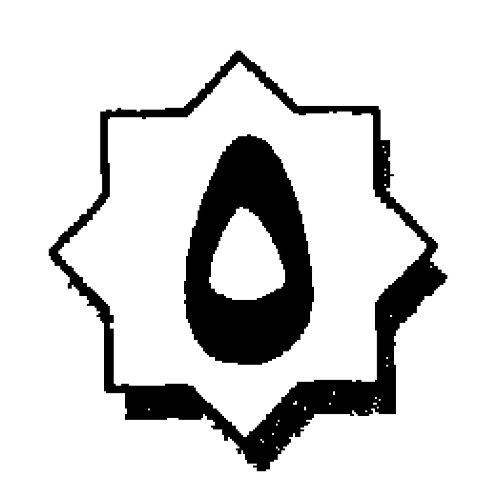
(١) سورة الملك : ١٠ ، ١١ .

إن العقل – فى حد ذاته – والدين كذلك فى جوهره لا يمكن أن يحدث بينهما صدام أو عداء . فالعقل أثر من آثار الله والدين كذلك وآثار الله لا يناقض بعضها بعضا . فقد خلق الله كل شئ بقدر وبحكمة بالغة . ولكن الإنسان – الذى منحه الله الحرية – هو الذى يسئ أحياناً استخدام نعم الله . ومن هنا يحدث النزاع والشقاق . ولكن استخدام هذه النعم فيما خلقت من أجله لا يمكن أن يقود إلى تناقض أو تنافر .

ويضاف إلى ذلك أن قلة العلم والتسرع فى إصدار الأحكام يؤدى فى العادة إلى أخطاء فوق أخطاء . ومن هنا وجدنا الفيلسوف الإنجليزى المعروف فرنسيس بيكون يقول : « إن القليل من الفلسفة قد يؤدى إلى الإلحاد أما التعمق فيها فإنه يؤدى إلى الإيمان » .

والفهم الصحيح للإسلام لا يمكن أن يؤدى إلى رفض الفلسفة أو يحرم التفلسف الذى يعنى استخدام العقل الإنسانى . ومن هنا حرص الفلاسفة المسلمون على التوفيق بين العقل والدين وإزالة ما قد يبدو من تناقض بينهما . ولم يحدث نزاع أو تنافر بين الدين والفلسفة إلا فى العصور التى شهدت تراجع الحضارة الإسلامية ، هذا التراجع الذى كان له أثره فى التحجر العقلى وضيق الأفق الذى لا يزال – للأسف الشديد – سائداً لدى البعض فى مجتمعاتنا الإسلامية . وتنوير العقول هو العلاج لهذه الفئات لإزالة رواسب الجهل وانغلاق العقول والقضاء على ضيق الأفق ليحل محل ذلك العلم والانفتاح العقلى وسعة الأفق . وبذلك تتقدم الأمم وترقى الشعوب وتشق طريقها بثقة وأمان إلى ما فيه خيرها ورفعة شأنها . ومازلنا نحتفظ بالأمل فى حدوث ذلك فى وقت نراه قريباً بإذن الله .

* * *



الـدين والخرافة[1]

عندما توفى إبراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام حـزن عليـه حزنـاً شـديداً كأى أب فقد فلذة كبـده . وبعـد أن واراه الـتراب ذرفـت عينـه بالـدموع ، وحـزن الصحابة لحزن الرسول . وقد تصادف فى هذا الوقت أن كـسفت الـشمس ، وهـذه ظاهرة كونية يعرفها الفلكيون منذ القدم . ولكن بعض الصحابة قال - بحـسن نيـة بطبيعة الحال - « لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم » .

وعلى الرغم مما كان عليه النبى من شدة الحزن فإن ذلك لم يمنعه مـن التـصدى لهذه الخرافة حتى لا تنتشر بين الناس ، وقال فى حسم قاطع : « **إن الـشمس والقمـر آيتان من آيات الله لا يخسفان ولا يكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد** »[2] .

لقد تذكرت ذلك عندما قرأت فى الآونة الأخيرة عن الشجرة التى وجد الناس عليها لفظ الجلالة. واندفع الناس آلافًا مؤلفة قاصدين هذه الشجرة لرؤيـة المعجـزة وربما أيضًا للتبرك بها . وعجبت كما عجـب غـيرى مـن الرافـضين للخرافـات مـن سرعة انتشار هذه الخرافة ومن سرعة تصديق الناس لها .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تروج فيها مثل هذه الشائعات . فبـين الحـين والآخر تنشر الصحف أخبارًا مماثلة عن العثور على ثمرة من ثمار الفاكهـة أو غيرهـا مكتوب عليها لفظ الجلالة أو صيغة الشهادة أو اسم محمد ، وغير ذلك مـن قـصص وروايات خرافية تنتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٨/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

وكل ذلك قد يكون من قبيل المصادفات التى لا تعنى شيئاً ، وقد يكون بفعل فاعل للترويج لها والتربح من ورائها مادياً أو معنوياً . ولا شك فى أن تصديق جماهير الناس لمثل هذه الخرافات يدل - للأسف الشديد - على افتقاد العقلية الناقدة ، وبالتالى الانسياق بسهولة وراء الشائعات والخرافات التى لا نصيب لها من الحقيقة والمصداقية.

والسؤال الملح فى هذا الصدد هو : هل الإسلام كدين فى حاجة إلى مثل هذه الخرافات للدلالة على صحته ؟ إن الحقيقة التى لا شك فيها أن زمن المعجزات قد انتهى بوفاة آخر نبى أرسله الله رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الحق والعلم والمعرفة . ومن هنا نفهم لماذا بدأ الوحى القرآنى بالأمر بالقراءة والإشادة بالعلم وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل هذا العلم .

إن هذا الاهتمام ليس من قبيل المصادفة ، وإنما هو اهتمام مقصود وله دلالة كبيرة . فقد أراد الله بذلك من بادئ الأمر أن يلفت نظر الناس إلى مفاتيح الحضارة قبل أن يحدثهم عن أى شىء آخر . فإذا اجتهدوا وتمكنوا من امتلاك هذه المفاتيح كان فى وسعهم بناء الحضارة - التى هى مسئولية الإنسان - كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [1] أى طلب منكم عمارتها . وصنع الحضارة فيها .

أما الكرامة التى قد تظهر على يد ولى من أولياء الله الصالحين فإن الولى الحقيقى لا يجوز له أن يفشى سر ما يظهر على يديه من كرامات أو يعلن عنها أو يتحدث بها حتى لا يغتر الناس بها وتكون سبباً فى انتشار الخرافات بينهم .

وفى مثل هذه المواقف كان الإمام الغزالى يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

---

(١) سورة هود : ٦١ .

وما أكثر ما ينتشر بين عامة الناس من ألوان الدجل والشعوذات ، وما يصنعه الدجالون من أحجبة وغيرها من وسائل لفك السحر وزيادة المحبة أو الكراهية أو طرد الجن الذى يتلبس بعض الأجسام وغير ذلك من خرافات لا تزال - للأسف الشديد - تجد لها سوقاً رائجة فى أوساط العامة . وهذه كلها أمور يحاربها الدين ويأباها العلم ويرفضها العقل .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام اهتماماً بالغاً بالعقل وضرورة تمكينه من أداء دوره كاملاً فى حياة الناس ، كما اهتم بالعلم وجعله فريضة من فرائض الإسلام على كل مسلم ومسلمة . وجعل مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء ، كما وصف العلماء - بالمعنى الواسع لهذا المفهوم - بأنهم أخشى الناس لله ، لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم أسرار الخلق وجمال الكون وعظمة الخالق .

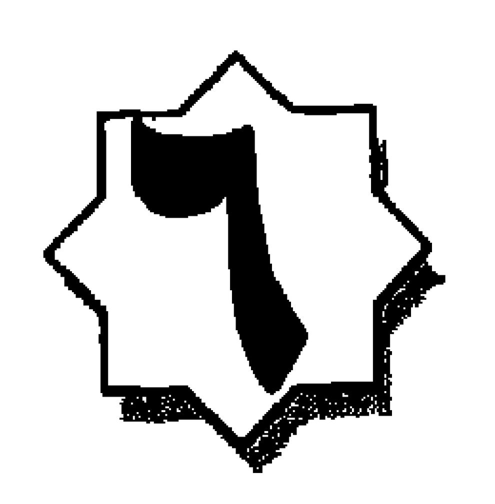
وإذا كان الإسلام يشجع العلم والعلماء فإنه يرفض الجهل وما يجره وراءه من الجرى وراء الخرافات والدجل والشعوذات ، ولا يقر إلا ما يتفق مع العقل والمنطق، فهذا هو ما يليق بالإنسان خليفة الله فى الأرض الذى كلفه بعمارتها وصنع الحضارة فيها . ولا حضارة بدون علم ، ولا علم بدون عقل .

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى دور الإسلام الحاسم فى مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده حيث « أطلق سلطان العقل من كل ما كان يقيده ، وخلصه من كل تقليد كان يستبعده ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته » .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، فى وقت كان العلم لا يزال يحبو فيه لكشف أسرار الكون ، فما بالنا نحن الذين نعيش فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية ، وأى عذر لنا يحملنا على الجرى وراء الأوهام والتصديق بالخرافات ؟ .

لقد آن الأوان لأن نكف عن هذا العبث الذى يريد البعض من ورائه شغل عامة الناس بما لا يفيد والإبقاء عليهم فى حالة من التخلف والجمود . ولا خلاص لأمتنا إلا بالعلم وحقائقه والعقل ومقرراته ، مع التأكيد على أن ذلك لا يتعارض بحال من الأحوال مع تعاليم الدين الصحيحة ، لأن الإسلام - كما يقول الشيخ محمد عبده أيضاً - « لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى . فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية» .

* * *



السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة[1]

تحت عنوان « السنن الإلهية وأثرها فى نهضة الأمم » عقد قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة فى شهر أبريل ٢٠٠٨ مؤتمره السنوى الدولى الذى ناقش فيه الجوانب المختلفة لموضوع السنن الإلهية .

وقد يبدو للبعض أن هذا الموضوع لا يعدو أن يكون مجرد قضية دينية يناقشها متخصصون فى الدراسات الإسلامية . ولكننا نعتقد أنه من أكثر الموضوعات أهمية بالنسبة لحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها . ولا نبالغ إذا قلنا إنه يعد من الموضوعات المصيرية للمجتمع الإسلامى . فموضوع السنن الإلهية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفاتيح الحضارة التى نبه إليها القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى .

فقد جاء الأمر بالقراءة فى أول الوحى مرتين ، وهذا يعنى قراءة الكتاب المسطور وهوالقرآن الكريم ، الذى يلفت نظرنا باستمرار إلى التدبر فى آيات الله فى الكون وفى الإنسان ، ويعنى أيضًا قراءة الكتاب المفتوح وهو الكون المنظور للتعرف على القوانين التى تحكم سيره وتضبط حركته ، وهى قوانين لا تتبدل ولا تتخلف ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[2] .

ومن هنا يمكن القول بأن السنن الإلهية تعنى القوانين الحاكمة لهذا الكون والتى قد يطلق عليها العلماء المعنيون بدراسة الكون مصطلح القوانين الطبيعية . وإن كان هذا المصطلح لا يستوعب فى حقيقة الأمر ما تعنيه السنن الإلهية من ثراء يشمل الكون المادى والإنسانى معًا .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ١٢، ١٩، ٢٦ مايو ٢٠٠٨ .

(٢) سورة فاطر : ٤٣ .

وإذا كان الله قد خلق لنا هذا الكون بما فيه من كائنات ، وبمن فيه من البشر ، وجعل الإنسان فى الوقت نفسه خليفة له فى الأرض ، فإننا - نحن البشر - نتحمل المسئولية عن هذا الكون والتعمق فى دراسته وفهم أسراره حتى ندرك آيات الله فى الكون وفى الإنسان ، ونكتشف قوانين المادة وسنن الاجتماع البشرى ، ونتعرف على السنن التاريخية . فمن شأن ذلك كله أن يجعلنا نفهم التاريخ ونعتبر بالدروس المستفادة منه ، كما يمهد لنا السبيل لفهم أسباب قيام الحضارات وسقوطها . فليس هناك شىء فى هذا الكون يسير بطريقة عشوائية أو بمحض الصدفة : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

ولا جدال فى أن السبيل إلى الكشف عن هذه السنن الإلهية ، والتعرف على آيات الله فى الكون وفى الإنسان هو العلم بجميع أبعاده . وهذا يعنى أن دراسة السنن الإلهية لا يمكن أن تتم بمعزل عن العلم . والتأمل فى الكون وفى الإنسان طريقان يوصلان إلى معرفة الحق سبحانه مصدقًا لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2] . وهذه الآية الكريمة تشير إلى ثلاث دوائر معرفية هى الكون والإنسان والله . وهى ذات الموضوعات الفلسفية التى حاول العقل الإنسانى منذ بداية الخلق ولا يزال التعرف عليها والتعمق فى فهمها .

وإذا كانت سنن الله فى الكون تعنى القوانين التى تحكم مسار هذا الكون ، وسنن الله فى الإنسان تعنى القوانين التى تحكم الاجتماع البشرى ، فإن التعرف على هذه السنن ، والتطبيق العملى لها وفقًا للمناهج المقررة فى العلوم المختلفة ، هو السبيل إلى قيام الحضارات ونهضة الأمم وتقدم الشعوب . أما الغفلة عن هذه السنن والسير وراء الخرافات والأوهام فإنه السبيل المؤدى إلى تخلف الشعوب وانهيار الحضارات .

(١) سورة يس : ٤٠ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

وإذا كان الله قد علم آدم الأسماء كلها قبل أن يهبطه إلى الأرض فإن معنى ذلك أنه أعطاه مفاتيح العلم التى هى فى الوقت ذاته مفاتيح الحضارة . وعليه - وعلى ذريته من بعده - أن يطرقوا كل أبواب البحث ويسلكوا السبل الموصلة إلى الأهداف الحضارية التى كلف الله بها الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] أى طلب منكم عمارتها وبناء الحضارة فيها .

ولاشك فى أن تقدير الإسلام للعلم والعلماء من شأنه أن يدفع المسلمين إلى الاهتمام بالعلم ويحفزهم - كما كان الشأن مع أسلافهم - إلى مواصلة اكتشاف السنن الإلهية فى الكون وفى الإنسان ، والإسهام فى بناء الحضارة الإنسانية وإرساء دعائم السلام والاستقرار فى العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

ومن الأمور التى نبه إليها القرآن الكريم ، والتى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان ، أن السبيل إلى سبر أغوار هذا الكون والتعرف على أسراره لن يكون متاحاً إلا لهؤلاء الذين يبذلون أقصى طاقاتهم من أجل اكتشاف القوانين الحاكمة لهذا الكون وتوظيفها فى مصلحة الإنسان ، بصرف النظر عن الانتماءات العقدية أو العرقية لهؤلاء الباحثين ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

وختام هذه الآية واضح فى أن الأقوام التى تفكر وتتبع سبيل العقل وتهتدى بنور العلم هى التى ستصل إلى تحقيق الأهداف المنشودة . فالله لا يمنح أحداً من خلقه هذا الفضل مجاناً . والواقع يؤكد لنا ذلك بما لا يدع مجالاً للشك ، فالذى يتأمل عالمنا المعاصر الذى يشتمل على شعوب متقدمة وأخرى متخلفة سيكتشف بسهولة هذه الحقيقة . فمن يفكر ويسعى ويجتهد ويبحث وينقب سيصل حتماً إلى تحقيق ما يريد ، فتلك سنة الله فى خلقه .

---

(١) سورة هود : ٦١ .

(٢) سورة الجاثية : ١٣ .

والواقع يبين لنا أيضاً أن المسلمين عندما غفلوا عن هذه الحقيقة وركنوا إلى التواكل والتقليل من شأن العلم دارت عليهم الدائرة وتراجعوا حضارياً ، وتوقفوا وسار غيرهم فى طريق العلم دون توقف . ومن هنا فإننا نرى كل يوم شيئاً جديدًا يكتشفه هؤلاء . وأصبحنا نحن المسلمين - للأسف الشديد - عالة عليهم ، وبمعنى آخر أصبحنا زبائن دائمين فى « سوبر ماركت » الآخرين نستهلك كثيراً ولا ننتج شيئاً إلا أقل القليل .

وظن الكثيرون خطأ أن العلم فى الإسلام مقصور على العلم الدينى فقط . وعلى الرغم من هذا الفهم الخاطئ فإن العلم الدينى قد تجمد هو الآخر فى عقول هؤلاء الواهمين على نحو أفقدهم الوعى وشل قواهم الفكرية عن فهم ما يدور حولهم فى هذا الوجود .

وقد اتخذ خصوم الإسلام من ذلك دليلا على أن التمسك بالإسلام يعنى الجمود والتخلف والرجعية . وقد قال بذلك كثير من المستشرقين ومن بينهم المستشرق المعروف إرنست رينان فى مناظرته الشهيرة مع جمال الدين الأفغانى . ومن بين ما قاله فى هذا الصدد : « إن ما يميز المسلم فى الواقع بشكل جوهرى هو كراهيته للعلم والاقتناع بأن البحث فيه باطل ولا جدوى منه ومدعاة للكفر » .

ولا تزال مثل هذه الدعاوى الباطلة تتردد فى وسائل الإعلام الدولية وفى كتابات كثيرين فى الغرب ممن يعتبرون أنفسهم خبراء فى شئون الإسلام والمسلمين .

والسؤال الذى يمكن أن يطرح فى هذا الصدد هو : هل صحيح أن التزام المسلمين بالإسلام هو الذى يعوق تقدمهم العلمى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فأى إسلام هذا الذى يجذب المسلمين إلى الوراء فى الوقت الذى يسرع فيه الآخرون الخطى ؟ وهل يطبِّق المسلمون بالفعل مثاليات الإسلام ، وبالتالى تحجبهم هذه المثاليات عن أى تقدم علمى ؟ .

إن الحقيقة المرة هى أن ما يقرب من نصف المسلمين فى العالم أميون لا يقرءون ولا يكتبون . فهل يتفق هذا مع مثاليات الإسلام ؟ لقد كان النبى يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا علَّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . ومن ناحية أخرى

فإن الإسلام دين يعلى من شأن العلم إلى درجة تجعل منه فريضة دينية على كل مسلم ومسلمة ، كما يحث على العمل ويجعل الإيمان الصادق مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعمل الصالح ، كما يتضح ذلك فى عشرات الآيات فى القرآن الكريم .

فهل المسلمون ملتزمون بهذه المثاليات ، ولذلك أدت بهم إلى التخلف العلمى؟ إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا . فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام عدوًا للعلم، وإنما كان وسيظل عدوًا لكل تخلف علمى . وحل مشكلة التخلف لا تكون إلا بالسير قدمًا فى طريق البحث العلمى الذى يؤدى إلى تطوير الحياة بالعلم ومنجزاته .

إن الأمر الذى يؤسف له أن يخرج من بين صفوف المسلمين من يهاجم العلم والعلماء والبحث العلمى وينكر الحقائق العلمية التى توصَّل إليها العلم معتقدًا أنه بذلك يدافع عن الإسلام . والواقع أنه يسىء إلى الإسلام أبلغ إساءة ، ويعطى لخصوم الإسلام المبرر للزعم بعداء الإسلام للعلم والعلماء . وهذا شأن الأصدقاء الجهال الذين يؤذون الإسلام بجهلهم . والأذيَّة من الصديق هى أشد أذيَّة مَن العدو كما يشير ابن رشد إلى ذلك أيضًا فى سياق مماثل لما نحن بصدده الآن .

وهؤلاء الأصدقاء الجهال يشكلون كارثة بالنسبة للإسلام ، فهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، وبدلاً من أن يستروا جهلهم يقومون بإعلانه على الملأ . وليتهم يكتفون بذلك ، ولكنهم يعلنون أن ما يقولونه هو الإسلام . والإسلام برىء فى واقع الأمر مما يقولون .

وإذا كانت هذه الأفهام الفاسدة تقف دائمًا عقبة فى طريق العلم والبحث العلمى فإنها بذلك تعطى للآخرين ذريعة لاتهام الإسلام كدين بأنه مناقض للعلم ومضاد للبحث العلمى . وقد حدث ذلك بالفعل فى الماضى ويحدث فى الحاضر أيضًا.

ومنذ أكثر من عشرين عامًا سعدت بصحبة الشيخ / محمد الغزالى - رحمه الله - لسنوات فى جامعة قطر . وقد أطلعنى ذات مرة - وهو فى غاية الأسف والحزن - على كتاب كان قد صدر حينذاك فى بعض الأقطار العربية ، يزعم فيه مؤلفه -

المحسوب على العلم الدينى - أنه أتى فى هذا الكتاب بثمانية وأربعين دليلاً من القرآن على أن الأرض لا تدور .

والذى يقرأ هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التى تنشر الخرافات بين الناس يعذر المستشرق الفرنسى رينان وغيره من المستشرقين الذين يزعمون أن الإسلام عدو للعلم وللبحث العلمى . ولا تزال مثل هذه الأفكار الخاطئة تنشر على الناس باسم الإسلام ، المظلوم من أتباعه قبل خصومه .

ولنتأمل فى هذا الصدد قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ (الإسراء ١٢) . فتعاقب الليل والنهار من آيات الله ، وقد أراد الله لنا بذلك أن تتهيأ أمامنا الفرصة لنبتغى فضلا من ربنا ، أى لنسعى فى الأرض نطلب الرزق من فضل الله ، وفى الوقت نفسه لنعلم عدد السنين والحساب .

وقد وردت الإشارة إلى العلم بالسنين والحساب بالألفاظ ذاتها فى الآية الخامسة من سورة يونس : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾[1] . والتعبير هنا بقوله ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ يشير إلى علم لا مجال فيه للظن أو التخمين ، ويترتب عليه بطبيعة الحال انتظام أمور الناس فى دينهم ودنياهم ، ومن ذلك على سبيل المثال معرفة مواقيت العبادات كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك من الأمور الدنيوية المتصلة بمصائر الأمم والشعوب فى تطورها وتقدمها وبنيانها الحضارى .

وعلى الرغم من هذا البيان القرآنى الواضح فإن هناك من يتجاهل ذلك الذى تشير إليه هاتان الآيتان اللتان تدلان على سنن إلهية تدعونا إلى العلم بهذا الكون

(١) سورة يونس : ٥ .

وتوظيف هذا العلم فى خدمة الحياة والأحياء . ويتمسك هؤلاء بحديث يقول : « **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب** »[1] . ويقع المسلمون سنويا فى حرج التعرف على بداية شهر الصوم من كل عام لرفض الكثيرين منهم الاعتراف بالحسابات الفلكية الدقيقة.

والحق أن الحديث المشار إليه كان مجرد وصف للحال الذى كان عليه المسلمون آنذاك ، ولم يكن أبداً دعوة للأمية وعدم الأخذ بأسباب العلم . وفضلاً عن ذلك فإن الحديث - مهما كانت درجة صحته - لا يمكن أن يكون حاكمًا على صريح القرآن، وإنما الأمر على العكس من ذلك تمامًا .

إن الإسلام - الذى حرر العقل من كل أشكال التقليد - قد أفسح المجال أمام العلم والبحث العلمى إلى أبعد الحدود . ولم يضع حدوداً ولا قيوداً أمام البحث العلمى . والحدود والقيود والعقبات من صنع « الأصدقاء الجهال » ، الذين هم أضر بالإسلام من الخصوم العقلاء ، وصنيعهم مع الإسلام مثل صنيع الدبة التى قتلت صاحبها بحجر كبير ألقته على وجهه بنية إبعاد ذبابة تزعجه فى نومه .

وهؤلاء هم سبب بلاء الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر بما يصدر عنهم من فتاوى تسيء إلى الدين أبلغ إساءة . وما يشهده عالمنا المعاصر من اتهامات للإسلام بالإرهاب والدموية وعداء للعلم وكراهية للتقدم العلمى يرجع إلى هؤلاء ، ولا خلاص للأمة الإسلامية من تخلفها إلا باستقلال الفكر وحرية البحث والاجتهاد .

ومن الحقائق المقررة أن العلم يعد قسمة مشتركة بين الناس جميعًا . ومن هنا فإن العلوم الكونية ليس فيها ما يمكن أن نطلق عليه علمًا إسلاميًّا أو غير إسلامى . فالعلم لا وطن له ولا جنسية ولا ديانة . وعلم الكيمياء مثلاً لدى المسلمين هو نفسه لدى المسيحيين أو اليهود أو البوذيين .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، باب الصوم .

ومن نافلة القول أن نؤكد هنا أن كل ما يتعلق بالدين يعد من الخصوصيات لهذه الحضارة أو تلك ، أما ما هو قسمة مشتركة بين كل بنى البشر فلا فرق على الإطلاق . ومن المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد : « اطلبوا العلم ولو فى الصين»، أى : حتى ولو كان فى أبعد مكان فى الدنيا ، أو بمعنى آخر : حتى ولو كان فى يد من لا يدينون بدينكم . ومن البديهى أن العلم الذى نطلبه ولو فى الصين لا صلة له بالعلم الدينى ، وإنما هو العلم بجميع أبعاده ، إنه العلم الذى يخدم الحياة التى نعيش فيها . والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها[1] - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن العلماء (بالمعنى الواسع للكلمة) هم أخشى الناس لله ، لأنهم الذين يستطيعون فهم سنن الله فى الكون وإدراك روعة الخلق وجلال الخالق . ومن هنا اعتبر النبى عليه الصلاة والسلام مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء[2] .

إن المشكلة - إذن - ليست بين الإسلام والعلم ، وإنما هى مشكلة فئة من الجامدين والجاهلين تريد أن تفسر الدين على هواها ، وتريد أن ترغم الدين على الأخذ برؤاها المتخلفة وتصوراتها المتحجرة . ولابد من التحرر من أسر هذه العقليات والنظر إلى الأمور بنظرة استقلالية بعيدة عن أى تقليد ، « فلا خلاص إلا فى الاستقلال » - كما كان يقول الإمام الغزالى - .

إننا فى حاجة إلى عقليات متحررة من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذات ، ومتحررة من الجهل والتقليد ، عقليات تزن كل شيء بميزان العقل قبل أن تسلم به . فالآفة التى تشد المسلمين إلى التخلف والجهل - كما يقول الشيخ / محمد عبده - تتمثل فى التقليد الأعمى وفى مصادر التثقيف السيئة . ويحضرنى فى هذا المقام العبارة التى ختم بها الإمام الغزالى كتابه (ميزان العمل) حيث يقول :

(١) رواه الترمذى فى سننه ، باب العلم . وابن ماجه فى سننه ، باب الزهد .

(٢) رواه السيوطى فى جامع الأحاديث . .

«ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب (أى : للبحث) فناهيك به نفعًا . فالشكوك هى الموصلة إلى الحقائق . فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

ومن المعلوم أن البحث العلمى فى حاجة إلى مثل هذه الشكوك ، لأنه لا يجوز أن يسلم الباحث بشىء إلا ما تثبته التجارب ، وتقره القوانين العلمية بأسانيد قوية وبراهين قاطعة . ولست أعدو قول الحق إذا قلت إن الجهاد الحقيقى أمام المسلمين فى عالم اليوم ، والذى يعد فريضة غائبة فى عالمنا الإسلامى ، هو الجهاد فى مجال العلم والتنافس فى ميدان البحث العلمى ، أما جهاد الحناجر الذى يملأ الدنيا ضجيجًا فإنه لن يفيد الإسلام والمسلمين فى شىء .

إن سنن الله فى الكون وفى الإنسان تدعونا - نحن المسلمين - أن ننهض بعد طول رُقاد ، ونستيقظ بعد طول سُبات ، ونزيل عن أعيننا وعقولنا الغِشاوة التى حجبت عنا الرؤية السليمة دهورًا طويلة . ولن تتبدل أحوال المسلمين إلا طبقًا لقانون التغيير الإلهى القائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] ، فتلك سنة الله فى خلقه التى لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .



الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر[1]

لقد خلق الله الإنسان وزوده بكل القوى والملكات التى تساعده على أداء دوره المنوط به فى هذه الحياة وهو إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها ونشر الأمن والسلام فى أرجائها .

وعلى رأس الملكات التى أنعم الله بها على الإنسان نعمة العقل الذى به يميز الإنسان الخير من الشر والنافع من الضار والحق من الباطل . وبدون العقل أو بدون استخدامه لا يمكن للإنسان أداء أى دور يفيد الحياة والأحياء . ولكن العقل إذا كان يقوم بدور المشرع والمخطط لحياة الإنسان فإنه فى حاجة إلى أداة تكون مهمتها التنفيذ لما يراه العقل الإنسانى محققًا لسعادة الإنسان .

وهذه الأداة هى الإرادة الإنسانية التى تقوم بالمهمة التنفيذية . ولكن الإرادة الإنسانية ليست مجرد أداة وإنما هى إرادة حرة فى مقدورها أن تستجيب لنداء العقل الإنسانى وفى مقدورها أيضًا أن ترفض وتفعل نقيض ما يريد . وهذا أمر واقع يستطيع كل إنسان أن يلحظه فى نفسه . فالعقل لا يعمل وحده فى تسيير سلوك الناس ، فهناك بالإضافة إلى ذلك رغبات متنوعة وشهوات وأهواء تحاول فرض نفسها على توجهات الناس ، فالصراع مستمر بينها وبين العقل .

وما دامت الإرادة حرة فى أن تفعل وألا تفعل فإن السؤال المهم فى هذا الصدد هو : هل لحرية الإرادة حدود تقف عندها ؟ والسؤال الأهم هو : ما هى طبيعة العلاقة بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية أو القضاء والقدر ؟

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ١/ ١٠/ ٢٠٠٧ .

إنه مما لا شك فيه أن هذه مشكلة معقدة شغلت الفكر الإنسانى بصفة عامة والفكر الدينى بصفة خاصة منذ فجر التاريخ ، ولا تزال تشغل أذهان الناس من مختلف الأديان .

ويذهب كثيرون ممن يريدون أن يريحوا أنفسهم من عناء البحث والتفكير فى هذه القضية إلى أن الإرادة الإنسانية ليست حرة . فالإرادة الإلهية مطلقة ولا تحدها حدود . وقد وضع الله لهذا الكون كله بما فيه الإنسان خطة سيره وبرنامج عمله . وهذا يعنى أن الإنسان مجبر على السير فى إطار الخطة الإلهية ولا يستطيع أن يحيد عنها أو يتصرف تصرفًا يخالفها . إنه - كما يزعمون - كالريشة فى مهب الريح تميلها حيث تميل .

فكل شىء مقدر ومكتوب على البشر ولا حيلة لهم فى رده أو مواجهته . ويتردد هذا الاتجاه حتى فى الأغانى الشعبية مثل « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » وما شابه ذلك . والذين اتجهوا هذا الاتجاه يطلق عليهم مصطلح أصحاب عقيدة الجبر أو الجبريون : فالإنسان لا حول له ولا قوة وكل شىء قدره الله فى الأزل ولا قبل لأحد بمخالفة القضاء والقدر . ألم يقل القرآن الكريم ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1] ؟ .

ومن الواضح أن هذا الاتجاه ينبنى على فهم خاطئ للقضاء والقدر ، ومن شأنه أن يشل حركة الإنسان ويعطل طاقاته البدنية والعقلية ويجعله يركن إلى التواكل فى كل شىء .

وحقيقة الأمر أننا نشعر فى نفوسنا بما لنا من حرية الاختيار فى أقوالنا وأفعالنا . ولولا أن إرادة الإنسان حرة فى اختيار الخير أو الشر لكانت التكاليف الأخلاقية والأمر والنهى ضربًا من العبث ، ولما كان هناك معنى لما جاءت به الأديان من الثواب والعقاب والمدح والذم . فالحرية شرط أساسى لكل الأفعال الأخلاقية ، وما يتعلق بها من مقاصد ونوايا ومواقف إرادية .

(١) سورة الإنسان : ٣٠ .

ولا يمكن أن نتحدث عن أخلاقيات إلا إذا كان الإنسان يتمتع بالحرية التى تجعله قادرًا على عمل الخير وترك الشر أو العكس . ولو لم نكن أحرارًا فى الاختيار بين الخير والشر فلا يمكن أن نحاسب على تصرفاتنا ، كما لا يمكن أن نُلام عليها .

وعلى كل حال فإن الحرية - والحرية الواعية - هى الأساس الذى ترتكز عليه الأخلاق ، ولو لم تكن هناك حرية لما أمكن أبدًا تحديد المسئولية ، ولما كان هناك فعل يمكن أن نقول عنه إنه فعل أخلاقى ، وفعل آخر نصفه بأنه فعل غير أخلاقى .

ولا نريد هنا أن ندخل فى تفاصيل الخلاف العريض الذى ثار بين أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار ، ولكننا نود أن نلفت النظر فحسب إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق نوعين من المخلوقات أحدهما مسخر لا إرادة له ولا اختيار ، وليس أمامه إلا الطاعة والامتثال ، ويتمثل هذا النوع فى كل مخلوقات الله عدا الإنسان .

أما النوع الثانى وهو الإنسان فإنه مخلوق مكلف ، والتكليف مسئولية . والمسئولية لا تقوم إلا على دعامة من الحرية فى الفعل أو الترك حتى فى أمور العقيدة - كما يقول القرآن الكريم - : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] ويترتب على ذلك بطبيعة الحال قضية الثواب والعقاب التى يشير إليها القرآن الكريم فى قوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[2] .

صحيح أن الله يعلم كل ما سيقوم به كل فرد من خير أو شر ، ومن إيمان أو كفر ، ولكن علم الله هنا ليس علم إكراه على الفعل أو الترك ، وإنما هو علم أزلى كاشف بما سيقع من هذا الشخص أو ذاك . أما وقوع الفعل نفسه أو عدم وقوعه ، فهو فى أساسه من صميم حرية الشخص نفسه . وليس فى هذا ما يطعن فى القضاء والقدر من قريب أو من بعيد ، فكل شىء قد قدره الله فى الأزل ، وهذا أمر لا جدال فيه . ولكن خلق الإنسان بإرادة حرة ، هو أيضًا من بين ما قدره الله فى الأزل . وهذه

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : ٤٦ .

نقطة فى منتهى الأهمية لإدراك عدم وجود أى تناقض بين القضاء والقدر وحرية الإرادة الإنسانية .

وفى واقع حياتنا العملية نعترف جميعًا بأثر التربية والتثقيف والتهذيب فى تغيير سلوك الإنسان ، كما أننا نضع قوانين ونعاقب المسىء ونكافئ المحسن ، فإذا كان الأمر هو أن الإنسان مجبر لا حرية له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، فليس هناك - إذن - أى داع للتربية والتهذيب أو الوعظ والإرشاد ، أو وضع القوانين أو الثواب والعقاب ، لأن ذلك كله يفترض أن هناك ذاتًا لها إرادة حرة ، وأنها قادرة على الاستجابة أو عدم الاستجابة .

والقول بالجبر فيه سد لجميع منافذ الأمل فى حياة الإنسان ، وبدون الأمل لا يستطيع الإنسان أن يتقدم فى حياته أو يتطور فى معارفه ، بل إنه سيجمد ويتقوقع، وبذلك تقف الحياة ويقنع الناس بالركون إلى التواكل والاستسلام .

وقد أعطانا الدين الأمل وغرس فى نفوسنا الثقة فى القدرة على التغيير إلى الأفضل ، مبينًا لنا أن هذا التغيير لن يسقط علينا من السماء ، وإنما يتعلق أولاً بإرادتنا ذاتها التى تملك هذا التغيير . وهل هناك فى هذا الصدد أصدق من هذا القانون الإلهى الثابت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾[1] .

فقد أسند الله سبحانه وتعالى التغيير للإنسان كما أسند إليه تزكية النفس أو إفسادها فى قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾[2] .

وقد كان الشيخ محمد عبده من أشد المحاربين لعقيدة الجبر لأنها تقوم فى واقع الأمر على إلغاء شخصية الإنسان . وهى عقيدة تتساوى فى ذلك مع التقليد الممقوت الذى يلغى عقل الإنسان ، فالجبرى والمقلد كلاهما تقوم حياته على الصدفة وكلاهما يتهاون فى ترك مجال الحياة لغيره ، فى حين أن الإسلام يريد أن يكون المؤمن لبنة

(١) سورة الرعد : ١١ .

(٢) سورة الشمس : ٩ ، ١٠ .

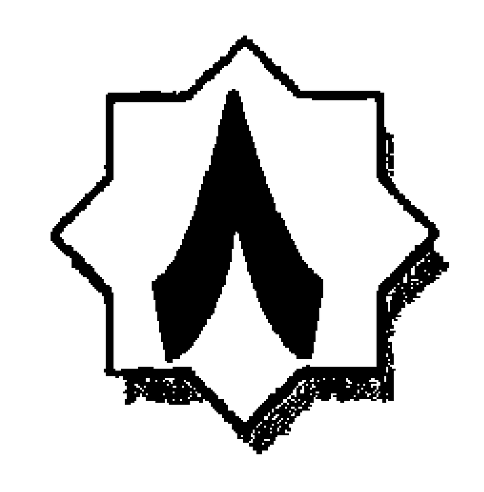
إيجابية فى بناء المجتمع لا يتواكل ولا يكون سلبيًّا . فالسلبيون أجدر بهم - كما يقول الشيخ : « أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم » .

ويصحح الشيخ محمد عبده الفكرة الخاطئة عن القضاء والقدر قائلاً : « الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة » ومن هنا فإن ربط عقيدة الجبر بالقضاء والقدر يعد من قبيل الربط بين النقيضين .

إن الأمر الذى ينبغى أن يوضع فى الاعتبار عند بحث هذه القضايا الشائكة أنه لا يجوز أن نقتطع بعض آيات من القرآن الكريم من سياقها لنبرهن بها على صحة هذا الرأى أو ذاك وإنما ينبغى أن نفهم كل الآيات التى تتحدث فى الموضوع الواحد لندرك أبعادها ونعى ما ترمى إليه ، بالإضافة إلى تحكيم عقولنا فى فهم النصوص حتى لا نضل السبيل . وقد حذرنا القرآن الكريم من أن نؤمن ببعض الآيات ونتجاهل الآيات الأخرى فى قوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾[1] ؟ .

* * *

(١) سورة البقرة : ٨٥ .



قل إنما أنا بشر مثلكم[1]

منذ أكثر من قرن من الزمان حذر الشيخ / محمد عبده من المصادر السيئة للتثقيف التى تؤذى العقول بما تنقله من جراثيم فكرية وأوبئة ثقافية تهدم العقول وتقضى على صحة الفكر والثقافة . ومن الأمثلة على ذلك - كما يقول الشيخ - كتب الأكاذيب الصرفة وكتب الخرافات وأمثالها من كتب تخدر العقل وتشل فاعليته .

وقد خاض العديد من المصلحين وقادة التنوير فى بلادنا فى الماضى والحاضر معارك من أجل تنوير العقول وتثقيف الأذهان ، حتى تنهض الأمة وتتفرغ للبناء والتعمير ، وتخطو خطوات ملموسة فى مجال التقدم والرقى ، وتسابق الآخرين فى التجديد المتواصل للمجتمع والنهوض بالمواطنين .

ولكن الطريق لم يكن دائمًا معبّدًا أو مفروشًا بالورود والرياحين . فبين الحين والآخر كانت تظهر فى الطريق بعض الأشواك التى تعطل مسيرة التقدم وتشد المواطنين إلى التخلف وتنشر بينهم ظلام الجهل بدلاً من نور العلم .

وفى الأسابيع الأخيرة صدم المجتمع فى مصر وفى العالمين العربى والإسلامى بما صدر فى مصر - صاحبة الريادة فى العالم الإسلامى - من فتاوى وآراء دينية تعد كارثة بكل المقاييس . فمن إرضاع الكبير إلى التبرك بشرب بول النبى الكريم والتبرك بنخامته وغير ذلك من فتاوى وآراء طيرتها وكالات الأنباء العالمية ونشرتها صحف مختلفة فى أوروبا وأمريكا . وقد تلقيت العديد من المكالمات الهاتفية من بلاد عديدة مستنكرة ومندهشة أن تصدر مثل هذه الفتاوى والآراء من مصر بلد الأزهر الشريف ومن بعض أبناء الأزهر .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٧ .

وقد أساءت هذه الفتاوى المأساوية أبلغ إساءة إلى الإسلام ونبيه أكثر مما فعلته الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية ، لأن الإساءة هذه المرة صادرة من بعض علماء الإسلام الذين يعلنون الرأى الإسلامى للناس ، وليست من خصوم الإسلام . والإساءة من الصديق أشد وأنكى من الإساءة من العدو كما يقول فى ذلك " طرفة ابن العبد " أيضًا :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وقد تكون مثل هذه الفتاوى والآراء موجودة فى بعض الكتب القديمة ، ولكن هذا لا يعطيها أى مصداقية ولا يجوز أن تكون القاعدة فى ذلك هى معرفة الحق بالرجال مهما طار صيتهم وانتشر بريقهم فى وقت من الأوقات . فالمعيار الذى يجب أن يحتكم إليه فى مثل هذه الأمور هو العقل الإنسانى والفطرة الإنسانية الصافية والذوق العام السليم .

والإسلام – كما هو معروف – دين العقل والفطرة السليمة . ولا يعقل أن تشتمل تعاليمه السامية على شئ يصادم العقل والفطرة والذوق العام . وكتب التراث فيها الغث وفيها السمين ، فيها المقبول وفيها المرفوض . وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين أن نعيد نشر ما تشتمل عليه من غثاء .

وقد أدرك ذلك الثقات من علماء المسلمين على مدار التاريخ الإسلامى ، وكانوا يعملون عقولهم فيما ينقل عن الأسلاف ، ولا يأخذون أى شئ على علاته إلا بعد فحصه واختبار مدى صحته واتفاقه مع العقل والمنطق ، ووضعوا فى ذلك القواعد التى على أساسها يقبلون ما يقبلون ويرفضون ما يرفضون ، حتى إذا كان الأمر يتعلق بنص دينى يوحى ظاهره بمخالفة العقل فإنه لا يجوز قبول هذا الظاهر وإنما يجب تأويله حتى يتفق مع العقل . وفى ذلك يقول الإمام الغزالى « فإن لنا معيارًا فى التأويل وهو أن ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك » وفى السياق ذاته يقول الشيخ محمد عبده : « اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل». وهذا ما كان يفعله أيضاً كبار علمائنا ومفكرينا على مدار التاريخ .

والمفروض أنه كلما تقدم بنا الزمن كلما ازداد الفكر استنارة وفهمًا وفقهًا ، واتسعت أمامه مساحة العلم النافع وتقلصت مساحة الجهل والجمود والانغلاق . والمفروض أيضًا أنه يجب على المتحدثين منا باسم الدين أن يدركوا أننا نعيش اليوم فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية ، وأن الدنيا قد تغيرت وأن الأحوال قد تبدلت ، وأنه لم يعد مقبولاً ولا معقولاً حشو أذهان جماهير المسلمين بالغثاء من القول ، والسقيم من الفكر ، والباطل من الأقاويل التى ما أنزل الله بها من سلطان .

إن فتوى إرضاع الكبير - كما شرحها صاحبها بالتفصيل الممل - هى دعوة مفتوحة لنشر الإباحية فى المجتمع ، وهدم للقيم المتعارف عليها بين الناس . ولا أعتقد أن من يقول بهذه الفتوى يقبل تطبيقها على إحدى قريباته مع زميل لها فى العمل . والحديث على النحو الذى بنيت عليه هذه الفتوى لا يجوز العمل به على الإطلاق ، وذلك لمخالفته الصريحة للعقل والمنطق ولتعاليم الإسلام وقيمه . أما ما نشر فى ذات التوقيت من التبرك بشرب بول الرسول ومسح الوجوه بنخامته فإن ذلك إساءة بالغة للنبى عليه الصلاة والسلام .

إنه لا جدال فى أن النبى يعد مثلاً أعلى فى أخلاقه وسلوكه فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه - كما جاء فى حديثه هو عن نفسه - . ومن هنا جعله الله أسوة حسنة للمسلمين جميعًا فى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] ، ولا جدال أيضًا فى أنه قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة على أكمل وجه . فهو الإنسان الكامل وهو المثل الأعلى وهو القمة التى لا يرقى إليها البشر . أو كما يقول الإمام البوصيرى فى مدحه : « يا سماء ما طاولتها سماء » .

ولكن الله أراد له أن يكون - على الرغم من ذلك كله - إنسانًا ، وأن يظل بشرًا يعيش بين الناس ، يأكل كما يأكل الناس ، ويشرب كما يشربون ويتزوج وينجب

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

البنين والبنات ، وتلك هى سنته عليه الصلاة والسلام ، وكما يقول فى ذلك : « **فمن رغب عن سنتى فليس منى** »[1] .

وقد ظل الرسول بشرًا منذ مولده حتى وفاته عليه الصلاة والسلام تجرى عليه قوانين البشر . ولا يجوز إخراجه من نطاق البشرية إلى نطاق آخر . فهذا لم يرده الله سبحانه فى القرآن الكريم ، ولم يرد عن الرسول نفسه شيء من ذلك .

ونحن نسيء إلى هذه الشخصية العظيمة أبلغ إساءة إذا أردنا إخراجه عن طور البشرية ونسبنا إليه أن إفرازاته الجسمية لا تسرى عليها القوانين التى تسرى على جميع البشر، وأنه يجوز التبرك بها وتعاطيها إلى درجة تصل إلى حد شرب بوله ومسح الوجوه بنخامته وما شاكل ذلك من أخبار مسيئة إلى شخص النبى عليه الصلاة والسلام وإلى الإسلام نفسه . ومثل هذه الأخبار لا يمكن قبولها لا عقلاً ولا شرعًا ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون أخبارًا صحيحة حتى وإن تناقلتها الكتب ورواها الراوون ، وذلك لسبب بسيط وهو أن العقل يرفضها والنفوس تعافها والذوق العام السليم والفطرة الإنسانية الصافية لا تقبلها بأى حال من الأحوال .

وتأكيد القرآن الكريم على أنه عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[2] فيه أبلغ رد على محاولات إخراجه من إطار الطبيعة البشرية . والآية نفسها حين تؤكد ذلك تنبه إلى ما يمتاز به النبى عن غيره من البشر ، وتلك الميزة هى أنه الوحيد الذى يوحى إليه . والإمام الرازى يقول فى تفسير هذه الآية : « أى لا امتياز بينى وبينكم فى شئ من الصفات إلا أن الله أوحى إلىَّ أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد » . لقد أراد الله له – كما أراد لكل الأنبياء – أن يكونوا بشرًا تجرى عليهم كل قوانين البشر . وقد اعتاد الناس فى كل الأزمان أن يضيفوا إلى الشخصيات العظيمة من القدرات والصفات ما يخرجهم عن طور البشرية . وهذا تزيّد من البشر انطلاقًا من شدة

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

حبهم لهذه الشخصية أو تلك . فيسبح الخيال بهم كل مذهب ، وهذا أمر لم يرده الله تعالى لنبيه . ومن هنا كان هذا التأكيد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ولم يكتف بالقول : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾وإنما جاء الحرص فى النص على المثلية ﴿مِّثْلُكُمْ ﴾ ، يجوز عليه كبشر ما يجوز عليكم من صفات البشرية ولوازمها .

إننا ننزه رسولنا الكريم الذى نحبه ونجله ونقدره ونضعه - كما وضعه ربه - فى أرقى مكان - ننزهه عن إخراجه من طور البشرية ، فسريان القوانين البشرية عليه لا ينقص من قدره شيئًا ، فعلى الرغم من سريان كل هذه القوانين عليه فإنه لم يكن يومًا أسيرًا لشهوة أو عبدًا لمتعة دنيوية ، وإنما سما وارتفع فوق كل الشبهات والشهوات رغم ما يشده إلى الأرض - كغيره من الناس - من رغبات .

والسؤال الذى ينبغى أن يطرح فى هذا الصدد هو : ما الفائدة التى تعود على الإسلام والمسلمين من إثارة هذه الفتاوى؟ هل تساعد فى تصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام فى الإعلام الدولى ؟ وهل انتهت كل مشاكل المسلمين ولم يعد أمامنا إلا البحث فى الكتب القديمة لاستخراج كل ما هو غريب ومستنكر من الآراء ؟

إننا نظلم الإسلام ظلمًا بينًا ونفترى على رسوله الكريم بهذا الغثاء الذى ينشر على الناس باسم الدين ، والدين من كل ذلك برئ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *



الإيمـان والحـب[1]

ربما يثير عنوان (الإيمان والحب) لدى البعض شيئًا مـن الغرابـة والدهـشة لما يـرتبط فى أذهـانهم مـن أفكـار تختـزل الحـب فى إطـار أرضى ضـيق لا صـلة لـه بالروحانيات ، الأمر الذى لا يتفق بأى حال مـن الأحـوال مـع سـمو هـذه القيمـة العظيمة . ولكننا نبادر إلى القول بأن أعلى درجات الحب هى الحب المرتبط بالإيمان . وهذا ما سوف يتضح من خلال ما سنعرضه فى السطور التالية .

إن التكوين الإلهى للإنسان - الذى خلقه الله فى أحسن تقـويم - يـشتمل عـلى الكثير من الآيات الباهرات التى جعلها الله من دلائل قدرته . وتأمل هـذه الـدلائل والبحث فيها بإخلاص من شأنه أن يساعد الإنسان على التوصل إلى أن الله سـبحانه وتعالى هو الحق ، وهو رب العالمين ، مصدقًا لقولـه تعـالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2] .

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة فإنه يكـون قـد وصـل إلى أعـلى درجـات اليقين العقلى والإيمـانى معًا . وهنا تتعانق المعرفـة العقليـة مـع المعـرفة الروحيـة . وهذا يعنى أن الإنسان فى تكوينه ليس مادة أرضية فقط ، ولـيس عقـلاً يبحـث عـن الأدلة والبراهين فحسب ، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك صاحب حياة روحية متجذرة فى أعماق نفسه ولديه عواطـف ووجـدانيات . وكلهـا أمـور تختلـف عـن عمليـات التصور والتفكير التى هى من خصائص العقل . والعواطف تعد تجارب وجدانيـة . وقد اعتاد الناس أن يطلقوا وصـف « عاطفى » على الإنسان الـذى ينفعـل بـسرعة

(١) نشر بجريدة أخبار اليوم فى ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٨ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

ولا يستطيع أن يسيطر على مشاعره . ولكن هذا المعنى السلبى لا يعبر تعبيرًا صادقًا عن « العاطفة » فى صورتها الحقيقية .

إن العاطفة من شأنها أن تدفع الإنسان إلى سلوك معين إزاء إنسان أو حيوان أو نبات أو مجموعة من الناس أو الأفكار . وذلك مثل عاطفة الحب أو الكره . فقد يتعاطف الإنسان مع شخص آخر أو مع فكرة من الأفكار ، وقد ينفر من هذا الشخص أو تلك الفكرة . وقد لا تكون هناك أسباب منطقية للتعاطف أو النفور ، ولكن هناك شعورًا باطنيًا وإحساسًا داخليًا يدفع المرء إلى هذا الجانب أو ذاك . وعلى رأس العواطف التى تجيش فى نفس الإنسان عاطفة الحب التى تعد أرقى العواطف وأسماها .

وعلى الرغم من أن هذه العاطفة قد أصبح لها عيد يحتفل به الناس فى معظم دول العالم ، فإن الحديث عنها لا يزال فى حاجة إلى شئ من الوضوح فى الأذهان . فالإنسان منا يحب ويكره ويفرح ويحزن ، وهذه كلها حالات طبيعية وليست أمرًا شاذًا ، أما الشاذ فهو تبلد الإحساس وتحجر العواطف وانغلاق القلوب . ومثل هؤلاء يصفهم القرآن الكريم بأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة .

وفى كتابه « إحياء علوم الدين » يشرح لنا الإمام الغزالى بالتفصيل عاطفة الحب متدرجًا فى شرحها من أضيق دائرة إلى أن ينتهى بها إلى عالم رحب حيث تجد فيه هذه العاطفة منتهى كمالها متمثلة فى محبة الإنسان لله . وهذا هو ما قصدنا إليه من الربط بين الإيمان والحب فى عنوان هذا المقال . وقد مهد الغزالى لذلك بالحديث عن هذه العاطفة وأقسامها والأسباب التى تدعو الإنسان إلى الحب فى هذه الحياة .

وتحت عنوان « بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله » يذهب الغزالى إلى القول بأن المحبة لا تتصور إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، لأن الحب من خصائص الحس المدرِك . والحب لديه هو عبارة عن ميل

الطبع إلى الشئ الذى يبعث على اللذة . فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقًا . والحب أنواع : فلكل حاسة من الحواس إدراك لبعض الموجودات ، ولكل واحدة منها لذة فى بعض المدركات ، ولهذا يميل الطبع إليها ، وتعد من المحبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين فى إدراك المبصرات الجميلة والصور البديعة ، ولذة الأذن فى النغمات الجميلة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، وهكذا .

وإن كان هذا هو الشأن فى المدركات الحسية فإن مدركات العقل والقلب أقوى من مدركات الحس « فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكًا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار » .

ويبين الغزالى أنه لا يخفى أن الإنسان يحب نفسه ، وقد يحب غيره لأجل نفسه . فحب الذات يقع فى بؤرة اهتمام الإنسان . وهذا ليس أمرًا مستغربًا ، بل يعد أمرًا طبيعيًا ، ولكنه يبدو شاذًا حينما ينغلق الحب على الذات وحدها ولا يتسع لغيرها . فهنا تكون الأنانية المفرطة البغيضة . فالمحبوب الأول للإنسان إذن هو ذاته وكمالها ودوامها ثم يأتى بعد ذلك حبه لشريك حياته وحبه لماله وولده وعشيرته وأصدقائه.

ولكن دائرة الحب تتسع أيضًا لأمور أخرى يحبها الإنسان لذاتها وليس لأنها تعد تكميلاً لذاته . وهذا هو الحب الحقيقى . فالجمال محبوب عند من يدرك الجمال ، بل يمكن القول بأن الجمال محبوب بالطبع لذاته . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الحب والجمال صنوان لا يفترقان . فالإنسان الذى يمتلئ قلبه بالحب يرى الجمال فى كل شئ ، ويشع الحب من قلبه إلى كل الكائنات من حوله . وإذا كان إيليا أبو ماضى يقول :

والذى نفسه بغير جمال   لايرى فى الوجود شيئًا جميلا

فإنه يمكن القول أيضًا بأن الذى نفسه بغير حب لا يرى فى الوجود إلا القبح والبؤس والكراهية والبغضاء .

وإذا كان الجمال محبوبًا بالطبع لذاته - كما سبق القول - فإن الغزالى يرى أنه إذا ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبًا عند من ينكشف له جماله وجلاله مصداقًا للحديث الشريف : « إن الله جميل يحب الجمال »[1] .

وجمال كل شئ أو حسنه يعنى أن يكون حاصلاً على كماله اللائق به . والجمال هنا بطبيعة الحال ليس جمالاً ظاهريًا ، وإنما هو جمال تتوافر فيه شروط الكمال الذى يليق به . وقد تتأكد المحبة بين شخصين لا بسبب جمال ظاهر ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما جاء فى الحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة . فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف »[2] .

ويمكن تلخيص أسباب الحب - فى نظر الغزالى - فى خمسة أسباب على النحو التالى :

أولاً : حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه .

ثانيًا : حب الإنسان لمن أحسن إليه .

ثالثًا : حب الإنسان لمن كان محسنًا فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنًا إليه .

رابعًا : حبه لكل ما هو جميل فى ذاته .

خامسًا : حبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن .

ويذهب الغزالى إلى أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى . ومن هنا فإنه لا يستحق المحبة فى الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى . ولا محبوب فى الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى . وإن أجل اللذات وأعلاها يتمثل فى معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، وأنه لا يتصور أن يؤثر إنسان عليها لذة أخرى ، اللهم إلا من حرم هذه اللذة . ولذلك يؤكد القرآن الكريم أن المؤمنين

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، باب الإيمان .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

وحدهم هم الأشد حبًا لله كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم اشتمال الذات الإلهية على جميع الكمالات اللائقة بها .

وهكذا يتدرج الحب لدى الناس في دوائر عدة ، ولكنها لا تكتمل إلا إذا انتهت إلى خالق الوجود ومقلِّب القلوب . وهذا هو الحب الحقيقي الذي ينبغي أن يُؤْثِرَهُ الإنسان على كل حب سواه . ومن جانب آخر فإن هذا الحب من شأنه أن يضفي الحب والجمال على كل ما عداه . فحب الخالق يتبعه بالضرورة حب مخلوقات الله من بشر وحيوان ونبات وجماد ، لأنها جميعًا دلائل على قدرته وعظمته سبحانه وتعالى .

وحب الخالق لا يعني بالضرورة رفض دوائر الحب الأخرى التي تدور حولها حياة الإنسان في دنياه ، وإنما المرفوض هو أن تحجب هذه الدوائر المختلفة عن الإنسان « الحب الحقيقي » والذي يتمثل في حب الله تعالى .

والأمر الذي ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن الحب بين الله والإنسان ليس حبًا من جانب واحد فقط ، أي من جانب الإنسان ، وإنما هو حب متبادل بين الخالق والمخلوق . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله في خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** »[2] . وإذا أحب الله عبدًا جعل أهل السماء يحبونه وجعل له القبول في الأرض ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف[3] . وكل إنسان يلجأ إلى الله تائبًا من ذنوبه راجيًا رحمته وغفرانه فإن الله

---

(1) سورة البقرة : ١٦٥ .

(2) سورة آل عمران : ٣١ .

(3) رواه البخاري في صحيحه ونصه : « إذا أحب الله العبد نادى جبريلَ إن الله يحب فلانًا فأحبه . فيحبه جبريلُ فينادي جبريلُ في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض » .

يشمله بمحبته كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

ومحبة الله لعباده تتمثل فى رحمته بهم . فهو سبحانه أرحم بعباده من رحمة الأم بوليدها . وإذا كان الحب والقسوة نقيضان لا يجتمعان فكذلك الرحمة والقسوة ضدان لا يلتقيان أبدًا .

إن الحب هو إكسير الحياة . وحياة بلا حب لا معنى لها . وإشاعة الحب بين الناس يجعلهم يقبلون على الحياة والعمل والبذل والعطاء والتضحية والفداء . وإذا ارتبط هذا الحب بالله فإنه كفيل بتصحيح مسار الإنسان على الأرض والسير بالحياة فى طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهو الطريق الذى يؤدى إلى سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة على السواء .

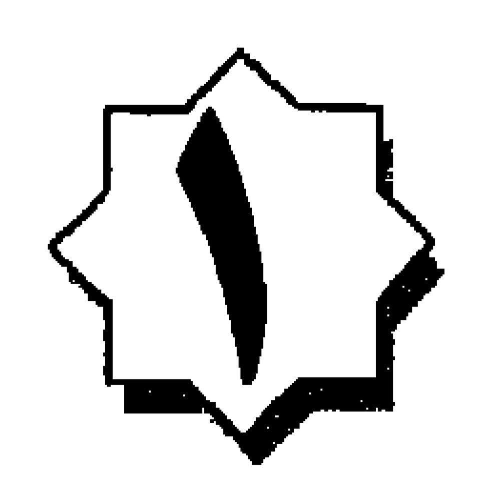
* * *

(٤) سورة البقرة : ٢٢٢ .

الفصل الثانى

العقل الإنسانى ودوره فى التقدم الحضارى

- العقل الإنسانى
- التفكير النقدى والتطور الحضارى
- الكم والكيف فى ميزان العقل والدين
- الحرية والضوابط الأخلاقية
- خواطر حول الجهود العلمية الإسلامية بين الماضى والحاضر
- فلسفة المقاومة
- قيمة الوقت فى حياتنا



العقل الإنسانى

لقد خلق الله الإنسان وخلق معه ومن أجله بقية الكائنات مسخرات له لإعمار الكون وصنع الحضارة فيه ، ولكن القرآن الكريم قد أشار فى الوقت نفسه إلى حقيقة مهمة تتمثل فى أن الله قد خلق الإنسان ضعيفًا بالقياس إلى معظم الكائنات . فكيف أمكن له أن يصبح سيدًا فى الأرض ومسيطرًا على غيره من الكائنات ؟ أليست هذه مفارقة غريبة ؟ .

إن الأمر هنا فى الحقيقة ليس لغزًا محيرًا ولا سرًا مغلقًا ولكنه يحتاج فقط إلى شئ من التوضيح للكشف عن مواطن الضعف ومواطن القوة لدى الإنسان للتعرف على الإمكانات التى أهلته وحده من بين كل الكائنات لتولى دور القيادة فى هذا العالم .

ولنبدأ أولاً بشرح نقاط الضعف لدى الإنسان مقارنة بغيره من الحيوانات . إن مثل هذه المقارنة ستكشف لنا من غير شك مدى ضعف الإنسان تأكيدًا للآية الكريمة : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1] . إننا عندما نقارن الإنسان بكثير من الحيوانات نجد أنها تتفوق عليه فى كثير من الصفات والميزات . فطفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بقية الحيوانات ، وهو فى حاجة إلى من يرعى شئونه لسنوات حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ، فى حين أن هناك حيوانات تستطيع أن تستقل بنفسها بعد ساعات من الولادة .

وفضلاً عن ذلك فإن القدرات البدنية للإنسان محدودة بصفة عامة بالقياس إلى الكثير من الحيوانات التى زودها الله بقدرات حسية على السمع والبصر والشم

(١) سورة النساء : ٢٨ .

تفوق ما لدى الإنسان بمراحل ، كما أن هناك حيوانات تستطيع الدفاع عن نفسها بما لديها من مخالب وأنياب ولا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها فى مواجهة مباشرة . ومن الميزات التى اختص الله بها الحيوانات قدرتها على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد ، فى حين أن الإنسان إذا ترك عاريًا تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت لا محالة .فالحيوانات إذن - والحال كذلك - تتفوق على الإنسان فى معركة الحياة . ولو اقتصر الأمر على هذا القصور الحاد فى قدرات الإنسان مقارنًا بالحيوانات لكان قد انقرض منذ زمن طويل . أما الحيوانات فإنها استطاعت أن تحمى نفسها وتحافظ على نوعها منذ بدء الخليقة .

وعلى الرغم من هذا القصور الواضح فى قدرات الإنسان فإنه قد استطاع أن يتغلب على كل الكائنات الأخرى ويخضعها لسيطرته ، واستطاع أن يغير وجه الحياة على الأرض ، وأن يصنع حضارات متتالية على مدى التاريخ ، وأن يحدث ثورات هائلة فى عالم الصناعات والاتصالات والمعلومات والتكنولوجيا ، ولم يكتف بأن يكون مجال نشاطه مقتصرًا على الكوكب الأرضى ، بل راح يبحث ويقتحم عالم الفضاء .

فكيف استطاع الإنسان أن يفعل ذلك كله ويتغلب على كل الصعاب حتى وصل إليه ؟ . إنه إذا كانت جوانب ضعفه متمثلة فى أمور جسمية فإن جوانب قوته تتمثل فى أمر واحد لا يتوافر لأى كائن آخر وهو العقل الذى هو أجلُّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان . والعقل هو أثر من آثار النفحة الروحية الإلهية فى الإنسان والتى من أجلها استحق التكريم الإلهى والتفضيل على غيره من الكائنات . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى خطاب موجه إلى الملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

(١) سورة الحجر : ٢٩ .

إن جوهر الإنسان إذن هو العقل الذى يميز بـه الخير من الشر والنافع من الضار والذى به يهتدى إلى خالق الكون ويدرك أسرار الخلق ، وجلال الخالق ، ويتعرف على سنن الله فى الكون ، ويرشد إلى كل وجوه الخير ، ويصل إلى شتى المعارف والعلوم . ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالى بأنه « أنموذج من نور الله » كما وصفه الجاحظ بأنه « وكيل الله عند الإنسان » .

ومن أجل ذلك فإن عدم استخدام العقل يعد تنازلاً من الإنسان عن إنسانيته ، ويعد فى الوقت نفسه من أكبر الذنوب والخطايا التى يرتكبها الإنسان فى حق نفسه وفى حق الله والتى تؤدى به إلى موارد التهلكة ، كما يتضح ذلك من القرآن الكريم .

ومن هنا أكد الإسلام تأكيدًا صريحًا على ضرورة استخدام العقل وتحكيمه فى كل الأمور . وقد نعى الإسلام على من يقلدون غيرهم تقليدًا أعمى دون تفكير ، أى دون استخدام لعقولهم ، وأدان النبى ﷺ التقليد بشدة فى قوله : « **لا يكن أحدكم** إمعة »[1] أى مقلدًا للآخرين تقليدًا أعمى .

ودعوة الإسلام لاستخدام العقل لا تقتصر على الأمور الدنيوية الحياتية . فهذا أمر مفروغ منه ، وقد أشار النبى إلى ذلك حين قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[2] . فالأمور الدنيوية تعتمد على البحث والدراسة والعلم بأوسع معانيه . ومن أجل ذلك لا يضع الإسلام سدودًا ولا قيودًا على مسيرة البحث العلمى .

لقد امتدت سماحة الإسلام إلى الدعوة إلى استخدام العقل فى أمور الدين ، لأن الدين نفسه لا يفهم إلا عن طريق العقل ، لاستنباط الأحكام الشرعية . وقد كان ذلك واضحًا فى إجابة معاذ بن جبل على سؤال النبى له : بماذا تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فكانت إجابته : بكتاب الله ثم بسنة رسول الله . فإذا لم يجد فيهما اجتهد برأيه أى استخدم عقله وتفكيره فى استنباط الحكم[3] .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه ، باب البر والصلة .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٣) رواه أبو داود فى سننه .

ومن سماحة الإسلام أيضًا وتشجيعه للاجتهاد أنه جعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجرًا واحدًا وللذى يصيب أجرين . وعلى أساس من الاجتهاد قامت مدارس الفقه الإسلامى المعروفة ، وازدهرت علوم الدين والدنيا على السواء .

ونظرًا لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى ضرورة التجديد المستمر فى الأمور الدينية فى قوله « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »[1] ، فإن الاجتهاد كان الآلية التى قررها الإسلام للتجديد المستمر لمواكبة متطلبات الحياة وتطورات كل عصر . فقد كان الإسلام حريصًا كل الحرص على ألا تتجمد حياة المسلمين لأن ذلك مخالف لطبيعة الحياة وسنة الكون ، فالتجديد قانون الوجود ، والمقابل للتجديد هو الجمود . والجمود موات . والإسلام جاء دينًا للحياة بجميع أبعادها . فالقعود به عن مواكبة مستجدات الحياة يعد ضد طبيعته ويمثل جهلاً فاضحًا بتعاليمه ومقاصده .

* * *

(١) رواه أبو داود فى سننه ، باب الملاحم .



التفكير النقدى والتطور الحضارى[1]

يأتى مفهوم النقد فى المعاجم العربية بصفة أساسية فى مجال التعاملات المالية . فالنقد يعنى ما هو خلاف النسيئة (أى البيع بأجل) ويقال انتقد الدراهم بمعنى قبضها . ولكن هناك معنى آخر - ورد أيضًا فى هذه المعاجم - أقرب إلى ما نقصده فى هذا المقال بالتفكير النقدى . إذ يقال : نقد الدراهم وانتقدها ، أى أخرج منها الزيف، وناقده أى ناقشه فى الأمر .

ويمكن القول بصفة عامة بأن النقد يعنى امتحان شئ ما من جهة قيمته ، وهذا يعنى أن النقد ليس مجرد بيان العيوب وكشف القصور - كما هو شائع لدى عامة الناس - وإنما هو أيضًا إبراز الإيجابيات ، وعندئذ يمكن أن يكون النقد موضوعيًا ونزيهًا وهادفًا .

ويمكن القول أيضًا بناء على ذلك كله بأن التفكير النقدى يعنى عدم القبول بشئ إلا بعد اختباره والتأكد من صحته . وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[2] أى تثبتوا من صحة النبأ . وهذا أمر ينسحب على كل جوانب حياتنا من الناحيتين النظرية والعملية .

والمقابل للتفكير النقدى هو التقليد والتسليم ، الأمر الذى يعنى تعطيل العقل وإلغاء التفكير ، فالفرق بين الموقفين إذن كالفرق بين النقيضين ، فالأول إيجابى والثانى سلبى ، والأول يؤكد الشخصية الإنسانية والثانى يلغيها ويمحو معالمها .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٠٠٧/٩/١٣ .

(٢) سورة الحجرات : ٦ .

وإذا كان الله قد خلق الناس مختلفين، على الرغم من اتفاقهم فى الجوهر ، فإنه قد أراد أن يكون لكل فرد شخصيته المستقلة التى تميزه عن غيره . وقد أكد لنا الخالق ذلك بما نشاهده ونعلمه من عدم وجود فردين فى هذا العالم يتفقان فى بصمة إبهامهما، الأمر الذى يرمز إلى استقلالية كل فرد . والمطلوب هو أن ننمى هذه الاستقلالية لا أن نعمل على إلغائها ، وذلك لن يكون إلا بتشجيع ممارسة التفكير النقدى .

والمفروض أن مصطلح التفكير نفسه يتضمن أو ينبغى أن يتضمن مفهوم النقد، فالذى يمارس التفكير هو إنسان يستخدم عقله ، وهذا يعنى أنه إنسان إيجابى، والنقد هو تفاعل مع الفكر الآخر . وممارسة التفكير النقدى من شأنها أن تجعل للحياة معنى لأنها تثرى فكر المجتمع وتدفع به قدمًا إلى الأمام ، وتحافظ فى الوقت نفسه على قيمه وهويته الحضارية .

ولا يخفى على أحد ما يمارسه الإعلام الدولى الموجه فى عالمنا المعاصر من ضغوط رهيبة على عقول الناس فى كل مكان بهدف نشر مفاهيم وقيم اجتماعية وأخلاقية وثقافية معينة فى العالم النامى على وجه الخصوص حتى يسهل توجيهه إلى الأهداف التى تريد القوى العظمى تحقيقها .

وفى كثير من الأحيان تتعارض هذه المفاهيم والقيم مع الخصوصيات الحضارية للمجتمعات النامية بصفة عامة والمجتمعات الإسلامية بصفة خاصة ، الأمر الذى يهدد الهوية الحضارية لهذه المجتمعات . وحتى يمكن التمييز بوضوح بين ما هو ملائم لنا وما هو غير ملائم فإن ذلك يتطلب عقلية نقدية لا تأخذ أى شئ على علاته، وإنما تبحث وتدرس وتقارن وتختار ما يلائمها وترفض ما لا يتفق مع خصوصياتها الحضارية والدينية .

ولا شك فى أن العقلية النقدية ليست منغلقة على نفسها ،وإنما هى عقلية متفتحة ، لا ترفض شيئًا لمجرد الرفض أو لأنه آت من جانب جهات لا تريد لنا الخير. فالرفض أو القبول لديها ينبنى على أسس ومبادئ ، ولا يأتى عشوائيًا ، بل

يكون بعد الدراسة والبحث والتقييم الموضوعى . وقد كان الفيلسوف العظيم ابن رشد خير نموذج لهذه العقلية النقدية المتفتحة . فقد قرر أن الاطلاع على ما لدى الآخرين يعد واجبًا شرعيًا ، ثم أضاف قائلاً : « ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » .

ومن هنا تأتى ضرورة تعليم أبنائنا وبناتنا التفكير النقدى حتى يكونوا قادرين على التمييز بين الخير والشر والصواب والخطأ ، وبذلك نوفر لهم الحماية من الانسياق وراء دعاوى التطرف والجمود والانغلاق أو أى دعاوى أخرى هدامة ترمى إلى محو هويتهم الحضارية . فواقع الحال يبين لنا أن طريقة التعليم التقليدية التى تعتمد على مجرد الحفظ والتلقين لا تنتج لنا إلا أناسًا من أصحاب الشخصيات الباهتة التى لا لون لها ولا طعم ، أى تنتج لنا شخصيات متواكلة واستسلامية .

أما التفكير النقدى فإنه ينتج شخصيات فاعلة لها رأى ولها فكر ولها نظرة فاحصة فى الأمور . وهذا يعنى إثراء المجتمع بأعضاء عاملين يدفعون بعجلة الحياة إلى الأمام وينهضون بمجتمعهم على جميع المستويات . والتوصل إلى هذا المستوى يتطلب بطبيعة الحال تغييرًا فى المناهج الدراسية وفى أساليب التدريس .

ولعل من الأمور المبشرة بالخير تلك التجربة التى تتبناها حاليًا وزارة التربية والتعليم فى مدارسها وهى تجربة « التعلم النشط » والتى أعطت نتائج مبشرة بالأمل فى أوساط الأطفال ، وهى تجربة رائدة من غير شك ، ولكنها فى حاجة إلى الدعم والمساندة من جهات عديدة فى المجتمع وذلك عن طريق وسائل الإعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية ، وعن طريق مختلف الفنون وجميع مؤسسات المجتمع مدنية كانت أم حكومة .

ولا شك فى أن الدعاة فى المساجد لهم أيضًا دور بالغ الأهمية فى توعية المواطنين بقيمة العقل وقيمة التفكير . فمن المعروف أن الإسلام قد اهتم اهتمامًا بالغًا بذلك ،

الأمر الذى حدا بالمرحوم الأستاذ عباس العقاد إلى تأليف كتابه القيم «التفكير فريضة إسلامية ».

وهناك أمثلة رائدة فى استخدام التفكير النقدى فى تاريخ العلوم الإسلامية ، فعندما وجد العلماء المسلمون فى وقت مبكر من التاريخ الإسلامى انتشار مئات الآلاف من الأحاديث المنسوبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام انبرى عدد منهم للقيام بمهمة نقدية بالغة الأهمية لتمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الضعيفة أو الكاذبة .

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال واحد وهو نموذج الإمام البخارى الذى كرس حياته العلمية كلها لهذه المهمة . فبعد أن جمع أكثر من خمسمائة ألف حديث تدور على ألسنة الناس ، وضع قواعد صارمة وشروطًا محكمة للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من الأحاديث ، وقام بتطبيقها على الأحاديث المروية من حيث السند أو المتن . وجاءت حصيلة هذا العمل النقدى فى كتابه« صحيح البخارى » فى حوالى تسعة آلاف حديث فقط من بين مئات الآلاف المشار إليها . فإذا حذفنا المكرر والموقوف على الصحابة والمقطوع «المنسوب للتابعى» من الأحاديث الواردة فى هذا الكتاب فسنجد أن الذى صح لدى هذا الإمام الكبير حوالى ألفين وستمائة حديث فقط .

ومن خلال هذا المثال وغيره من أمثلة أخرى فى مجالات العلوم المختلفة يتضح لنا أن التفكير النقدى كان وراء تطور العلوم والفنون فى الحضارة الإسلامية . والشئ نفسه نجده لدى الأمم الأخرى . فقد كان التفكير النقدى وراء انتشار وازدهار التفكير الفلسفى والعلمى فى مختلف الحضارات ، وكان وراء كل إنجاز حققته الأمم والشعوب فى مجالات الابتكار والإبداع على جميع المستويات ، ويمكن القول بصفة عامة بأن التطوير والتجديد فى أى مجال من مجالات حياتنا يأتى نتيجة طبيعية لممارسة التفكير النقدى .

وهناك أناس لا يطيقون النقد ، بل يرفضونه تمامًا ويستمرئون التقليد والاتباع ، ولا يريدون لأحد أن يوقظهم من غفلتهم أو غفوتهم . فهم سعداء بها . وهذه النوعية من الناس لا يمكن الاعتماد عليها فى النهوض بالمجتمع .

ومجالات النقد كثيرة ومتنوعة وتشمل جميع مجالات الحياة . فقد يكون النقد موجهًا إلى أوضاع المجتمع أو إلى أى مجال من المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية أو غيرها من مجالات ملتصقة تمام الالتصاق بحياة الناس وحاجاتهم اليومية أو العامة . وقد يكون النقد موجهًا إلى الأعمال العلمية أو الفنية أو غيرها . وكل ذلك مطلوب بطبيعة الحال لإظهار الحقائق أمام الناس . وهذه الممارسة للنقد على كل هذه المستويات تعنى حيوية المجتمع وتفاعله مع الأحداث والأفكار .

وهناك لون آخر من ألوان النقد لا يقل فى أهميته عن الألوان المشار إليها ، بل ربما يمكن القول بأنه يمهد لها حتى يمكن أن تسير فى الطريق الصحيح ، ونعنى بذلك النقد الذاتى الذى يعد الخطوة الأولى على الطريق الصحيح . فهناك البعض من الناس لديه هواية النقد لكل شئ . وفى غمرة ذلك كله ينسى أن يوجه النقد لنفسه أولاً . ولو فعل ذلك فسيكون أمرًا إيجابيًّا يساعده على تصحيح مسار حياته وتصحيح أفكاره وتوجهاته ، ويصبح بالتالى قادرًا على الإسهام بشكل إيجابى فى تطوير المجتمع .

وأى أمة تريد أن تتقدم وترتقى فى سلم التحضر لابد لها من تشجيع التفكير النقدى على جميع المستويات فإن ذلك من شأنه أن يحرك المياه الراكدة ويوقظ العقول التى تم تخديرها بشكل أو بآخر فأصبحت عاجزة عن التفكير بصفة عامة والتفكير النقدى بصفة خاصة . وبممارسة التفكير النقدى نستطيع أن نغير ثقافة المجتمع ونبعث فيه الحيوية والطموح والانطلاق إلى آفاق التقدم . وهذا ما تحتاجه أمتنا وما تمليه علينا مسئوليتنا .

* * *



الكم والكيف فى ميزان العقل والدين[1]

سأل أحد الباحثين زميله الذى يستعد للحصول على درجة الدكتوراة : كم عدد صفحات الرسالة ؟ فأجاب الباحث : أكثر من ثمانمائة صفحة . فقال السائل : هذا شئ عظيم . وبذلك حكم على كَمّ الرسالة دون أن يدرى ما إذا كانت تشتمل على شئ جديد أم لا ؟ وفى موقف آخر كانت إجابة الباحث : إن الرسالة تشتمل على مائتين وخمسين صفحة . وكان رد فعل السائل مختلفًا تمامًا ، ونظر إلى الباحث بأسى واستخفاف فى الوقت نفسه . فقلة عدد صفحات الرسالة يجعلها فى نظره خفيفة الوزن والقيمة .

وهذه النظرة الكمية للأعمال العلمية والأبحاث الجامعية إن دلت على شئ فإنما تدل على السطحية فى التفكير والضحالة فى مستوى الحكم على الأشياء . وهناك كثير من الباحثين - وبخاصة فى الكليات النظرية - لا يهتمون كثيرًا بالتجديد والإبداع والابتكار فى بحوثهم ورسائلهم قدر اهتمامهم بالكم ، حيث يعتمد هؤلاء على حشو رسائلهم العلمية بنقول لا ضرورة لها من هنا وهناك . وبدلاً من التركيز على جوهر الموضوع ومحاولة الاجتهاد بعرض وجهات نظر مبتكرة ، نجد الباحث فى كثير من الأحيان يركز اهتمامه على تضخيم بحثه كما لو أن تقييم العمل العلمى ينبنى على ما تزنه الرسالة بالكيلو جرامات وليس بالمعايير العلمية .

والأمر المؤسف أن ثقافة الكم قد انتشرت فى مجتمعنا بشكل كبير على جميع المستويات . فالجامعة التى يصل فيها أعداد الطلاب إلى مئات الآلاف تعد جامعة ذات قيمة ، أما الجامعة التى تضم مئات فقط من الطلاب فقيمتها تكون أقل فى نظر هؤلاء الذين ينظرون إلى الأمور من سطحها ومظهرها وليس من عمقها ومخبرها .

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢/٦/٢٠٠٧ .

وقد طغى هذا التفكير الكمى على عاداتنا الاجتماعية بشكل لا تخطئه العين ، فحين يفكر شاب فى الزواج - على سبيل المثال - فإن العادات الاجتماعية التى ترسخت فى المجتمع تفرض نفسها فى اختيار الأثاث وعدد الغرف التى لابد أن تملأ بالأثاث حتى ولو كان المسكن صغيرًا . فالمظهر الاجتماعى له الأولوية بصرف النظر عما إذا كان الذين سيسكنون فى هذا المكان سيستطيعون أن يتحركوا فى المسكن ويلتقطوا أنفاسهم فيه أم لا ، وعما إذا كانوا سيتمكنون - هم وأسرهم - من تسديد ديون هذا البذخ أم لا .

والشئ نفسه ينطبق على الحرص على كثرة الإنجاب دون مراعاة لإمكانيات الأسرة فى الإنفاق والمسكن والتربية وغير ذلك من متطلبات ، فكثرة النسل تعد فى نظر البعض « عزوة »لرب الأسرة وقوة للوطن بصرف النظر عما تسببه الكثرة التى لا ضرورة لها من مشكلات جمة على جميع المستويات .

ولا تخلو عاداتنا الاجتماعية فى الأكل والشرب من سلبيات كبيرة . فحين يدعو البعض عددًا من أصدقائه أو أقربائه أو معارفه إلى الغداء أو العشاء يحرص على كم الطعام الذى يقدم على المائدة . فإذا كان عدد المدعوين خمسة أفراد ، فالطعام الذى يقدم بألوانه المختلفة يكفى لأكثر من ضعف هذا العدد . وفى ذلك إهدار لا مبرر له للمال والجهد ، وإسراف مذموم فى العقل وفى الدين على السواء ، ولكن المظهر الاجتماعى فى ذلك كله هو الأهم ، والافتخار والمباهاة والمظهرية هى الأمور الحاكمة . ولا أهمية لما وراء ذلك .

أما فى شهر رمضان فحدّث ولا حرج . فعلى الرغم من أنه شهر الصيام والروحانيات والزهد فإن حياتنا تتحول فيه بفعل ثقافة الكم إلى مضاعفة كميات الطعام وألوانه بشكل لا نظير له فى أى شهر من شهور السنة ، وذلك فى تحد صارخ لجوهر وروح هذا الشهر . ويستهلك المجتمع فى هذا الشهر أضعاف ما يستهلكه فى أى شهر آخر من مختلف أنواع السلع ، وتضطر الحكومة للتجاوب مع هذه الرغبة الجماهيرية .

ويلحظ المرء بشكل واضح غلبة شهوة الشراء على مواطنينا ، وعلى العاملين منهم فى دول الخليج بصفة خاصة . ولا ينسى الحجاج والمعتمرون فى رحلتهم الدينية - التى يتجردون فيها من كل الماديات - أن يحملوا معهم عند عودتهم أحمالاً ثقيلة من الأشياء التى يقبلون على شرائها إقبالاً منقطع النظير بحجة أنها من الأماكن المقدسة على الرغم من أنها مصنوعة فى الصين وتايوان وكوريا ولا صة لها بالأماكن المقدسة ، وذلك فضلاً عن وجود مثيل لها فى مصر ، أفلا يدل ذلك على أن مجتمعنا قد تحول مبكرًا إلى مجتمع استهلاكى قبل أن يعبر الهوة التى تفصل بينه وبين مجتمع الوفرة ؟ .

إن انتشار ثقافة الكم يدل فى حقيقة الأمر على ازدياد فقر الفكر فى المجتمع وغياب العقل . وقد نبه الشيخ محمد عبده إلى أن الفقر الحقيقى ليس فى قلة الموارد ، وإنما فى قلة الراشدين المتمسكين بالعقل ومقرراته . وكلما ازدادت أعداد الراشدين يعتدل الميزان ، وكلما قل عددهم يختل الميزان ويميل إلى كفة التخلف والتأخر . ولا شك فى أن الذى يساعد على استمرار هذا الخلل هو تلك العادات والتقاليد الاجتماعية العقيمة التى تتحكم فى المجتمع وتستعبد أفراده . وقد آن الأوان للتخلص منها لأنها تعوق حركته وتشل فاعليته وتعطل تقدمه .

وإذا أردنا أن نتخلص من كل هذه السلبيات فعلينا أن نمارس النقد الذاتى ونراجع أنفسنا ونعدل من أخلاقنا وسلوكياتنا ونتخلى عن التقاليد البالية التى لم يعد لها مكان فى عالم اليوم . وإذا نظرنا إلى العالم المتقدم من حولنا وبحثنا عن أسباب تقدمه فسنجد أنه قد تخلى عن التقاليد البالية وركز على الجوهر دون الشكل واهتم بالكيف دون الكم ، وبذلك حطم العوائق وأعطى للعقل الراشد دوره الكامل فى الحياة ، وبذلك أصبحت حركته سريعة تواكب كل المتغيرات ، بل تصنعها وتحدد لها مساراتها .

وعلى الرغم من أن الدين - الذى لا يزال له فى مجتمعاتنا عمقه العميق فى النفوس - يرفض تمامًا النظرة الكمية للأمور ، ولا يحفل كثيرًا بالشكليات ولا يهتم

بالمظاهر الخادعة ، فإن العادات الاجتماعية والقيم السلبية - التى أشرنا إلى بعضها - قد استطاعت أن تفرض نفسها وترسخ أقدامها فى المجتمع وفى حياة الناس ، وتزاحم قيم الدين ، بل أكاد أقول : تحل محلها . وهذا لون آخر من ألوان الانفصام فى حياة الناس بين جوهر الدين والسلوك العملى المخالف تمامًا للقيم الدينية .

وإذا أردنا أن نذكّر - مجرد تذكير - بنظرة الإسلام إلى قضية الكم والكيف فسيتضح لنا الفارق الكبير بين القيم الدينية وعاداتنا وقيمنا الاجتماعية . فالواقع العملى فى حياة المسلمين فى مراحل الإسلام الأولى يبين لنا أن المسلمين قد انتصروا على المشركين فى موقعة بدر رغم قلة عددهم . فالكيف هنا وليس الكم كان سبب النصر ، ولكن المسلمين فى المقابل قد انهزموا فى موقعة حنين رغم كثرة عددهم وتفوقهم فى ذلك على أعدائهم لأنهم اعتمدوا على الكم واعتقدوا أنه سيكون سبيلهم إلى النصر ، وخاب ظنهم . وقد نهى القرآن الكريم - على سبيل المثال - عن الإسراف والتبذير فى الأكل والشرب بقوله : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾[1] ووصف المبذرين بأنهم : ﴿ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[2] .

والإسلام فى دعوته إلى الاعتدال والوسطية يلفت نظرنا إلى أن الكثرة ليست هى المعيار الصحيح للحكم على الأمور . ومن الأحاديث النبوية المشهورة فى هذا الصدد قصة ثلاثة من الصحابة ذهبوا إلى بيت رسول الله يسألون عن عبادته ليقتدوا به . فلما حكى لهم ما يفعله الرسول فى عبادته وجدوا أنها تعد قليلة جدًا بالنسبة لما يفعله كل منهم . وذكر أحدهم أنه يصلى طوال الليل ولا ينام ، وقال آخر إنه يصوم كل الأيام ولا يفطر ، وقال الثالث إنه يعتزل النساء ولا يتزوج . وهكذا وقع فى ظن كل منهم أن معيار التقوى يتمثل فى كثرة الصلاة والصيام والعزوف عن الدنيا على النحو الذى شرحه كل منهم . وعندما سمع النبى عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٢) سورة الإسراء : ٢٧ .

كلامهم قال لهم : « **والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصلى وأرقد وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وهذه سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى** »[1] ، فلا إفراط ولا تفريط . فكلاهما مذموم فى العقل وفى الدين .

فالإسلام إذن لا يعول على الكثرة أو الكم ولا يعتمد أيًا منهما معيارًا صحيحًا للحكم على الأعمال أو العبادات . وإذا كان المسلمون يشكلون اليوم خُمس سكان العالم فإن هذا العدد الكبير لا يقابله - للأسف الشديد - قوة مادية أو علمية أو حضارية أو حتى روحية فى دنيا المسلمين .

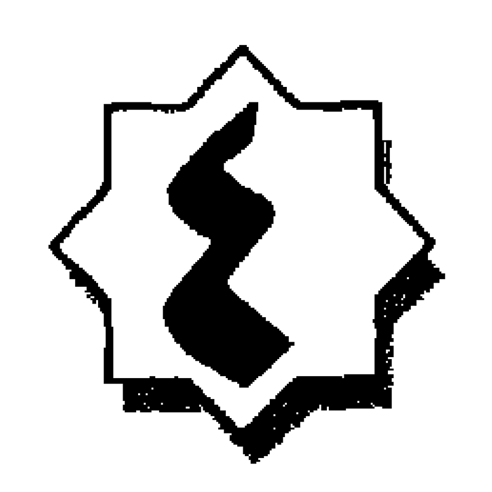
وقد تنبأ النبى عليه الصلاة والسلام بالحال الذى وصل إليه المسلمون فى عالم اليوم من التدنى فى المستوى الحضارى على الرغم من كثرة عددهم الذى يربو على مليار ونصف المليار من البشر ، وانعدام أى دور لهم فى العالم يتناسب مع هذه الكثرة العددية . وفى ذلك يقول : « **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، فأنتم حينئذ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل** »[2] .

فالنبى ﷺ هنا لا يحفل بالكم أو بكثرة العدد الذى يصفه بغثاء السيل ، فالمهم هو ما يتمتع به أفراد المجتمع من فاعلية ورشد وتركيز على جوهر الأمور والارتفاع فوق الهامشيات والشكليات والمظهريات . وقبل كل ذلك وبعده تمكين العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل والمؤثر فى تطوير الحياة والارتقاء بالمجتمع ، وبعبارة أخرى فى التخلى عن ثقافة الكم لصالح ثقافة الكيف .

* * *

(1) رواه البخارى فى صحيحه .

(2) رواه أبو داود فى سننه ، باب الملاحم .



الحرية والضوابط الأخلاقية[1]

مفهوم الحرية من أكثر المفاهيم التى تتردد كثيرًا فى مختلف الأوساط وعلى ألسنة المتحدثين فى مختلف وسائل الإعلام وفى الأفلام والمسلسلات وفى غيرها من وسائل الاتصال . ومن الملحوظ أن مفهوم الحرية يشيع الحديث عنه بدرجة أكبر فى البلاد النامية التى تحررت حديثًا من الاستعمار ، ولا تزال تتلمس طريقها نحو الحرية على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أما البلاد المتقدمة فالملاحظ أنها لا تتحدث كثيرًا عن الحرية ، لا لأنها تفتقدها وإنما لأنها تمارسها ، وبالتالى فهى ليست فى حاجة إلى الحديث كثيرًا عنها .

وفى غابر الأزمان وحتى أعتاب العصر الحديث كانت المجتمعات البشرية تنقسم إلى أحرار وعبيد . وكانت تجارة العبيد من التجارات الرائجة حتى عهد ليس بالبعيد .وكانت تمارسها دول تتصدر الآن دول العالم فى محاولاتها فرض الحرية على الشعوب النامية على النحو الذى تمارسه فى بلادها اعتقادًا منها أن هذا هو النموذج الأمثل . ولا بأس لديها من اللجوء إلى فرض هذا النموذج بقوة السلاح ، كما هو حادث فى عالم اليوم ، وأقرب مثال على ذلك ما يحدث فى العراق ، وإن كان هذا لا ينفى بطبيعة الحال أن لهذه الدول من وراء ذلك أهدافًا أخرى غير معلنة .

والحق أن الحرية حق طبيعى لكل إنسان وليس منحة من أحد . ومن هنا كانت صيحة عمر بن الخطاب فى وجه عمرو بن العاص - الذى اعتدى ابنه على مواطن مصرى بدون وجه حق - حين قال : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟ » .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢١/ ٧/ ٢٠٠٧ .

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة التى لا تحتاج إلى برهان فإن الواقع العملى فى تاريخ البشرية كان أمرًا مختلفًا . فقد مارست الشعوب المختلفة التفرقة العنصرية واعتادت على التقسيم الظالم بين الناس الذى جعل من البعض سادة لهم كل الحقوق ومن الآخرين عبيدًا مجردين من حقوقهم الطبيعية . وقد تورط فى ذلك فلاسفة عظام من أمثال أرسطو المعلم الأول الذى كان يعتبر الرق نظامًا طبيعيًا ، ويذهب إلى القول بأن العبيد مجرد آلات حية ضرورية للقيام بالأعمال الآلية المنافية لكرامة المواطن الحر . والسادة الأحرار فى نظره هم شعب اليونان الذى ينتمى هو إليه .

إنها قصة طويلة خاضتها البشرية عبر تاريخها الطويل حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من تحقيق أهدافها فى الحرية بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال . والسؤال المهم فى هذا الصدد : – هل الحرية مطلقة أم نسبية ؟ وإذا لم تكن مطلقة فما هى حدودها التى تتوقف عندها ؟ وهل هناك علاقة بين الحرية والأخلاق ؟ وكيف يشعر المرء بالحرية ؟

إن مما لا شك فيه أنه لا توجد حرية مطلقة فى عالم الإنسان ، ولو كانت هناك حرية مطلقة لكل فرد يفعل ما يشاء دون أى اعتبار آخر لا نقلب العالم إلى حالة من الفوضى والعبثية . ومن هنا فإنه لا يمكن تصور الحرية بدون مسئولية . فالحيوان غير مسئول لأنه لا يعقل . أما الإنسان – الذى حباه الله بنعمة العقل – فإن حريته لا تنفصل عن المسئولية . وتلك هى السمة الفارقة التى تميز الإنسان عن الحيوان . فلا حرية إذن بدون مسئولية ، ولا مسئولية بدون عقل ، ولا عقل بدون قيم تضبط سلوك الأفراد والجماعات .

وهكذا يمكن القول بأن الحرية الواعية هى أساس المسئولية الأخلاقية . والمسئولية صفة تلازم صاحبها فى كل مراحل الفعل الإنسانى من بدايته حتى نهايته. فالإنسان من منطلق مسئوليته الأخلاقية مطالب قبل الفعل بالالتزام بفعل ما ينبغى أن يكون . ونظرًا لأنه يتمتع بالحرية فإن تصرفه حين يقدم على الفعل لا يقبل الضغط أو الإكراه .

ونتيجة لذلك قد يكون التصرف إيجابيًا محققًا للغاية الأخلاقية ، وقد يكون سلبيًا على النقيض من ذلك . ولكن الإنسان بعد الفعل - من منطلق مسئوليته الأخلاقية أيضًا كإنسان- يحتاج إلى عملية تقييم لما صدر عنه من فعل ، أى أنه مطالب بالالتفات إلى الماضى فى عملية استجواب ومحاسبة لنفسه .

والإنسان بطبيعته كائن اجتماعى ، وهو فى حاجة إلى المجتمع الإنسانى لتطوير شخصيته وتحقيق ذاته . ومن ناحية أخرى فإن عليه التزامات أدبية تجاه هذا المجتمع الإنسانى . وهذه الالتزامات ليست مجرد التزامات مفروضة عليه من قوة خارجية عنه ، وإنما هى مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أى مسئولية . فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى . والإنسان الذى يتنكر لالتزاماته الأدبية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة الإنسانية . ونظرًا إلى أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج إلى المجتمع الإنسانى - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - فإن هذه الحالة التى يعزل فيها نفسه تعد بالنسبة له مميتة من الناحية الأدبية . ولهذا يبدو أمرًا غريبًا ، وموقفًا متناقضًا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها .

ويرجع السبب فى إمكان إنكار الالتزامات الإنسانية من جانب كثير من الناس- أو على الأقل اعتبارها التزامات خارجية بحتة مفروضة من خارج الذات - إلى أن المسئولية ، مثل كل شئ آخر يتعلق بالأخلاق ، متصلة أوثق الصلة بالحرية الإنسانية .

وهناك جبريون ينكرون الحرية ، وبذلك يرفضون تحمل مسئولية تصرفاتهم . ويضرب الفيلسوف كارل ياسبرز مثالاً يعبر به عن هذا الموقف المتناقض بقوله :

« عندما وقف المتهم يدافع عن براءته أمام المحكمة قائلاً : - إنه ولد باستعدادات أردته إلى الشر ، وإنه مادام لم يستطع أن يفعل خلاف ما فعل فلا ينبغى

أن يعتبر مسئولاً ، أجابه القاضى متهكمًا : إن عين السبب يبرر سلوك القاضى ، فإنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر غير إدانة المتهم من حيث كونه مجبرًا فى هذا بالعمل طبقًا للقوانين الموضوعة ». ونحن نشعر بالحرية شعورًا مباشرًا إذا ما وقفنا موقف الاختيار بين سلوكين ، فالإنسان يكون على وعى بحريته عندما يمارسها ، وممارسته لهذه الحرية فى علاقاته مع الآخرين تتمثل فى صور مختلفة يمكن إرجاعها إلى ثلاث صور أساسية .

أما الصورة الأولى فإنها تتمثل فى محاولة إشباع هذه الحرية بلا حدود دون مراعاة للآخرين ، انطلاقًا من أنانية مفرطة لا تعترف بحدود ولا قيود ، وذلك فى غياب تام للعقل ومقرراته . وهذه الصورة لا تليق بالإنسان ولا تتفق مع كرامته .

أما الصورة الثانية فإنها مناقضة تمامًا للصورة السابقة ، وتتمثل فى الإيثار المفرط والتضحية بالذات من أجل الآخرين ، وهنا يتنازل المرء عن حريته فى سبيل إفساح المجال للغير . وهذا السلوك - على الرغم من سلامة القصد فيه - لا يحقق للمرء ذاته ولا يكفل له ممارسة حريته على نحو سليم .

أما الصورة الثالثة فإنها مزيج من الصورتين السابقتين تجمعهما فى وحدة واحدة وترتقى بهما ، فى توازن يحقق للإنسان وجوده الإنسانى على نحو يليق بإنسانيته . وهنا يتعامل الإنسان مع الآخرين على أنه إنسان ، أى على أنه كائن حر ، وبذلك تكون العلاقة الإنسانية هى علاقة مجتمع يتكون من موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل قيام مجتمع إنسانى يحقق الخير الأخلاقى للجميع .

وهكذا يتضح أنه لا قيام للأخلاق بدون هذا التوافق والتنافس بين خير الإنسان وخير الغير ، أى أنه لا بد لكل فرد من أن يقيم نوعًا من التوازن بين مطلبى تحقيق الذات والتضحية بالذات ، وينبغى ألا تتعدى حريته هذا الإطار .

وإذا كانت الحرية تعد حقًا طبيعيًا لكل إنسان ، وإذا كان المجتمع الإنسانى السوى لا يستقيم إلا إذا كانت حرية الأفراد فيه حرية واعية ومسئولة ومنضبطة

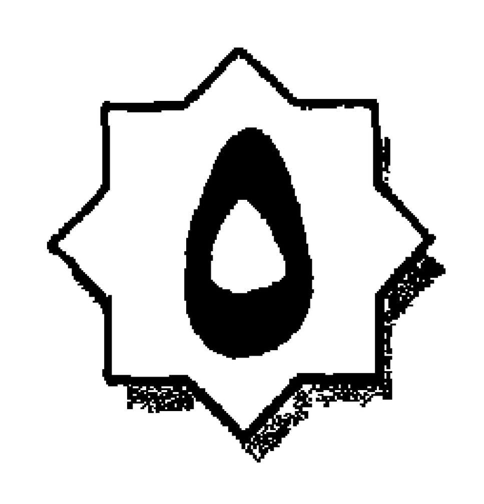
بالضوابط الأخلاقية الفطرية المغروسة فى نفس كل إنسان ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه فى عالم اليوم بإلحاح هو : ما صلة ذلك كله بما يتم الترويج له اليوم فى الدول المتقدمة باسم الحرية وباسم حقوق الإنسان من ممارسات شاذة تناقض الطبيعة الإنسانية ، ويراد تصديرها ، بل وفرضها على بقية دول العالم مثل الشذوذ الجنسى وزواج المثليين ؟ .

ويقال تبريرًا لهذه الممارسات : إن الإنسان حر فى التصرف فى جسده . ومن هنا فإن من حقه إقامة مثل هذه العلاقات الشاذة التى أصبحت ممارسات مشروعة ومعترفًا بها قانونًا فى بعض الدول المتقدمة . وباسم حقوق الإنسان تلام الدول التى لا تريد أن تعترف بهذه الحقوق المزعومة وتوصف بالتخلف والرجعية . وقد يصل الأمر إلى التلويح بقطع المساعدات عنها إذا لم تبد مرونة فى هذا الشأن .

إن الإنسان – الذى كرمه الله بأن نفخ فيه من روحه وجعله خليفة له فى الأرض ووهبه عقلاً يميز به الخير من الشر والنافع من الضار – إذا أراد أن يظل محتفظًا بهذا التكريم الإلهى ومتمسكًا بإنسانيته كإنسان بكل ما يعنيه ذلك من معنى ، فإنه سيظل صامدًا أمام هذه الانتكاسة التى تريد له أن يتنازل عن إنسانيته ويرتد إلى عالم الحيوان ، بل إلى ما هو أدنى من ذلك . ولعل الداعين إلى هذه الانتكاسة فى عالم اليوم تنطبق عليهم الآية الكريمة : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .



خواطر حول الجهود العلمية الإسلامية بين الماضى والحاضر

تمهـيد :

هناك مقولة – سبقت الإشارة إليها – تقول: «الفلسفة بنت الدين وأم العلوم». وتعتبر هذه المقولة تعبيرًا صادقًا عن مدى الصلة الوثيقة التى تربط العلوم والمعارف الإنسانية التى تمثل حلقات متصلة تلبى حاجات وتطلعات الإنسان . فكما هو فى حاجة إلى الدين فإنه أيضًا فى حاجة إلى الفلسفة وسائر العلوم . ومن هنا فإن افتعال خصومة بين هذه العناصر أمر لا مبرر له وليس فى مصلحة الإنسان ، ولا يعبر عن حقيقة جوهره .

صحيح أننا نعيش الآن عصر العلم ، عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية الكبرى . ولكن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الإنسان يمكن أن يستغنى تمامًا عن الدين وعن سائر العلوم العقلية لصالح العلوم الطبيعية .

وصحيح أيضًا أن التطورات العلمية الهائلة قد تصيب الإنسان بالغرور وتدفعه إلى الاعتقاد بأن التقدم المادى هو كل شىء ، ولكنه فى نهاية الأمر يجد نفسه مدفوعًا إلى الحنين إلى الاعتقاد وإلى البحث عن شىء يملأ فراغ نفسه ويشعره بالاطمئنان . وهذا الحنين فى حد ذاته يدل على أن هناك حاجات نفسية وجدانية وحاجات عقلية لا يجوز تجاهلها إذا أراد الإنسان لنفسه السعادة فى هذه الحياة . ويذكرنى ذلك بكتاب كنا نقرؤه ونحن طلاب فى المرحلة الثانوية بعنوان « الله يتجلى فى عصر العلم » لمجموعة من أبرز العلماء فى مختلف العلوم فى الغرب أجمعوا على أن إنجازاتهم العلمية قادتهم إلى الإيمان .

العلم والحضارة :

والمتتبع لنشأة الحضارات الإنسانية يجد أنها قامت على أساس من الدين والعلم معًا . ومن هنا اهتم الوحى القرآنى فى أول ما نزل منه بلفت الأنظار والعقول إلى مفاتيح الحضارة قبل أن يتحدث عن أى شئ آخر يتعلق بالعقيدة وأمور الآخرة . فكانت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق التى تأمر بالقراءة مرتين وتشيد بالعلم والقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل هذا العلم . وكان هذا الوحى عودًا على بدء . فقبل أن يهبط الله آدم إلى الأرض علمه الأسماء كلها ، أى أعطاه مفاتيح الحضارة التى يستطيع من خلالها أن يلبى الأمر الإلهى بإعمار الأرض فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها .

ولتأكيد ذلك جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقد أدرك المسلمون الأوائل كل هذه المعانى وساروا على نهجها فكانت لهم إسهاماتهم التى لا تنسى فى تقدم العلوم وازدهار الحضارة . وإذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالعلم ، فإن منهج العلم فريضة أيضًا ويعد جزءًا لا يتجزأ من العلم .

ومناهج العلوم تختلف باختلاف موضوعاتها من علم إلى آخر . وقد أسهم أسلافنا إسهامات جادة فى تقدم العلوم ومناهجها . وكان لابد فى هذا الصدد من تحديد الحدود بين العلوم المختلفة حتى لا تختلط الأمور . ومن هنا كان « إحصاء العلوم » للفارابى بوصفه أول محاولة جادة فى هذا الصدد استفاد منها الأوروبيون كثيرًا فى العصور الوسطى فى أوروبا حتى بداية القرن السادس عشر .

وقد تحدث القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى عن هذا الكتاب فقال : « وله كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، ولم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه »[2] .

(١) سورة هود: آية ٦١ .

(٢) نقلاً عن تقديم المحقق د . عثمان أمين للطبعة الثانية لكتاب إحصاء العلوم .

والعلم - كما نعرف من تراثنا - رحم بين أهله وتواصل بين الأجيال والحضارات ، وكل جيل يضيف إليه شيئًا جديدًا يمهد به السبيل لمن يجئ بعده. ولن يكتمل بناء صرح العلم طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود ، فالعلم نسبى وقابل للتطور المستمر . والكلمة الأخيرة فى العلم أو فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه وإلا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدى .

ومن أجل ذلك ستظل محاولات التجديد والتطوير والإبداع متواصلة بلا انقطاع طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود . ومهمة اللاحق وفرصته أفضل دائمًا من فرصة السابق عليه . وقد أشار إلى ذلك أبو بكر الرازى فى حديثه عن الفلسفة حيث يقول : « اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك ، واجتهد فيه ، وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته عَلِم عِلْم من تقدمه منهم ، وحفظه ، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى ، لأنه مهر بعلم من تقدمه ، وفطن لفوائد أخرى واستفضلها ، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل » .

وما قاله أبو بكر الرازى فى هذا النص عن الفلسفة ينطبق بطبيعة الحال على سائر العلوم . فالعلم قسمة مشتركة بين بنى البشر . وهناك تفاعل مستمر بين الأجيال والحضارات ، وكل جيل يبدأ من حيث انتهى الآخرون ، وكل جيل مدين للجيل السابق عليه بما قدمه من عطاء .

ومن هنا فإنه لا يجوز لأى حضارة أن تدعى لنفسها أنها أنجزت ما أنجزت دون أن تستفيد من غيرها بشكل مباشر أو غير مباشر سواء كان هذا الإنجاز تعديلاً أو تصحيحًا لما قاله السابقون أو إضافة جديدة للبناء العلمى الذى هو ملك للبشرية كلها . فالعقل الإنسانى واحد لدى جميع البشر وهو : « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » كما يقول ديكارت .

ولا شك فى أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من الإنجازات العلمية والفكرية السابقة عليها كما أفادت بدورها الحضارة الأوروبية الحديثة بما قدمته لها

من عطاء فى العصور الوسطى عن طريق الترجمات العديدة من خلال المعابر الحضارية فى كل من الأندلس وجزيرة صقلية . وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يوجد مبرر لمحاولة البعض على كلا الجانبين إنكار أو نفى هذا التواصل العلمى والحضارى بين الثقافات .

ويؤكد القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، أن السماء والأرض وما بينهما مجال للنظر والبحث العلمى . وختام الآية يبين لنا أن ذلك لن يكون متاحًا إلا لهؤلاء الذين يتفكرون ، أى الذين يستخدمون عقولهم فى البحث والنظر بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو اللغة . فالمجال مفتوح لكل من لديه استعداد لاستخدام عقله وفكره فيما خلق له .

وفى ضوء هذه الآية الكريمة أود أن أطرح سؤالاً عن جدوى ما يبذل من جهود مشكورة فى مجال أسلمة العلوم لتطوير حياتنا الإسلامية . ألم يكن من الأجدى أن نختصر الطريق ونبدأ من حيث انتهى الآخرون حتى نستطيع أن نلحق بركب التطور العلمى ؟ لقد انطلقت هذه الدعوة منذ حوالى ربع قرن من الزمان ، فما الذى قدمته للارتقاء بالعلم فى مجالاته المختلفة فى العالم الإسلامى ؟ .

ولست أنكر أن طرح مثل هذه الأسئلة سيصدم البعض . ولا أنكر أنى كنت فى سنوات سابقة معجبًا بطروحات أسلمة العلوم . ولكنى وجدت – وهذا رأى شخصى – أن من الأفضل أن توجه هذه الجهود إلى البحث العلمى نفسه وإلى أخلاقيات العلم التى أصبحت الحاجة إليها ملحة بعد أن وصلنا إلى مرحلة الاستنساخ البشرى وما قد يجره ذلك من عبث بالجينات البشرية ، وما لذلك كله من آثار بعيدة المدى على حياة الجنس البشرى كله .

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

ولست أريد بطرح هذه الأسئلة التقليل من شأن أصحاب هذا الاتجاه . ولا أشك فى إخلاصهم ونواياهم الحسنة . فالخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية . وأنا بطبعى أحترم كل الآراء ، ولكن احترام الرأى شيء والقبول به شيء آخر .

وأود فى هذا المقام أن أشير إلى أن جائزة الملك فيصل التى تمنح سنويًا لعدد من العلماء فى مختلف العلوم على مستوى العالم يكاد ينحصر الفوز بها فى علوم الطب والفيزياء وغيرها فى علماء من الغرب من غير المسلمين ، الأمر الذى يدل على تخلف العلماء المسلمين فى هذه المجالات . فالجائزة إذن تمنح للجدير بها بصرف النظر عن عقيدته أوجنسه أو عرقه ، وهذا أمر يحمد للجائزة وللقائمين عليها .

وهناك نقطة أخرى مهمة أود التطرق إليها تتعلق بالتراث العلمى فى الحضارة الإسلامية . فالعودة إلى هذا التراث وإبرازه لتأكيد الإنجازات الرائعة التى قام بها العلماء المسلمون فى السابق أمر مطلوب ومشكور ، ولكن بشرط أن يكون ذلك فى إطار حدود معينة ، أى فى إطار استعادة الثقة بأنفسنا حتى نستمر فى السير على الدرب . فلسنا أقل فى عقولنا وقدراتنا من السابقين ، ولكننا فى حاجة إلى استعادة هذه الثقة حتى لا نصاب بمركب النقص إزاء الدول التى سبقتنا فى التقدم العلمى والحضارى ، على الرغم من أن هذه الدول كانت تعيش فى ظلام دامس فى العصور الوسطى فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة الإسلامية فى قمة ازدهارها وعطائها .

ومن هنا فإنه لا يجوز لنا أن نضيع الكثير من الوقت والجهد أو الوقوف عند حد اجترار الذكريات أو التغنى بالأمجاد ، فقيمة المرء بما يقدمه من عطاء وليس بما قدمه أسلافه ، أو كما قال الشاعر ابن الوردى :

لا تقل أصلى وفصلى أبدًا إنما أصل الفتى ما قد حصل

ورحم الله جمال الدين الأفغانى . فقد زاره المفكر الإسلامى شكيب أرسلان فى الآستانة حينما كان شبه أسير لدى سلطات الخلافة العثمانية ، ودار الحديث حول ما روى من أن العرب قد عبروا المحيط الأطلنطى قديمًا واكتشفوا القارة الأمريكية قبل أن يكتشفها كرستوفر كولمبوس عام ١٤٩٢ م . وقد رد عليه الأفغانى بقوله :

« إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1] .

ولا شك فى أن التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى قد بدأ عندما قنع المسلمون بما فعله الأجداد ، وعندما شاعت مقولات تنشر اليأس فى النفوس تقول بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأنه لم يترك الأول للآخر شيئًا . وشاع ذلك فى كل مجالات العلوم عقلية أو طبيعية أو حتى دينية . ومن هنا خرجنا نحن المسلمين من حلبة السباق وأصبحنا كما هو الحال اليوم فى مؤخرة الركب .

وهذا ما دفع الشيخ محمد عبده إلى أن يعيب على الفقهاء – على سبيل المثال – دعوتهم الناس إلى تقليدهم والعمل بما جاء فى كتبهم حيث يقول :

« جعل الفقهاء كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين . ولم يخجلوا من قولهم : إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة » .

وقد جر ذلك وراءه موجات من التقليد الممقوت والتعصب الأعمى ، وتم إهمال العقل ومقرراته والعلم وحقائقه فانتشرت الخرافات والأوهام . وما قصة الشجرة التى زعم أنها تحمل لفظ الجلالة أو صيغة الشهادة ببعيدة عنا . فقد اهتمت بها وسائل الإعلام وانهال الناس من كل صوب على الشجرة لرؤية المعجزة والتبرك بها . وكل هذه خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان .

إننا نتطلع إلى نهضة علمية حقيقية فى عالمنا الإسلامى ، ونرجو أن تكون مراكز البحوث العلمية المنتشرة فى العالم الإسلامى والمؤتمرات العلمية العديدة التى تعقد هنا وهناك بمثابة حافز يدفع إلى التجديد والإبداع حتى تنتقل الأمة من حالة

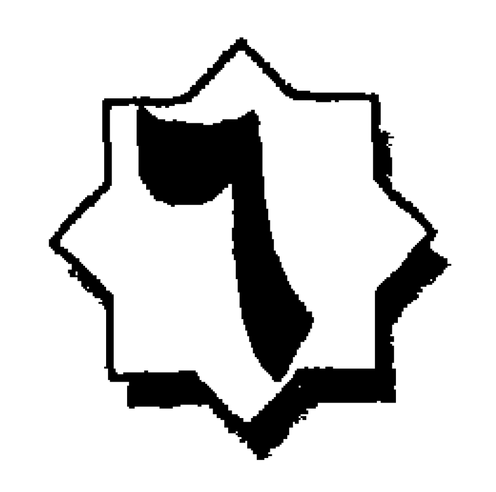
(١) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١٠٢ .

التراجع الحضارى التى استمرت عدة قرون إلى ما نرجوه لها جميعًا من التقدم والازدهار ؟ .

ولكن الأمنيات وحدها لا تصنع شيئًا . فتغيير العقليات هو البداية . وتبدل الأحوال لن يسقط علينا من السماء ، فزمن المعجزات قد انتهى منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . والقانون القرآنى هو الحاكم فى هذا الصدد وهو قانون واضح كل الوضوح لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . يقول القرآن الكريم فى ذلك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .



فلسفة المقاومة[1]

عندما يطلق مفهوم المقاومة فى عصرنا الحاضر على المستوى الإعلامى يتصرف الذهن مباشرة إلى مقاومة الشعوب لما تتعرض له من ظلم واضطهاد من ناحية، كما تعبر فى الوقت نفسه عن الأمل فى المستقبل من ناحية أخرى، فهى إذن مقاومة للألم، ماديًا كان هذا الألم أم معنويًا، من أجل توليد الأمل .

والأمر الجدير بالملاحظة هنا هو أن حروف كلمة ألم فى اللغة العربية هى نفسها حروف كلمة أمل مع تبادل المواقع بين الحرفين الثانى والثالث . وأعتقد أن الارتباط بين الكلمتين ليس فقط فى مادة الكلمة ولكن أيضًا فى التطور الواقعى لانبثاق الأمل من أعماق الألم عن طريق المقاومة . ولعله يمكن القول بأنه لولا الألم - أيًا كان نوعه - لما كان هناك دافع للمقاومة وتطلع مشروع نحو الأمل فى تغيير الواقع .

ومن هنا نرى الشعوب المضطهدة تقاوم الظلم وتستعذب الموت فى سبيل حياة حرة كريمة، كما تستعذب الأم آلام الوضع فى سبيل رؤية بسمة الأمل على فم وليدها الجديد . وتلك هى سنة الحياة . وما ينطبق على صورة مقاومة الشعوب للاضطهاد والظلم ينطبق أيضًا على مختلف صور المقاومة مادية كانت أم معنوية .

والتحديات التى تواجه الأمم والشعوب على مدى التاريخ تبين لنا أن هناك شعوبًا قاومت وانتصرت، وشعوبًا أخرى استسلمت وانهزمت . والحضارة ذاتها تعد مقاومة للتخلف . ويفسر « توينبى » الحضارة بأنها رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس فى مواجهة تحد معين . وهذا التحدى الذى قد تمثله الطبيعة يختلف فى مستواه، وبالتالى تختلف فعالية الرد من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاثة :

---

(١) كلمة افتتاحية للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية عام ٢٠٠٦ تحت عنوان (فلسفة المقاومة) .

فإما أن تقوم الشعوب المعنية - عن طريق المقاومة - بوثبة إلى الأمام ، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود ، وإما أن يلفها الفناء بردائه .

وهذا يعنى أن المقاومة ضرورة حياتية ، فالمقاومة عصب الحياة بجميع أبعادها ابتداء من مقاومة الجسم لكل ما يحيط به من أمراض ، ومرورًا بمقاومة التحديات الطبيعية والكوارث البيئية لاستمرار الحياة وبناء الحضارة حتى تنعم الشعوب فى ظلها بالأمن والاستقرار والسلام .

ولكن السؤال الجوهرى هنا هو : ما هى القاعدة التى تستند إليها فلسفة المقاومة ؟ ودون الدخول فى مناقشات لا داعى لها حول تعريف مفهوم « فلسفة المقاومة » لدى بعض الاتجاهات الفلسفية أو السياسية المعاصرة ، نرى أنه لا يوجد هناك أساس فلسفى للمقاومة غير العقل الإنسانى . بل يمكن القول إن المقاومة تفقد مصداقيتها ومبرراتها إذا تخلت عن العقل . ومن هنا يمكن القول : إن تفعيل دور العقل يعد أفضل سبيل للمقاومة على جميع الأصعدة . وكل صور المقاومة تعتمد على العقل الإنسانى . فمقاومة الاحتلال والاضطهاد والظلم تحتاج إلى العقل ليخطط ويعد العدة حتى يمكن أن تصل المقاومة إلى تحقيق الهدف المنشود ، وهكذا بقية صور المقاومة . ومن بينها - على سبيل المثال لا الحصر - مقاومة الخرافات والانحرافات والسلبيات فى المجتمع ومقاومة الجهل والفقر والمرض ومقاومة الفساد والمفسدين ، وبصفة عامة مقاومة التخلف بجميع صوره وأشكاله . وقد تكون المقاومة بالفكر أو بالعلم أو بالسلاح أو بالدين .

والدين نفسه قد أمر بمقاومة المنكر بالفعل أو بالقول أو بالقلب . وهذا أضعف الإيمان ، كما جاء فى الحديث النبوى المشهور[1] ، كما أمر القرآن الكريم برد العدوان فى مختلف صوره وأشكاله .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، ونصه : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولكن العقل سيظل هو الذى يحدد لنا من نقاوم ؟ أو ماذا نقاوم ؟ ومتى وأين نقاوم وما هو الأسلوب الأمثل للمقاومة ؟ ومتى نتوقف ومتى نواصل المقاومة ؟ كما أن العقل أيضًا هو الذى يقوم بتقييم نتائج المقاومة .

ومن الطبيعى أن تبدأ المقاومة من داخل النفس الإنسانية . ولعل ذلك يكون أوضح ما يكون فى التصوف الذى يعتمد على مقاومة إغراءات النفس ليصل بصاحبه إلى مرحلة « التخلية » التى تهيئ النفس لمرحلة « التحلية » كما يقول المتصوفة. إن المقاومة لها - بطبيعة الحال - وسائل متعددة ، والعقل هو الذى يضبط إيقاع المقاومة ويصحح لها مسارها ويصل بها إلى الهدف المنشود .

وليست هناك مقاومة لذات المقاومة دون أن يكون لها هدف معقول يبرر مشروعيتها ، وإلا ستكون مقاومة عبثية .

وقد كانت الفلسفة دائمًا ولا تزال وستظل أبرز صور المقاومة ، تقاوم الجهل والسطحية وضيق الأفق والتعصب والتطرف لتضع مكان ذلك العلم والتعمق وسعة الأفق والتسامح والاعتدال .

وهذه كلها عناصر ضرورية لمنع الظلم والاضطهاد والعدوان على حقوق الإنسان ومنع الطغيان فى شتى صوره وأشكاله .وهدف المقاومة هو سلام النفس وسلام المجتمع وسلام العالم حتى يتحقق حلم الفلاسفة فى كل العصور وهو الوصول بالبشرية إلى النموذج الإنسانى المثالى . وإذا كان تحقيق مثل هذا النموذج يعد أمرًا صعب المنال فعلى الأقل يكفى الاقتراب منه لتغليب الأمل وتشجيع أجيال المستقبل على السير فى نفس الطريق لتحقيق ما لم تحققه الأجيال السابقة .

* * *



قيمة الوقت فى حياتنا[1]

يشتمل تراثنا العربى القديم على العديد من الأمثال الشهيرة المعبرة عن قيمة الوقت والتى لا نزال نرددها حتى اليوم . ومنها على سبيل المثال لا الحصر « الوقت من ذهب » ، و« الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ».

وتأكيدًا لأهمية الوقت فى حياة الناس أفرادًا وجماعات يبين لنا النبى عليه الصلاة والسلام أن الوقت يعد إحدى المسئوليات الأساسية التى سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة ، وذلك فى قوله : « **لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه . . . إلخ** »[2] وعمر الإنسان هو مجموع أوقاته التى عاشها فى هذه الحياة . فهو مسئول عن كل لحظة من لحظات هذا العمر : ماذا عمل فيها ، وهل استفاد منها وأفاد غيره ومجتمعه بهذه الأوقات أم لا ؟ .

ويعبر أمير الشعراء أحمد شوقى تعبيرًا صادقًا عن وجود عنصر مهم فى داخل كل منا يشعرنا بصفة دائمة بقيمة الوقت وأهميته البالغة فى حياتنا فيقول :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان

ومن كل ذلك ، وغيره كثير، يتضح لنا مدى الأهمية الكبيرة لقيمة الوقت فى تراثنا القديم والحديث . ويعبر ذلك كله عن الحرص الشديد على ضرورة استغلال الوقت فى أعمال مفيدة للشخص أو لأسرته أو لمجتمعه . وبذلك تنهض الأمم وتتقدم الشعوب . فكل فرد يبنى ويقدم ما يستطيع تقديمه . **وكل ميسر لما خلق له**[3] - كما جاء فى الحديث الشريف - .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٧ .

(٢) رواه الدارمى فى سننه .

(٣) جزء من حديث رواه البخارى فى صحيحه .

ولا يجوز لأى فرد أن يتقاعس عن تقديم ما يتيسر له تقديمه بحجة أنه لا يملك ما يقدمه للناس . فالكلمة قد يكون لها أثر كبير فى دفع الآخرين إلى العمل والإنتاج ، بل حتى مجرد الابتسامة قد تدخل السرور والبشر على الآخرين وتحفزهم إلى مزيد من العطاء . ومن هنا كان قول النبى صلى الله عليه وسلم : « **تبسمك فى وجه أخيك صدقة** »[1] وقوله: « **لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »[2] أى بوجه بشوش .فالأمر الذى لا شك فيه أن الحالة النفسية للإنسان لها تأثيرها الكبير على سلوكه فى حياته سلبًا أو إيجابًا . وينعكس ذلك بطبيعة الحال على حسن أو إساءة استخدامه للوقت .

ولا يختلف العقلاء فيما بينهم على أهمية الوقت وحسن استغلاله فى دفع عجلة الحياة وتطويرها . ولكن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : هل ما نقتنع به نظريًا نطبقه بالفعل عمليًا أم أن هناك فجوة كبيرة بين الفكر والفعل ؟ .

إن واقع الحال يبين لنا أن هناك فجوة تفصل بين الفكر والعمل . فكثير من الأمور التى نقتنع بها ونؤمن بجدواها لا تخرج فى أغلب الأحيان عن دائرة النظر إلى دائرة العمل . فكلنا يؤمن بأن الوقت مسئولية وأن كل دقيقة تمر علينا ما هى إلا اقتطاع جزء من عمرنا المحدود فى هذه الحياة ، وأنها إذا ذهبت فلن تعود أبدًا .

وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرين يبددون أوقاتهم بكل سهولة . ومن بيننا أناس تخصصوا فى تضييع الوقت ، أو بتعبير أدق : فى قتل الوقت ، كما لو أن أوقاتنا عدو لابد أن نقتله ونتخلص منه . ومن ناحية أخرى فإننا لا نفرق كثيرًا بين أوقات الجد وأوقات اللهو ، بل نخلط بينهما ، الأمر الذى يجعل حياتنا تسير دون نظام يحكم سيرها ويضبط حركتها . وهكذا لم يعد الوقت لدى الكثيرين من ذهب يحرصون عليه - كما يقول المثل القديم - ، وإنما أصبح من تراب ، بل أرخص من التراب .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

ورحم الله العالم الدمشقى المعروف جمال الدين القاسمى - الذى كان معاصرًا للشيخ محمد عبده - فعندما كان هذا العالم يمر فى طريقه المعتاد يوميًا فى موطنه كان يرى المقاهى مكتظة بالجموع الغفيرة من الناس الذين يضيعون أوقاتهم فيما لا طائل من ورائه ، فيعبر عن حسرته على عدم الوعى بقيمة الوقت قائلاً : كم أتمنى أن يكون الوقت مما يباع لأشترى من هؤلاء جميعًا أوقاتهم لأنفقها فيما يفيد .

صحيح أن حياة الناس فى الماضى كانت تسير ببطء ورتابة ، ولم يكن لديهم من وسائل الترفيه إلا القليل بالقياس إلى ما يشهده عالمنا المعاصر . ومن هنا يمكن أن يقال إنه كانت لديهم مساحة كبيرة من الوقت ، ولكن الصحيح أيضًا أن الإنجازات الرائعة والطفرة التكنولوجية الهائلة فى عالمنا المعاصر ، والتى تحيط بنا الآن من كل جانب ، قد وفرت لنا الكثير من الوقت والجهد . والفرق بيننا وبين أسلافنا ، أو حتى معاصرينا فى الأمم المتقدمة ، هو الوعى بقيمة الوقت واستغلاله الاستغلال الأمثل .

وعلى الرغم من أن العصر الحاضر قد هيأ لنا - كما أشرنا - وسائل عديدة اختصرت الزمان والمكان ووفرت لنا المزيد من الوقت الذى يمكن استغلاله فى الأعمال المفيدة ، فإن غالبية الناس فى عالمنا الإسلامى لا يزالون يفتقدون الوعى الحقيقى بقيمة الوقت ، هذا الوعى الذى من شأنه أن يدفع المرء إلى العمل المنتج ويحفزه إلى الإبداع . وفى المقابل فإن عدم الوعى بالوقت يشد المرء إلى التخلف والكسل العقلى والعضلى معًا ، ومن هنا يمكن القول بأن الفرق بين إنسان متحضر وإنسان غير متحضر هو الإحساس بالوقت . فالوعى بقيمة الوقت مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحضارة والتحضر .

ومن هنا ذهب المفكر الإسلامى الراحل مالك بن نبى الى جعل الحضارة نتيجة لثلاثة عناصر أساسية هى : التراب (المادة) + الوقت + الإنسان . وبدون أى عنصر من هذه العناصر لا تقوم حضارة . فالإنسان هو صانع الحضارة والمادة ضرورية لصنع الحضارة ، والوقت هو الوعاء لصنع الحضارة .

وإذا كان الوقت هو الوعاء الذى يمارس فيه الإنسان نشاطه فى الحياة فإن ذلك يعنى ارتباط قيمة الوقت بقيمة العمل . فالوقت بلا عمل فراغ ، والعمل لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك وقت لإنجازه . والفراغ فى حد ذاته يمكن أن يكون نعمة ، كما يمكن أن يكون نقمة . ومن أجل ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** »[1] . فالذى لا يستعملهما فيما ينبغى وفيما خلقا من أجله فقد ظلم نفسه وبذلك تنقلب النعمة إلى نقمة .

وقد أعطى الله الإنسان العقل ليميز به الخير من الشر ، والنافع من الضار . وهذا يعنى أن عليه أن يتحمل مسئوليته الإنسانية وأن يبذل أقصى الجهد لوضع كل شىء فى إطاره الصحيح . ومسئولية الإنسان الحضارية فى هذا الوجود تحتم عليه أن يكون أمينًا فى تحمل هذه المسئولية ليحقق ذاته ويؤكد هويته الإنسانية من ناحية ، وليكون جديرًا فى الوقت نفسه بشرف خلافته لله فى الأرض من أجل إعمارها بالخير فى جميع المجالات من ناحية أخرى . وهذا أمر لن يتحقق إلا بالتوظيف الأمثل لقيمة الوقت .

ومن هنا اهتم الدين بقيمة الوقت ونبه إليها ، وحض على الالتزام بها وحسن التصرف فيها . وقد أقسم الله بالوقت فى العديد من آيات القرآن الكريم ليبين لنا مدى الأهمية البالغة لهذه القيمة فى حياة الإنسان . وقد جاء القسم فى هذه الآيات بالفجر وبالضحى وبالعصر وبالليل وبالنهار ، وكلها تمثل أجزاء من الوقت . والله لا يقسم بشىء دون أن تكون هناك حكمة بالغة ووراء ذلك يراد تعليمها للناس .

فإذا أقسم الله بالوقت . فالزمن أو الوقت مخلوق لله ، ونحن أيضًا مخلوقون لله . ومن هنا فنحن مرتبطون ارتباطًا لا ينفصم بالزمن . وتفكيرنا يدور فى إطار الزمن الذى لا يستطيع إنسان أن يتجاوزه . والزمن ينقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل .

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

والإنسان العاقل يتذكر الماضى ليعتبر بما جرى فيه ، ويعيش الحاضر مستفيدًا من دروس الماضى حتى لا يكرر أخطاءه أو أخطاء السابقين ، ويخطط للمستقبل بهدف أن يكون أفضل من الماضى والحاضر معًا.

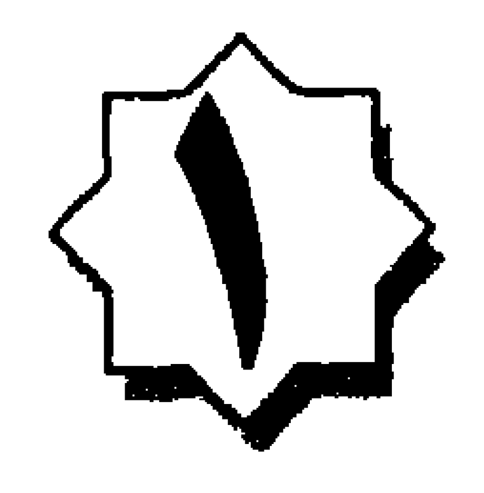
إن قضية الوقت قضية حياتية مصيرية . ومن هنا فنحن فى أشد الحاجة إلى عودة الوعى بقيمة الوقت وأهميته البالغة فى حياة الناس أفرادًا وجماعات ، حتى ننهض بأمتنا ونتقدم بمجتمعاتنا . فنحن نعيش اليوم فى عصر السباقات العالمية . ولم يعد لدينا وقت لإضاعته فيما لا يفيد ، وإلا فإن الزمن سيتجاوزنا ويسقطنا من حسابه، والتاريخ لن يرحمنا ، وهذا مصير لا يرضاه عاقل لنفسه أو لأمته ، ولا يتفق مع ما ورثناه من رصيد حضارى ضخم لا يزال شاهدًا على ما قدمه أسلافنا من عطاء غير محدود فى جميع المجالات .

* * *

الفصل الثالث

قضايا معاصرة فى ضوء تعاليم الإسلام

- الحضارة الإسلامية فى مواجهة التحديات المعاصرة
- الأمن المجتمعى فى الإسلام
- الحفاظ على حرمة أماكن العبادة
- التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى
- الشباب وبناء المستقبل
- التواصل الإنسانى
- التواصل المعرفى بين التراث والمعاصرة
- ظاهرة الزواج العرفى



الحضارة الإسلامية فى مواجهة التحديات المعاصرة

تمهيد :

إن التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر تحديات كثيرة ومتنوعة وغير مسبوقة ، وذلك بالنظر إلى ما طرأ على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها . . وذلك فضلاً عن الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات وتيار العولمة الجارف الذى يجتاح العالم المعاصر .

ومما يزيد الأمور تعقيدًا أمام عالمنا الإسلامى فى ظل هذه الظروف والمتغيرات ما يعانيه من أزمات طاحنة ومشكلات خانقة متعددة الجوانب . ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات على جميع المستويات فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده يخيم على العالم الإسلامى . وهذا التخلف واقع لا يجوز إنكاره على الرغم من القشرة الحضارية الظاهرية المستوردة التى يراها المر ء فى أنحاء شتى من العالم الإسلامى .

ولكننا فى الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر أن هذا التخلف الواضح ، وهذا الواقع المحزن ، منفصل عن النموذج الإسلامى الحضارى بمائة وثمانين درجة .

ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى . بل ظلت حتى يومنا هذا منشغلة بمحيط الدائرة ، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية ، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات ، واختلط لديها سلم الأولويات .فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات ، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة ، وضاعت أصوات

العقلاء من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى كثير من الأحيان بشدة حدتها وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم .وواقع التخلف المشار إليه يمثل بالنسبة لعالمنا الإسلامى مشكلة حضارية بالدرجة الأولى . ويمكن القول بأن هذه المشكلة قد بدأت فى الظهور عندما بدأ التراجع الحضارى فى الأمة الإسلامية فى أعقاب زوال الوجود الإسلامى فى الأندلس أوائل العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى . ولم تتعاف الأمة من هذا التراجع الحضارى حتى الآن .

مظاهر التخلف :

وهذا التخلف الحضارى الراهن والذى لا تخطئه العين فى عالمنا الإسلامى ، يتجلى فى العديد من المظاهر التى تشمل جميع المستويات الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها . وفى مقدمة هذه المظاهر – فى رأينا – إهمال العلم والحضارة ، حيث لم يعد العلم ولا التقدم الحضارى يشكل أولوية فى قاموس الأمة الإسلامية .والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة ، ولكن يكفينا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن نسبة الأمية فى العالم الإسلامى تزيد على ٤٦ ٪ طبقًا للبيانات الصادرة عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة .

ومن الطبيعى أن تجر الأمية وراءها انتشار الخرافات والأوهام وتغييب العقل واختزال الإسلام فى مجرد أداء الشعائر المعروفة ، والاهتمام المفرط بالشكليات بعيدًا عن جوهر الدين ومقاصده . وقد كانت نتيجة ذلك كله انتشار ظواهر التشدد والتطرف والغلو فى الدين . وترتب على هذا التشدد فى أمور الدين تحول سلبى فى السلوك حيث حلت الفظاظة والغلظة والعنف فى التعامل محل الرحمة التى هى السمة الأساسية للإسلام ، وانتشرت تهم الكفر والتحلل من الدين ضد كل من يُعتقد – صوابًا أو خطأً – أنهم متساهلون فى أمور الدين ، أو من لهم وجهة نظر مخالفة لهؤلاء المتشددين . وغنى عن البيان أن نشير إلى أن هذا التيار المتشدد كان وراء ظهور موجات الغلو والتطرف والتعصب والإرهاب التى جلبت على الأمة الإسلامية عواقب وخيمة لا تزال تعانى منها حتى اليوم .

وقد كان لذلك كله أثر سلبى على العلاقات بين شعوب الأمة الإسلامية على جميع المستويات وبصفة خاصة على المستويين السياسى والاقتصادى . فقد أصبح التشرذم هو السمة الغالبة على علاقات الأمة الإسلامية فيما بينها ، وأصبح التضامن الإسلامى مجرد شعار نردده فى المناسبات ، ولكنه شعار يخلو من أى مضمون . ويكفى أن نشير إلى أن حجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامى لا يتجاوز نسبة ٨ ٪ من حجم تجارة هذه الدول مع بقية دول العالم . والتعاون فى بقية المجالات الأخرى ليس أسعد حظًا من ذلك .

ومن هنا فإنه ليس بالأمر المستغرب أن نرى العالم الإسلامى - الذى يشكل سكانه خُمس سكان العالم - قد أصبح مسرحًا مباحًا للصراعات المحلية والعالمية ومطمعًا للقوى الكبرى ، وأصبح المسلمون فى عالم اليوم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . فمعظم مشكلات العالم اليوم تجد لها مرتعًا خصبًا فى قلب العالم الإسلامى ، ومن أهمها قضايا فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان وتشاد ولبنان وباكستان وغيرها . وذلك بالإضافة إلى مشكلات أخرى بين بعض البلاد الإسلامية ذاتها فى مناطق مختلفة من العالم ، ناهيك عن العديد من مشكلات الأقليات الإسلامية فى مختلف القارات . وأصبح الآخرون يتحكمون فى مصائر الأمة الإسلامية ، ويقررون وحدهم فى غيبة المسلمين أو حتى فى حضورهم ما يشاءون فى أخص خصوصيات هذه الأمة ، الأمر الذى ينطبق عليه قول جرير :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

وفى خضم هذه الأوضاع التى يعيشها عالمنا الإسلامى نجد هناك اتجاهًا قويًا لتعليق كل أخطائنا وعيوبنا وتخلفنا على شماعة الآخرين دون أن نلتفت لنقد أنفسنا والتعرف بطريقة موضوعية على مواطن الخلل لدينا . وغياب النقد الذاتى من شأنه أن يساعد على تغييب وعينا بسوء أوضاع عالمنا الإسلامى .

العالم الإسلامي والآخر :

ولا شك في أن هذه الأوضاع الداخلية كان لها أثرها السلبي على صورة الإسلام والمسلمين في الخارج ، وبخاصة في عالمنا المعاصر . فنحن لا نعيش وحدنا في هذا العالم ، ولا نستطيع أن نعزل أنفسنا عما يدور حولنا في عالم اليوم من متغيرات، وتيار العولمة المعاصر يحمل إلينا الكثير من التحديات التي لا مفر أمامنا من مواجهتها .

فالعولمة السياسية تتحدى أمتنا بما تحمله من شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية السياسية ، والعولمة الاقتصادية تتحدى أمتنا بما تحمله من إزالة الحواجز أمام تدفقات التجارة والسلع والخدمات والمال والبرامج ، وبما تحمله أيضًا من تكتلات اقتصادية كبرى وشركات عملاقة متعددة الجنسيات ومؤسسات مالية ودولية . وهذا كله جعل البعض في الشرق وفي الغرب يصف هذه العولمة الاقتصادية بأنها عولمة متوحشة تجعل الغني يزداد غنى والفقير يزداد فقرًا .

أما العولمة الثقافية فإنها تتحدى الأمة بفرض ثقافتها وقيمها وعاداتها الاجتماعية ، الأمر الذي يهدد ثقافتنا بالذوبان في ثقافة الأقوى ويطمس بالتالي هويتنا الإسلامية وشخصيتنا الحضارية .

وهذا كله يعني أن أمتنا قد أصبحت محاصرة من كل جانب، وقد تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها- كما ورد في الحديث الشريف[1]- لا بسبب قلة أعداد المسلمين ، بل بسبب كثرتهم العددية الضعيفة التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث المشار إليه بغثاء السيل . وقد شجعت هذه الأوضاع الآخرين للترويج لما يسمى بالفوضى الخلاقة في عالمنا الإسلامي ، وهذه الفوضى الخلاقة

(١) رواه أحمد في مسنده .

المزعومة ليست إلا دعوة لإثارة الفتن والعصبيات والانقسامات فى أوساط المسلمين.

سبيل الخلاص :

وإذا كنا قد حاولنا أن نشخص على سبيل الإجمال - من وجهة نظرنا - أهم أدواء الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر والتحديات الداخلية والخارجية التى تتعرض لها ، فإن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : ما السبيل إلى إنقاذ الأمة من هذه الأزمة الخانقة ؟

يقول خصوم الإسلام : إن هذا الدين هو سبب تخلف المسلمين . ومادام المسلمون متمسكين بهذا الدين فلن تقوم لهم قائمة . ويقدم هؤلاء النصح للمسلمين بأن يفصلوا فصلاً تامًا بين الدين والحياة ، ويبعدوا الدين تمامًا عن التدخل فى أمور الدنيا ، ويتبعوا فى هذا الصدد النموذج الغربى فى تهميش الدين ، هذا النموذج الذى أخذ بيد الغرب إلى الأمام ، وجعله اليوم فى مقدمة دول العالم حضارة ورقيًا . وقد يكون الأخذ بالنموذج الغربى حتميًا فى حالة ما إذا لم يكن لدى المسلمين خيارات أخرى تستند إلى ما لديهم من تراث دينى وحضارى عريق .

وفى هذا المقام نود أن نؤكد أن الموقف الإسلامى من الحضارات الأخرى موقف واضح لا لبس فيه . فالإسلام لا يمنع أتباعه من الاستفادة من تجارب الآخرين وعلومهم وخبراتهم . وإذا كانت الحضارة الحديثة قد قامت على العلم . فإن العلم فى الإسلام - كما هو معروف - يعد فريضة على كل مسلم ومسلمة - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف[1] - كما أن الحضارة فى الإسلام تأخذ أيضًا حكم العلم فتكون هى أيضًا فريضة ، لأن الطلب الإلهى بإعمار الأرض فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2] لا يتحقق إلا بالعلم . ومن هنا

(١) رواه ابن ماجه فى سننه .

(٢) سورة هود : ٦١ .

وجدنا أن الآيات الأولى من الوحى الإلهى على محمد ﷺ كانت منصبة على مفاتيح الحضارة .

وقد فتح القرآن الكريم باب البحث العلمى على مصراعيه أمام كل الناس ، ولم يضع حدودًا ولا سدودًا فى هذا الصدد . ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

وهذا يعنى أن السموات والأرض وما بينهما مجال للبحث والدراسة . وختام الآية المشار إليها فى غاية الأهمية لأنه يشير إلى أن أبواب البحث العلمى لن تفتح إلا « لقوم يتفكرون »، أى لهؤلاء الذين يستخدمون عقولهم ويجندون إمكاناتهم الفكرية للبحث والدراسة بصرف النظر عن معتقداتهم وأجناسهم ولغاتهم . ومن المعلوم أن التفكير يعد من القيم الحضارية الإسلامية التى أكد عليها القرآن الكريم فى كثير من آياته لأنه الوظيفة الأساسية للعقل الإنسانى الذى يعد أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان . ومن هنا لم يكن من قبيل المبالغة ما ذهب إليه المرحوم الأستاذ عباس العقاد من وصف التفكير بأنه فريضة إسلامية .

ولا شك فى أن مبدأ الاجتهاد فى الإسلام يرتبط أشد الارتباط بالتفكير لأنه يعنى أعمال العقل فى فهم المسائل والبحث عن حلول ملائمة لها على المستويين الدينى والدنيوى . وقد كان الاجتهاد هو الآلية التى أقرها الإسلام للتجديد المتواصل فى الحياة على جميع المستويات .

التفاعل الحضارى :

وقد كان لهذه المبادئ والتعاليم الإسلامية أثرها العميق فى الانفتاح الحضارى للمسلمين ، كما كانت حافزًا لهم على التواصل مع الحضارات الأخرى . فالحكمة

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها - كما ورد فى الحديث الشريف[1] - . وطلب العلم لا يقتصر على زمان أو مكان محددين . فنحن مأمورون أن نطلب العلم حتى ولو كان فى أقصى مكان فى الدنيا - كما جاء فى الأثر الإسلامى المعروف : - « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » ، أو حتى لو كان هذا العلم فى يد من لا يدينون بديننا .

وقد جعل الفيلسوف العظيم ابن رشد من الاطلاع على ما لدى الآخرين واجبًا شرعيًا ، ولكنه أوصانا أن تكون لنا فى ذلك نظرة نقدية تميز بين النافع والضار . وفى ذلك يقول : «ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ».

وقد كان ذلك هو النهج الذى سارت عليه الحضارة الإسلامية ، فقد تفاعلت مع الحضارات السابقة عليها وأفادت منها دون حرج وذلك من منطلق أن التراث الإنسانى - الذى هو ملك للإنسانية كلها - يعتمد على الأخذ والعطاء ، وأنه لا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث .

وإذا كنا قد سبق أن أكدنا أن مشكلة المسلمين الأولى هى مشكلة حضارية فى المقام الأول فإن التغلب عليها يجب أن يكون فى مقدمة أولويات أمتنا الإسلامية ، فليس هناك أمامها خيار إلا خيار العلم والبناء الحضارى . ويمكن القول بأن البناء الحضارى الذى يعنى التقدم على المستويين المادى والروحى قد أصبح اليوم بالنسبة للمسلمين فرض عين على كل مسلم ومسلمة كما هو الحال بالنسبة للعلم . وهذا أمر لم يعد ترفًا ، وإنما هو قضية مصير . وعلى المسلمين أن يدركوا ذلك جيدًا وإلا فإن الزمن سيتجاوزهم ويطوى صفحتهم . وهذا أمر لا يرضاه عاقل لأمته .

وحتى نصل حاضر أمتنا بماضيها العريق فإننا فى حاجة إلى العودة إلى التواصل مع أصول ومقومات حضارتنا الإسلامية فإن ذلك من شأنه - إذا أحسن توظيفه -

(١) رواه الترمذى فى سننه .

أن يفسح المجال مرة أخرى أمام المسلمين ليستعيدوا دورهم الحضارى المفقود ويحتلوا مكانهم اللائق بهم فى عالم اليوم ، وبذلك يتم التمكين لهم فى الأرض ، وبالتالى يفرضون احترامهم على الآخرين ، بل إن الإسلام قد جعل التمكين فى الأرض سبيلاً إلى التمكين للدين وتحقيق فرائضه وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾[1] .

ويمكن القول بناءً على كل ما سبق بأن الحضارة فى التصور الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا ، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض ، وبالتالى يكون فى صلة مستمرة بالله خالق الكون ، وهذه الصلة كفيلة بأن تصحح له دائمًا مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق .

المسلمون والعولمة:

ومن البديهى أن قوة المسلمين الحضارية ستجعلهم قادرين على مواجهة كل التحديات الخارجية التى أتت بها العولمة المعاصرة . ونحن ابتداءً لسنا مع أو ضد العولمة ولكننا مع النظرة النقدية الواعية للعولمة ولغيرها من التيارات الوافدة . وأعتقد أن الضرورة تحتم أن يكون للمسلمين نظرتهم النقدية التى تتعمق فى بحث القضايا بكل أبعادها ، وتحللها من جميع جوانبها ، وتخط لنفسها طريقًا لا يتجاهل الواقع من ناحية ، ولا يندفع دون وعى نحو كل دعوة جديدة من ناحية أخرى .

وأود أن أشير هنا إلى بعض الملاحظات المبدئية .

أولاً : الإسلام كدين ليس تيارًا فكريًا أو ظاهرة وقتية حتى يخشى عليه من التيارات الفكرية الوافدة . إنه دين له جذور ضاربة فى أعماق الكيان الإسلامى ، وأصول راسخة لا تستطيع أن تنال منها التيارات الوقتية الطارئة ولا يُخشى

(١) سورة الحج : ٤١ .

على هذا الدين من أى تيارات داخلية أو خارجية مهما كانت قوتها طالما فهم المسلمون هذا الدين فهمًا صحيحًا ، وأدركوا إدراكًا واعيًا أهدافه النبيلة وغاياته السامية وجوهره الحقيقى .

ثانيًا : العولمة واقع لا يجدى معه أسلوب الرفض . إنه تيار بدأ بالمجال الاقتصادى ثم امتد إلى المجالين السياسى والثقافى ، بالإضافة إلى المجال الإعلامى . وهذا الواقع يعد حقيقة ماثلة أمامنا لا مجال لإنكارها .

ثالثًا : لا يجوز لنا أن نتجاهل أننا لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ، وأننا نعيش الآن فى عصر ثورة الاتصالات والمعلومات ، والثورة التكنولوجية ، وفى عصر السماوات المفتوحة ، وهذا يعنى أنه لا مجال للانعزال أو التقوقع .

وإذا كانت العولمة تهدف إلى إزالة الحواجز بين الأمم والشعوب - كما سبق أن أشرنا - ، وتحاول بطرق مختلفة فرض قيم معينة وحضارة معينة هى قيم الحضارة الغربية ، أو قيم الأقوياء ، فإن ذلك لا ينبغى أن يصيبنا بالفزع وفقدان التوازن ، لأن ذلك لن يجدى فتيلاً ، ولن يتيح لنا الفرصة للتفكير السليم . فنحن - كما سبق أن أشرت - أمام واقع ، وواجبنا هو أن نتعامل معه . وهذا الواقع ليس كله شرًا ، وليس كله خيرًا . ومن هنا ينبغى التعامل معه على هذا الأساس .

إن العولمة - فى رأينا - تمثل بالنسبة للمسلمين دعوة غير مباشرة إلى ممارسة النقد الذاتى ليعيدوا النظر فى حساباتهم ، ويعيدوا ترتيب البيت من الداخل ، وهذه الدعوة تأتى بطبيعة الحال دون قصد من أصحاب العولمة . وقد يرى البعض أن العولمة تمثل استفزازًا للمسلمين ، ونرى أنه استفزاز مفيد إذا أحسن المسلمون التعامل معه بأسلوب عقلانى بعيد عن التشنج والانفعال .

إن القضية - فى رأينا - تدور حول أسلوب التعامل مع هذا الواقع الجديد والتفاعل معه بطريقة سليمة . أما إذا تجاهلنا الواقع واكتفينا بعبارات الرفض والشجب والإدانة والاستنكار لأساليب الهيمنة والسيطرة وفرض النظم

الغربية ...إلخ - فإننا بذلك سنظل ندور حول أنفسنا مكتفين بدفاع الحناجر . وهذا أمر لا يرضاه مسلم عاقل . ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن العالم الإسلامى يملك كل أسباب القوة الاقتصادية ، فهو عالم غنى بموارده الطبيعية ، وموقعه الجغرافى المتميز، وثروته البشرية ، ولا تنقصه الكفاءات العلمية والخبرات الاقتصادية ، وكل ما يحتاجه هو الإرادة الفاعلة لتحقيق الانطلاقة الاقتصادية المرجوة .

إن الأمر إذن بيدنا - نحن المسلمين - وعلينا أن نختار لأنفسنا الطريق القويم المحقق للأهداف ، وعلينا أن ندرك أن الإسلام منذ اللحظة الأولى كان ولا يزال دعوة عالمية للناس جميعًا . ومن هنا لفت نظرهم إلى وحدة الأصل الإنسانى . فالناس جميعًا إخوة . وإذا كانوا مختلفين فى أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم فإنهم - على الرغم من ذلك - ينتسبون جميعًا إلى أصل إنسانى واحد .

وهذه الاختلافات - فى ضوء هذه الوحدة الإنسانية الراسخة - من شأنها أن تكون منطلقًا للتعارف والتآلف والتعاون ، لا للتنازع والتخاصم والشقاق - كما يقرر القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾[1] .

وهكذا كانت دعوة الإسلام دعوة عالمية إلى الأخوة الإنسانية فى كل زمان ومكان ، ويمكن القول بأن الإسلام يعد دين العولمة الحقيقية ، وإن كان هذا القول لن يروق لفريقين على طرفى نقيض ، أحدهما سيعتبر ذلك محاولة لأسلمة العولمة ، وثانيهما سيعده دعوة إلى تغريب الإسلام . وكلا الفريقين جاهز بشعاراته لخوض معركة وهمية لا نريد أن نشغل أنفسنا بها .

إن العالم يسير من حولنا بسرعة مذهلة ، والمتغيرات على الساحة الدولية لا تكف عجلتها عن الدوران . وقد استطاع الغرب أن ينشر العولمة بإيجابياتها وسلبياتها بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية ، وثورة المعلومات والاتصالات

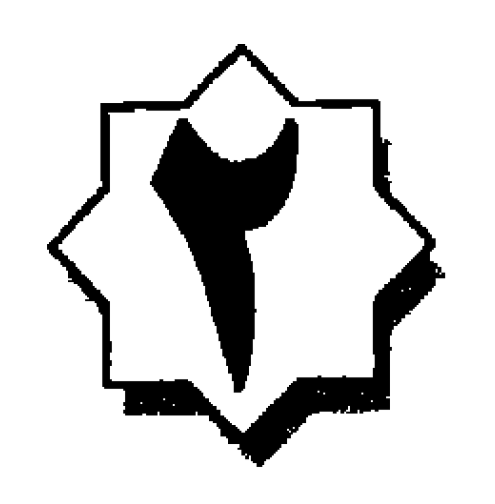
(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ، والبث التليفزيونى المباشر ، وامتلاك ناصية المعرفة والمعلومة التى أصبحت اليوم مصدر القوة . وكل يوم يمضى يزيد من اتساع الفجوة بين المسلمين وبين العالم المتقدم . ولا خلاص لنا إلا بالأخذ بكل أساليب التطور العلمى والتقنى والحضارى ، والعمل الجاد المنتج على جميع المستويات ، والمشاركة الفعالة فى تقرير مصير هذا العالم الذى نعيش فيه ، والإسهام فى استعادة التوازن المفقود فى حضارة العصر . وإلا فلسنا جديرين بالحياة . ولم يعد لصياح الحناجر ورفع الشعارات الجوفاء أى معنى .

لقد أضاع المسلمون الكثير من عمر الزمن فى تفاهات الأمور ، والآخرون يصارعونهم فى عظائم الأمور ، والغالبية من المسلمين غير واعين بمتغيرات العصر ، وغير مدركين لأبعاد المخاطر التى تحيط بهم من كل جانب ، لأنهم مشغولون بقضايا هامشية ، ومهتمون ببعض المظاهر الشكلية فى الدين ، والآخرون يزلزلون فى جذورهم وهم لا يشعرون .

إن الأمر جد خطير ، وعلى مفكرى المسلمين فى كل مكان ألا يكفوا عن الدعوة إلى إيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين لتنهض الأمة وتشارك فى مسيرة التقدم على المستويين المادى والروحى ، وتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم .

* * *



الأمن المجتمعى فى الإسلام[1]

مفهوم الأمن من المفاهيم المحورية فى حياة الإنسان . لقد كان ذلك هو الحال فى الماضى ؛ ولا يزال كذلك فى الحاضر وسيظل فى المستقبل أيضًا . فالأمن ركيزة أساسية لكل تحركات الإنسان فى مختلف المجالات . وبدون الأمن تختل الموازين وتضطرب حركة الحياة وتتوقف عن الانطلاق نحو تحقيق الآمال للأفراد والجماعات .

ومن هنا تحرص الأمم فى كل زمان ومكان على توفير الأمن لشعوبها حتى تستطيع الانطلاق إلى آفاق التقدم والرقى . وعندما نتحدث فى هذا المؤتمر عن الأمن فإننا نقصد الأمن بمفهومه الشامل لكل جوانب الحياة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، وعلى مستوى الأفراد والجماعات .

ويرتبط مفهوم الأمن فى الشريعة الإسلامية بالحقوق الأساسية للإنسان والتى بدون الحفاظ عليها لا يمكن الحديث عن الأمن فى أى صورة من الصور ، وتتمثل هذه الحقوق الأساسية للإنسان فى المقاصد الخمسة للشريعة الإسلامية . وعلى رأس هذه المقاصد حماية حق كل فرد فى المجتمع فى الأمن على حياته . فالإنسان خليفة الله فى الأرض ، كرمه وفضله على بقية المخلوقات وكلفه بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها . وحتى يستطيع أن يتحمل مسئولياته التى كلفه الله بها فى هذه الحياة لابد أن يكون آمنًا على حياته فى المقام الأول وآمنًا على عدم المساس بها بأى شكل من الأشكال .

---

(١) كلمة افتتاحية فى المؤتمر العشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى ١٦/ ٣/ ٢٠٠٨ .

ويرتبط بضمان حق الحياة للإنسان مقاصد أخرى أساسية تعد أيضًا شروطًا أساسية لا غنى عنها لتوفير الأمن للأفراد والجماعات . وتتمثل هذه الشروط فى الحفاظ على العقل وتمكينه من أداء دوره الفاعل فى حياة الإنسان ، وكذلك الحفاظ على عقيدة الفرد وعدم المساس بها أو العدوان عليها ، فهى من أخص خصوصياته التى من شأنها أن توفر له الأمن النفسى والاطمئنان الداخلى . ويؤكد الإسلام أيضًا على حماية الملكية الخاصة للأفراد والجماعات وعلى حماية الأسرة التى تعد الخلية الأساسية لتكوين المجتمعات على نحو سليم .

ومن ذلك يتضح أن الأمن يتسع مفهومه ليشمل الأمن النفسى والروحى والذى يطلق عليه القرآن الكريم السكينة ، بمعنى الاطمئنان النفسى الذى يقضى على كل شكل من أشكال القلق من النفوس ، وذلك فضلاً عن الأمن المادى أو الخارجى . وقد أكد القرآن الكريم على الأمن فى هذين الجانبين فى قوله تعالى متحدثًا عن أهل مكة : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1] .

ومقصد الإسلام من ذلك كله هو سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة على السواء. وإذا اطمأن الإنسان وزال عنه القلق أصبح إنسانًا سويًا قادرًا على الإسهام بشكل فاعل فى توفير الأمن للمجتمع . فأمن المجتمع من أمن أفراده . وتحقيق الأمن المجتمعى على المستويين المادى والروحى هو الهدف الأسمى لتعاليم الإسلام .

ولم تقتصر تعاليم الإسلام على توفير وضمان الأمن المجتمعى للمسلمين فقط، بل إن مظلة هذا الأمن المجتمعى تمتد لتشمل كل من يعيش فى بلاد المسلمين بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه . فهؤلاء يشكلون جزءًا أساسيًا من المجتمع لهم جميع الحقوق وعليهم نفس الواجبات . وهذا تطبيق لمبدأ المواطنة والتعددية الدينية والثقافية التى وضع أساسها النبى عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة

(١) سورة قريش : ٣ ، ٤ .

وأثبتها فى صحيفة المدينة التى تعد أول وثيقة إسلامية تضمن الحقوق للمواطنين جميعًا مسلمين وغير مسلمين .

واهتمام الإسلام بذلك كله هو اهتمام فى الوقت نفسه بأمن واستقرار هذا العالم الذى نعيش فيه . فالمجتمع الإسلامى إذا توافرت له كل أسباب الأمن سيكون من غير شك سندًا قويًا ودعمًا أكيدًا للأمن واستقرار هذا العالم . فالأمن فى المجتمع الإسلامى لا يمكن فصله عن الأمن فى المجتمعات الأخرى . فدوائر الأمن متداخلة وبخاصة فى عصرنا الحاضر عصر العولمة . فما يحدث اليوم فى مكان ما من العالم ينعكس أثره سلبًا أو إيجابًا ، عاجلاً أو آجلاً فى كل مكان فى العالم .

ومن هنا لم يعد التقوقع أو الانعزال عما يجرى فى عالمنا المعاصر أمرًا ممكنًا . فكلنا فى النهاية فى زورق واحد ومصيرنا جميعًا مصير واحد مشترك . والأخطار التى تهدد عالمنا تمس بشكل أو بآخر بقية أجزاء العالم .

وفى تشبيه رائع يصور النبى عليه الصلاة والسلام البشرية كلها وقد اجتمعت فى سفينة ، بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . فكان الذين فى أسفل السفينة إذا احتاجوا إلى الماء صعدوا إلى أعلاها . وبعد أن تعبوا من الصعود والهبوط ومضايقة الآخرين فكروا فى إحداث خرق فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن هؤلاء لو تركوا يفعلون ما يشاءون هلك الجميع وغرقت السفينة[1] . ومن هنا فإنه لابد من التعاون بين الجميع من أجل إنقاذ حياتهم جميعًا . وهذه دعوة إلى التضامن بين البشر جميعًا من أجل درء الأخطار التى تهدد العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعًا .

وتعد الزكاة فى المجتمع الإسلامى أحد العوامل المهمة فى تحقيق التضامن والتكامل بين أفراد المجتمع ، وتسهم بالتالى بدور فعال فى تحقيق الأمن المجتمعى المنشود . فمن المعروف أن من خصائص الإسلام التى ينفرد بها عن جميع الديانات

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

والشرائع أنه ليس دينًا روحيًا فقط يصرف الإنسان عن دنياه إلى أخراه ، وإنما هو دين اجتماعى فى المقام الأول يسعى إلى تحقيق السعادة للإنسان فى الدنيا والآخرة على السواء . ومن هنا فإنه يوجه الإنسان إلى العمل من أجل الدنيا كأنه يعيش أبدًا وإلى العمل من أجل الآخرة كأنه يموت غدًا . والقرآن الكريم يشير إلى أن العطاء الإلهى والثواب يشمل ثواب الدنيا والآخرة معًا فى قوله تعالى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[1] .

وقد حرص الإسلام على إتاحة كل السبل التى تحقق هذه الأهداف ، فاتجهت تشريعاته إلى تهذيب الفطرة الإنسانية وإلى تنظيم شئون المجتمع . ونظرًا إلى أنه من سنن الله فى الكون أنه قد خلق الناس مختلفين على الرغم من اتفاقهم فى الجوهر ، فإن هذا الاختلاف ينسحب على العديد من الصفات ، كما يشمل التفاوت فى الغنى والفقر لحكمة أرادها الله تعالى . فالبعض منهم يعمل للآخرين ويستمد رزقه من رزقهم ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2] .

وقد حاولت الأنظمة البشرية على اختلاف توجهاتها علاج الفروق بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع ، وخاضت من أجل ذلك العديد من التجارب ما بين رأسمالية واشتراكية أو خليط منهما معًا ، ولكنها جميعًا لم تحقق للإنسان السعادة المنشودة . أما الإسلام فقد وضع العلاج الشافى والناجع لهذه المعضلة المزمنة . وجعل العلاج دينيًا يتعبد الناس به تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى . وقد تمثل العلاج الإلهى فى نظام الزكاة .

(١) سورة النساء : ١٣٤ .

(٢) سورة الزخرف : ٣٢ .

والزكاة فى الإسلام نظام فريد ارتفع به الإسلام ليجعله فريضة من فرائضه وركنًا ركينًا من أركانه ليقيم بذلك التوازن بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع .

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن الزكاة التى يدفعها الغنى للفقير ليست منّة أو تفضلاً وإنما هى حق معلوم قرره الدين - كما يقول القرآن الكريم : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[1] .

وهكذا نجد أن الزكاة من شأنها أن تحقق التكافل الاجتماعى وتزيل الحسد والحقد من نفوس الفقراء ضد الأغنياء .

ولو أدى المسلمون فى جميع أنحاء العالم الزكاة عما أنعم الله به عليهم من أموال إلى مستحقيها فى المجتمع لما وجدنا هناك فقيرًا يشكو من البؤس والحرمان .

وقد تعقدت أمور الحياة فى العصر الحاضر وأصبح العالم الإسلامى يشكو من الزيادة الرهيبة فى أعداد السكان الذى وصل إلى مليار ونصف مليار مسلم ، ويشكو بالتالى من انخفاض مستوى المعيشة وازدياد الهوة بين الأغنياء والفقراء . ولم يعد أمام العالم الإسلامى لحل هذه المشكلات الحياتية التى يعيشها إلا اللجوء إلى الحل الذى عرضه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا لتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع وتحقيق الأمن والاستقرار فى أقطاره . وهذا الحل يتمثل فى نظام الزكاة الذى لو أحسن تنظيمه واستثماره لتغيرت الصورة تمامًا فى عالمنا الإسلامى .

وكما يحرص المسلمون على أداء الصلاة فإن عليهم أيضًا أن يدركوا أن الزكاة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصلاة . ولهذا تقرن الكثير من آيات القرآن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة إشارة إلى أهميتها . وتكفل الله تعالى ببيان مصارفها فى آية كريمة من كتاب الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

(١) سورة المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] . وبين النبى صلى الله عليه وسلم عمليًا ونظريًا الأصناف التى تجب فيها الزكاة .. كما بين عليه الصلاة والسلام من تجب عليه ، والمقدار الواجب إخراجه .

وحبذا لو قامت مؤسسات أهلية فى عالمنا الإسلامى للنهوض بعبء جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها .

والأمر يحتاج إلى المزيد من التوعية . فالزكاة فضلاً عن أنها تطهير وتزكية للمزكى - كما يقول القرآن الكريم - فإنها من ناحية أخرى كفيلة بحماية ماله وضمان نمائه ولن تنقصه أبدًا كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «**ما نقص مال من صدقة**»[2] . والله سبحانه وتعالى قد وعد المحسنين الذين يؤدون زكاتهم بمضاعفة الأجر لهم أضعافًا مضاعفة فى الدنيا والآخرة على السواء . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] .

* * *

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

(٢) رواه الترمذى فى سننه .

(٣) سورة البقرة : ٢٦١ .



الحفاظ على حرمة أماكن العبادة[1]

أود فى البداية قبل أن أتحدث عن مشروع القانون المعروض أن أوضح نقطة مهمة تبين الفرق بين ما أثير فى بعض وسائل الإعلام من الخلط بين حرية التعبير ومشروع هذا القانون .

مشروع القانون المعروض عنوانه (الحفاظ على حرمة أماكن العبادة) وهذا يعنى صيانتها من العبث بها تحت أى مسمى من المسميات ، وذلك حتى تستطيع أن تؤدى رسالتها الدينية على خير وجه . وإذا كانت حرية التعبير مكفولة فى الدستور بنص المادة ٤٧ وينظمها القانون فإن حرية ممارسة الشعائر الدينية يحميها الدستور أيضًا فى المادة ٤٦ ، ولا يجوز أن يكون هناك تعارض بينهما ، فحرية ممارسة الشعائر الدينية فى أماكن العبادة تعنى عدم وجود أى شكل من أشكال الإزعاج أو التشويش يمكن أن يخل بهذه الممارسة للشعائر الدينية عن طريق التظاهر فى المساجد أو بأى شكل آخر. إننا هنا إذن أمام مجالين مختلفين لا يجوز الخلط بينهما ، فأحدهما أمر دنيوى والثانى أمر دينى . وكل له دائرة اختصاص تختلف عن الأخرى .

ومن هنا فإن منطلقنا فى هذا المشروع هو الدين وما يقرره فى ذلك اعتمادًا على نصوص صريحة واضحة لا تقبل التأويل .

إن أماكن العبادة لها مهمة أساسية هى التعبد لله وحده ، هذا التعبد الذى يعبر عن صلة حميمة بين الله والإنسان ، بين العابد والمعبود . وحتى تتهيأ الفرصة للإنسان للدخول فى هذه الصلة على نحو سليم فقد تقرر فى الأديان السماوية إقامة أماكن خاصة للعبادة تشعر الإنسان بالخشوع والخضوع لله ، يتعبد فيها العابد دون إزعاج أو تشويش على عبادته بأى شكل من الأشكال ، لأن أماكن العبادة هى بيوت الله التى لها حرمتها

---

(١) نص البيان الذى ألقيناه فى مجلس الشعب بمناسبة مناقشة مشروع قانون الحفاظ على حرمة أماكن العبادة.

وقداستها ، وعلى المؤمنين حمايتها وصيانتها مبنى ومعنى . ومن هنا قرر القرآن الكريم أن المساجد لله وحده فقال : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1] .

وعندما يدخل العابد فى صلة مع الله عن طريق الصلاة فإن القرآن يطلب منه عدم الجهر بصلاته حتى لا يشوش على غيره وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾[2] . فإذا كانت العبادة ذكرًا لله فلا يجوز أن يرفع صوته بالذكر أيضًا ، بل يجب أن يكون ذلك بصوت خفيض كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾[3] .

ومن أجل ذلك وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «**جنبوا مساجدكم خصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم**»[4] .

ومن المرويات عن رسول الله أيضًا فى هذا السياق أنه خرج يومًا إلى الناس فى المسجد ليخبرهم بموعد ليلة القدر فوجد رجلين يختصمان فى المسجد ، فكان ذلك سببًا فى حجب تحديد موعد ليلة القدر[5] .

وعندما توفى النبى عليه الصلاة والسلام واجه المسلمون أخطر قضية فى تاريخ الإسلام وهى اختيار خليفة للرسول . وكان يفترض أن يذهبوا إلى المسجد للتداول فى هذه القضية ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك واجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة لمناقشة الأمر الذى يستدعى بطبيعة الحال اختلافًا فى الآراء ورفعًا للأصوات . وهذا أمر لا يليق أن يتم فى المسجد .

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على نهج رسول الله . ولذلك عندما رأى عمر بن الخطاب رجلاً فى المسجد يرفع صوته نهره وقال له مستنكرًا : أتدرى أين أنت؟

---

(١) سورة الجن : ١٨ .

(٢) سورة الإسراء : ١١٠ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٠٥ .

(٤) رواه الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه ، ونصه : « أن رسول الله خرج يُخبر بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت ...» .

وقد سئل الإمام مالك عن رفع الصوت فى العلم فى المسجد فقال : لا أرى فى ذلك خيرًا .

ومن ذلك يتضح أن مهمة المسجد قد تحددت من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأفعال الصحابة . والنبى يقول : «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدى طالما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى**»[1] .

والنصوص الواردة فى هذا الشأن من القرآن والسنة ليست محلاً للاجتهاد . فلا اجتهاد مع النص كما هو مقرر فى علوم الشريعة .

ويضاف إلى ذلك كله بُعدٌ آخر فى غاية الأهمية ، وهو أن المترددين على المساجد للعبادة يعدون ضيوفًا عند الله فى بيته . ومن الآداب المرعية فى حياتنا العملية عند زيارتنا لبعضنا فى بيوتنا ألا نقدم على أى عمل من شأنه أن يغضب صاحب البيت أو يخل بآداب الضيافة . وإذا كان الأمر كذلك بين البشر فإن من غير المفهوم أو المعقول أن يصر البعض منا على الإخلال بآداب الضيافة عندما يكون ضيفًا عند الله فى بيته ، فى حين أنه لا يجرؤ على شئ من ذلك عندما يكون فى ضيافة أحد الناس .

لقد تعهد الله سبحانه وتعالى عندما يستضيف متعبدًا فى بيته أن يكرمه - كما جاء فى الحديث الشريف - الذى رواه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : «**المساجد بيوت الله فى الأرض وحق على المزور أن يكرم زائره**»[2] .

فهل يكون الرد على هذا الإكرام الإلهى بالإخلال بقدسية وحرمة بيوت الله؟ إن هذا أمر غير مقبول لا عقلاً ولا شرعًا ولا عرفًا .

لقد لاحظت وزارة الأوقاف منذ بضع سنوات وحتى الآن أن بعض المساجد تُنتهك حرمتها ويتخذها البعض مقرات للتظاهر لفترات طويلة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع مستخدمين فى ذلك مكبرات للصوت يحضرونها معهم ، ويستدعى هؤلاء مسبقًا بعض القنوات الفضائية وبخاصة تلك الفضائيات المتخصصة فى الهجوم على مصر، وذلك بقصد الدعاية والترويج لأفكار سياسية لا صلة لها بالدين، فضلاً عن الشتائم والهتافات التى لا تليق بأى حال من الأحوال أن تنطلق

(١) رواه الدارقطنى والبيهقى فى سننهما .

(٢) رواه الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد .

من بيوت الله . وقد وصل الأمر إلى الحد الذى أصبح السكوت عليه يعد مخالفة لتعاليم الدين .

فهل يعقل أن تصبح بعض المساجد وبخاصة الجامع الأزهر مثل حديقة هايد بارك فى لندن؟ إن هذا هو ما يحدث للأسف الشديد . وليس فيما أقول أيّ مبالغة ، فلديَّ عينات من بعض صور هذه التظاهرات فى الجامع الأزهر بالذات نشرتها بعض الصحف . أود أن أعرض على حضراتكم بعضًا منها :

١ - **مظاهرة بالشباشب فى الجامع الأزهر** (منشورة بجريدة الوفد فى ١٢/ ٨/ ٢٠٠٦م) .

٢ - **مظاهرة تحرق فيها الأعلام بالجامع الأزهر** (منشورة بمجلة أكتوبر ١٣/ ٨/ ٢٠٠٦م).

٣ - **مظاهرة للتنديد بإعدام صدام فى الجامع الأزهر** (منشورة بالجمهورية فى ٦/ ١/ ٢٠٠٧م) .

٤ - **مظاهرة للاحتفال بحزب الله اللبنانى ورفع أعلامه فى الجامع الأزهر** (منشورة بجريدة الوفد فى ١٩/ ٨/ ٢٠٠٦م)

وذلك فضلاً عن التطاول على العلماء الذين يقومون بالخطابة فى المسجد لأنهم لا ينصاعون لما يريده هؤلاء المتظاهرون قولاً أو فعلاً . وغير ذلك من أمثلة أخرى صارخة.

فهل هذا يتفق مع حرمة المساجد؟ وهل هذا يليق أن يحدث فى بيوت الله التى قرر القرآن الكريم أنها له وحده وأنه لا يجوز أن يذكر فيها اسم أحد غيره كما تقول الآية الكريمة : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[1] .

إن الأمر لا صلة له بحرية التعبير . ولا يعدو الخلط بين حرمة أماكن العبادة وحرية التعبير إلا قلبًا للحقائق وخلطًا للأوراق .

وقد يقال إن انطلاق ثورة ١٩١٩م كان من الجامع الأزهر . نعم ، لقد كان ذلك حدثًا استثنائيًا يمثل اجتماعًا من كل المصريين على رفض الاحتلال . ومع ذلك لم يكن التظاهر فى داخل المسجد بل خرجت الجموع إلى الشارع تعلن ثورتها ضد المحتلين لأرض مصر .

---

(١) سورة الجن : ١٨ .

وقد يقال إن الرئيس عبد الناصر خطب عقب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م فى الجامع الأزهر . نعم ، من حق الخليفة أو الحاكم أو رئيس الدولة شرعًا أن يقف خطيبًا على المنبر فى المسجد بهدف توحيد صفوف الأمة لمواجهة أخطر القضايا التى تهددها كما فعل الرئيس عبد الناصر ، ولكن الجامع الأزهر لم يتخذ حينذاك مكانًا للتظاهر . بل خرجت الجموع إلى الشارع لتعبر عن وقوفها صفًا واحدًا لمواجهة الذين دنسوا أرض مصر ومع ذلك لم يحدث هذا إلا مرة واحدة .

وقد يقال : إن المسجد على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت تعقد فيه مجالس التشاور فى الحرب والسلم ، ومجالس القضاء والعلم ، وغير ذلك من أنشطة أخرى . ونقول : نعم ، لقد كان ذلك يتم فى المسجد لأنه لم تكن هناك مؤسسات أو دواوين خارج المسجد ، وكان يتعذر إيجاد مكان آخر لمثل هذه الأنشطة ، فاقتضت الضرورة حينذاك عقدها فى المسجد .

أما الآن ومنذ عهد عمر بن الخطاب فقد تم تدوين الدواوين وتوزيع الاختصاصات على المؤسسات المختلفة ، وأصبح لكل منها مقرات خاصة بها . ومن ثم فإنه من غير المعقول مثلاً أن نغلق المحاكم ووزارات الدفاع والتربية والتعليم والتعليم العالى والمدارس والجامعات ، ونحول أعمالها إلى المساجد بحجة أن ذلك كان معمولاً به فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كما علينا أيضًا أن نغلق النوادى الرياضية ومراكز الشباب ونحول أنشطتها إلى المساجد بحجة أن النبى عليه الصلاة والسلام قد سمح ذات مرة فى أحد الأعياد للأحباش ببعض الألعاب فى المسجد .

إن القياس هنا على ما كان يحدث فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام أمر غير وارد إطلاقًا . فما كان يحدث حينذاك لم يكن يحدث تشويشًا أو أى شكل من أشكال الضوضاء والإزعاج فى المسجد ، فضلاً عن أن هناك فارقًا بين السماء والأرض بين ما كان يحدث على عهد رسول الله وما يقوم به البعض اليوم من مظاهرات صاخبة تحدث فيها أمور لا تليق بأى حال من الأحوال ببيوت الله ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن ما يحدث اليوم فى بعض المساجد يعد انتهاكًا صارخًا لحرمة دور العبادة ولا يتفق بأى حال من الأحوال مع الدين أو العقل أو الأعراف المرعية .

ومن هنا جاء التفكير فى وضع حد لهذا العبث ببيوت الله التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه وحده كما يقرر القرآن ذلك فى قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1] .

وما قلناه عن المساجد والحفاظ على حرمتها ينسحب بطبيعة الحال على دور العبادة المسيحية واليهودية . فكلها بيوت يذكر فيها اسم الله كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ ﴾[2] .

ومعنى الآية أنه لولا أن الله يسخر للقَوِىِّ المعتدى من هو أقوى منه لطغى فى الأرض وعم شره إلى الحد الذى يخرب فيه بيوت الله التى خصصت للعبادة وذكر الله . والمقصود بالصوامع الأديرة ، أما البيع فهى الكنائس ، وأما الصلوات فهى معابد اليهود والمساجد هى معابد المسلمين .

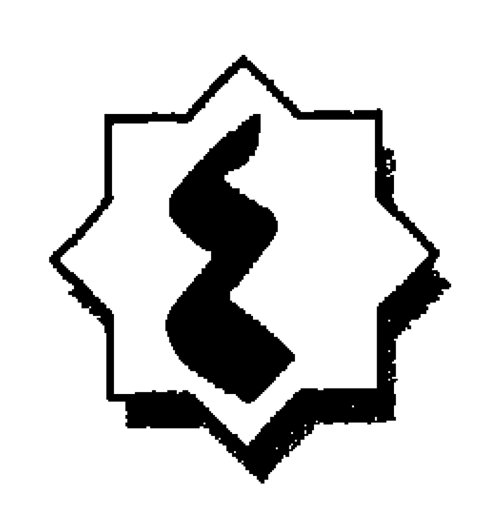
ومن هنا فالحفاظ على حرمة هذه الأماكن وصيانتها من العبث بها بأى شكل من الأشكال أمر واجب على كل من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهى أمانة فى أعناق الجميع .

وإذا كنا جميعا مسئولين عن حماية بيوت الله والغيرة على دين الله فإن الأمر يتطلب تشريعًا يؤكد ذلك ضمانًا لوضع الأمور فى نصابها الصحيح ، ووضع حد لما طرأ من خلل فى السنوات الأخيرة على هذا الالتزام الدينى المقدس .

* * *

(١) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة الحج : ٤٠ .



التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى[1]

١ ـ تمهيد : ضرورة التجديد

التجديد سنة الحياة ، والتغيير قانون الوجود ، ولا يوجد شئ مخلوق يظل على حاله إلى الأبد . والبديل للتجديد هو الجمود ، والجمود يعنى توقف الحياة فى هذا الكون عن الحركة ، وهذا أمر مستحيل لأن الحياة والحركة صنوان لا يفترقان .

والإسلام بطبيعته دين لا يتناقض مع سنن الحياة ، ولا يصادم الفطرة الإنسانية، ومن هنا يشجع الإسلام على التجديد المستمر لحركة المجتمع من أجل الوصول إلى الأفضل فى جميع مجالات الحياة .

ونظرًا لأن الإسلام فى تعاليمه يعد دينًا للحياة بكل أبعادها فإن التجديد الذى يطلبه الإسلام يعد أيضًا تجديدًا للحياة بكل جوانبها المختلفة ، أما التجديد فى الفكر الإسلامى فله صور عديدة ، فقد يكون تجديدًا شاملاً لجميع مناحى الحياة ، وذلك إذا أصاب التدهور مرافق الحياة كلها ، وقد يكون تجديدًا فى أحد الجوانب التى أصابها الجمود أو الخلل لمنع انتشار عدوى التدهور أو الخلل إلى جوانب أخرى ، وقد يكون تجديدًا مرحليًا ، وقد يكون جذريًا ، وكل صورة من هذه الصور لها ظروفها ومتطلباتها .

والتجديد الذى نعنيه ليس أمرًا عشوائيًا ، ولا ينطلق من فراغ ، وإنما هو تجديد يتوقف على فهم الواقع من أجل الكشف عما فيه من سلبيات للانطلاق من ذلك الفهم إلى تصحيح الأوضاع وتمهيد السبيل لإثراء الحياة بالمزيد من الإبداع الذى

---

(١) محاضرة ألقيت فى افتتاح الندوة المصرية التونسية المشتركة حول تجديد الخطاب الدينى فى قاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر (يونية ٢٠٠٨) .

يضيف جديدًا إلى دنيا الناس فى جميع المجالات ، الأمر الذى من شأنه أن يصلح لهم دينهم ودنياهم على السواء .

٢ ـ قضية إسلامية :

ولعله من نافلة القول أن نؤكد أن قضية التجديد فى الخطاب الدينى الإسلامى ليست قضية موسمية أو مؤقتة أو مستوردة من هنا أو هناك ، وإنما هى قضية إسلامية مستمرة ومتواصلة تتجدد بتجدد الزمان والمكان . ومن الطبيعى أن يكون الخطاب الدينى مواكبًا لظروف كل عصر ولما يدور فيه من متغيرات ، وذلك بالتجديد المستمر فى أسلوب الخطاب الدينى وفى مضمونه حتى يستطيع أن يصل بالرسالة التى يريد توجيهها للناس إلى عقولهم وقلوبهم . أما إذا انفصل الخطاب الدينى عن واقع الحياة ومتغيرات العصر فإنه لن يجد من يلتفت إليه أو يعيره اهتمامًا.

وأول من مهد لنا الطريق فى هذا الصدد هو النبى محمد عليه الصلاة والسلام حينما قال : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[1] . فالنبى أول من استخدم مصطلح التجديد فى هذا الصدد . وقد فسر علماؤنا السابقون التجديد بأنه إحياء السنة وإماتة البدعة . وعلى الرغم من أن هذا التفسير لا يعبر عن المقصود على نحو جامع مانع فإننا لو فهمناه جيدًا لوجدنا فيه علاجًا لكثير من أمور الدعوة الإسلامية والقضاء على الكثير من العادات الضارة والسلوكيات الخاطئة .

ولكن هناك بطبيعة الحال قضايا أخرى كثيرة ومتشعبة طرأت على حياتنا المعاصرة ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان ، فنحن فى عصر مختلف تمامًا عن العصور السابقة ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن يظل الدعاة فى العصر الحاضر يرددون ما كان يردده الدعاة قبل خمسين أو مائة سنة أو أقل أو أكثر ، فظروف الحياة متجددة. وليس من المعقول ولا من المقبول أن يتجمد الخطاب الدينى عند فترة زمنية معينة .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه .

٣ ـ تجديد الدنيا بالدين :

والخطاب الدينى يعد رسالة دينية ودنيوية فى الوقت نفسه ، فمن شأن الخطاب الدينى المستنير أن يحرك الناس ويدفعهم إلى العمل والإنتاج ، وبذلك يساعد فى دفع عجلة الحياة إلى الأمام ، ولا يجوز أن يقتصر الخطاب الدينى على موضوع الترهيب المستمر والقوارع التى لا تتوقف والتخويف المتواصل من العذاب المقيم فى نار جهنم. فالإسلام أولاً وقبل كل شئ دين الرحمة للإنسانية كلها كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[١] ، كما أنه دين يغرس فى نفوس المؤمنين به الأمل الذى تشرق به الحياة وتنتعش به القلوب وتحيا به العقول . والقرآن الكريم يقول فى هذا الشأن : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢] .

فالله سبحانه وتعالى قد فتح باب الأمل على مصراعيه لكل الناس ، ودعانا لأن نتعارف ونتآلف ونتعاون ونتسابق فى الخيرات من أجل خير الإنسان بصرف النظر عن معتقده أو جنسه أو لونه . فالجميع يشتركون معنا فى الأصل الواحد للإنسانية كلها ، وطالما لم يعتد أحد منهم على المسلمين فهم إخوة لنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا. وهذا ما ينبغى أن يستقر فى وعى الدعاة إلى الله على هدى وبصيرة .

وكما يحرص الإسلام على العمل للآخرة فإنه فى الوقت نفسه يحض على العمل من أجل الدنيا وتعميرها والارتقاء بها ، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[٣] .أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها . فليست هناك آخرة بدون دنيا . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) سورة الزمر : ٥٣ .

(٣) سورة هود : ٦١.

حريصًا فى دعائه أن يطلب من الله إصلاح دنياه وآخرته معًا ، ومن ذلك قوله : **«اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر»**[1] .

وقد آن الأوان لأن ينشغل الخطاب الدينى المعاصر بهموم الناس وقضايا المجتمع ومشكلات العصر ، والاهتمام بمقاصد الشريعة التى تؤكد الحقوق الأساسية للإنسان فى كل زمان ومكان ، والعناية بقضايا المرأة وتمكينها من القيام بدورها فى تقدم المجتمع ، والتركيز على القيم الإسلامية الدافعة إلى تقدم المجتمع وترقية الحياة مثل العلم والعمل والحفاظ على الوقت واستثماره فى كل عمل مفيد ، والاهتمام بقضايا قبول الآخر والحوار بين الأديان والحضارات وقضايا البيئة والإدمان والصحة النفسية للأفراد والجماعات ، والعمل على إحياء الأمل فى النفوس وحمايتها من الإحباط واليأس ، وقبل كل ذلك وبعده ضرورة تمكين العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل فى الحياة وتربية العقلية النقدية التى لا تأخذ كل شئ على علاته وإنما تزنه بموازين العقل السليم والمنطق الصحيح ، وبصفة عامة فإن على الخطاب الدينى أن يهتم بالتكوين السليم لشخصية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع والنهوض به والقدرة على مواجهة متطلبات عصر العولمة حتى تستعيد الأمة الإسلامية مكانها ومكانتها فى عالم اليوم الذى لم يعد فيه مكان للكسالى والمستضعفين .

وعلى الأئمة والدعاة أن يدركوا ذلك جيدًا ، فهم الذين يتصدون أسبوعيًا كل يوم جمعة لتوعية الجماهير فى كل مكان ، وهم الذين يتحدثون باسم الدين فى وسائل الإعلام . ومن هنا يجب أن يعوا مدى ما سيحدثه ما يقولونه من تأثير فى نفوس الناس وسلوكهم .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

٤ـ التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى :

وانطلاقًا من الحقائق المشار إليها كان لزامًا على وزارة الأوقاف المصرية أن تقوم بواجبها وتتحمل مسئولياتها فى هذا الصدد ، وبخاصة أنها تشرف إشرافًا كاملاً على أكثر من مائة ألف مسجد وزاوية على مستوى الجمهورية . وقد كانت الدعوة التى أطلقها السيد رئيس الجمهورية فى احتفال الوزارة بليلة القدر عام ٢٠٠١م ودعا فيها إلى ضرورة تجديد الخطاب الدينى ، والتى تكررت بعد ذلك فى عدة مناسبات ، كانت حافزًا قويًا ودافعًا محركًا إلى العمل على نحو منهجى لوضع هذه الدعوة موضع التنفيذ .

ولا شك فى أن المرحلة التاريخية الراهنة قد حفلت بمتغيرات متعددة الأشكال والألوان مست جوانب الحياة العلمية والثقافية والفكرية والدينية ، وكان لها تأثيرها الملحوظ فى كثير من مضامين الأعمال الإنسانية فى كل مكان فى العالم بحيث لم يعد فى مقدور مجتمع من المجتمعات أن يعيش بعيدًا عنها ، أو أن ينعزل فى دائرة محدودة فى فكره وعاداته وتقاليده التى توارثها عبر الأجيال .

ومن أجل ذلك كان لابد أن تتحرك المؤسسة الدينية لمواكبة هذه المتغيرات ، وتطوير أساليبها حتى لا يفوتها الركب ويتجاوزها الزمن . وكان عليها أن تتفاعل مع الأحداث مؤثرة فيها بما لديها من رصيد دينى له تأثيره وصلته بكل جوانب الحياة.

ومن هنا قامت وزارة الأوقاف فى بداية عام ٢٠٠٢م بتنظيم ندوة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية لمناقشة أبعاد قضية تجديد الخطاب الدينى ، دعت إليها نخبة من علماء ومفكرى الأمة ليدلى كل بدلوه فى هذا الموضوع المهم . وقد أردنا من وراء عقد هذه الندوة أن نستفيد من كل الآراء والأفكار التى تساعد فى تكوين مقترحات عملية يمكن تضمينها فى برامج تدريب الدعاة وفى المطبوعات التى توزعها الوزارة عليهم لتساعدهم على حسن أداء مهمتهم التى تنعكس بدورها على جماهير الأمة .

وكانت الوزارة قد أعدت ورقة عمل حول تطوير الخطاب الدينى تم طرحها فى الندوة المذكورة لتكون بمثابة دليل إرشادى للمناقشات . وقد تضمنت هذه الورقة أربعة محاور على النحو التالى :

- **المحور الأول** : النقد الذاتى للخطاب الإسلامى المعاصر :
- نظرة تأملية فى مضمون الخطاب الدينى فى ضوء ما يوجه إليه من نقد إيجابى معاصر .
- معالجة ضعف المضمون بما يتناسب وضرورة مواكبة قضايا العصر .
- معالجة ضعف الأسلوب ومخاطبة الناس بروح العصر ووسائله بما يحقق أهداف الدعوة ويبرز محاسن الإسلام .
- تحديد الاتجاهات والغايات المرجوة من الخطاب الدينى فى عصر العولمة .
- إبراز الجوانب الإنسانية فى الإسلام مع بيان الحكمة الكبرى من إرسال الأنبياء بالهدى ودين الحق .
- التأكيد على أهمية القضايا الاجتماعية وكيفية تناولها بما يبرز الوجه الحضارى للإسلام .
- **المحور الثانى** : ألوان الخطاب الدينى :
- خطبة الجمعة : أنواعها وأساليبها .
- كيف تكون خطبة الجمعة دافعة إلى الأمام وليست محبطة ؟
- كيف يتلقى المثقفون ما يعرض عن الدين الإسلامى من جانب المسلمين أو من غيرهم ؟
- مخاطبة الآخر - وكيفية الاهتداء بالخطاب القرآنى فى هذا الموضوع .
- مخاطبة الآخر غير الناطق بالعربية . والأسلوب الأمثل لذلك .
- كيفية إبراز جوانب التسامح والرقى الحضارى والخلقى فى الدين الإسلامى .

- **المحور الثالث** : التحديات التى تواجه الخطاب الإسلامى المعاصر :

- عدم إحاطة الدعاة بالتقنيات الحديثة والقضايا العلمية المستجدة وغير ذلك مما يطرح على العالم فى كل يوم بصورة غير مسبوقة .
- التحديات الاقتصادية التى يواجهها العالم النامى وما لها من آثار سلبية على المجتمعات النامية .

- **المحور الرابع** : مقترحات للارتقاء بالخطاب الإسلامى المعاصر :

- إعادة تأهيل الدعاة بما يحقق العلاقة بين التعليم والعمل فى مجال الدعوة .
- تحديث مناهج جامعة الأزهر المتصلة بالدعوة والدعاة .
- استمرارية تدريب الدعاة واستحداث نظم جديدة لهذا التدريب تواكب مستجدات العصر .

وقامت الوزارة بعد ذلك بإصدار كتيب اشتمل على مجمل الآراء والتصورات التى عرضها السادة المشاركون فى الندوة تحت عنوان : تجديد الخطاب الدينى ... لماذا وكيف ؟ وصدر فى إبريل عام ٢٠٠٢م . وأعيد طبعه مرة أخرى عام ٢٠٠٤م .

وقد تم توزيع هذا الكتيب على أئمة المساجد فى أنحاء البلاد ، كما تم إدخال مادة تجديد الخطاب الدينى فى برامج تدريب الدعاة فى المراحل المختلفة التأهيلية والتخصصية والراقية .

واستمرت جهود الوزارة فى هذا السبيل فأصدرت كتابين آخرين عن تجديد الخطاب الدينى من تأليف بعض الدعاة فى وزارة الأوقاف . وتم توزيعهما أيضًا على الدعاة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استمرت الجهود فى هذا الصدد ، وقامت الوزارة بتكليف ثلاثة من العلماء بتأليف كتاب بعنوان «دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الدينى» وصدر الكتاب فى العام الماضى ٢٠٠٧م وتم توزيعه على جميع الأئمة فى مصر .

وقد اشتمل هذا الدليل على عشرة مباحث تناولت تحديد معنى التجديد ومجالاته ووسائله ومقاصد الشريعة وقضايا ومفاهيم معاصرة، كما تناولت موضوعات العقل والعقلانية فى الإسلام وسماحة الإسلام بين النظرية والتطبيق وتجديد الخطاب الدينى من خلال خطبة الجمعة ومن خلال المناسبات.

وحتى تطمئن الوزارة إلى أن ما ورد فى هذا الدليل يلبى المطلوب من تجديد الخطاب الدينى قامت بتوزيع نسخ منه على مجموعة من العلماء والمفكرين ودعتهم إلى ندوة لمناقشة ما ورد فى هذا الكتاب. وقد عقدت هذه الندوة منذ حوالى أربعة أشهر، وعرض المشاركون فيها ملاحظاتهم فى هذا الصدد.

وحتى تعم الفائدة ويتعرف الدعاة على وجهات النظر المختلفة حول هذا الدليل بصفة خاصة وحول تجديد الخطاب الدينى بصفة عامة أصدرت الوزارة كتابًا يشتمل على كل ما دار فى هذه الندوة من مناقشات ثرية وقد صدر هذا الكتاب منذ أيام قليلة تحت عنوان: «تجديد الخطاب الدينى» حلقة نقاشية حول كتاب: دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الدينى. وستقوم الوزارة بتوزيعه على جميع الأئمة، وذلك بالإضافة إلى طرحه لجمهور القراء فى سلسلة قضايا إسلامية التى يقوم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإصدارها.

ولا يزال موضوع تجديد الخطاب الدينى فى حاجة إلى المزيد من الجهود حتى يحقق الثمرة المرجوة فى إحداث نقلة نوعية فى الخطاب الدينى شكلاً ومضمونًا.

واتصالاً بموضوع تجديد الخطاب الدينى كان لابد من بذل جهود أخرى فى مجال الكشف عن بعض المفاهيم الخاطئة والأفكار المغلوطة والعادات المستهجنة التى نسبت إلى الإسلام بمرور الزمن فى حين أنه ليس لها أصل فى الدين. ومن بين هذه العادات التى استقرت منذ قرون ختان الإناث ونقاب المرأة، وقد أصدرت الوزارة كتيبًا بعنوان: «ختان الإناث ليس من شعائر الإسلام»، كما ستصدر قريبًا كتيبًا آخر عن النقاب وأنه عادة وليس عبادة.

كما أصدرت الوزارة كتابًا حول تنظيم الأسرة فى الإسلام ، أوضحت فيه أن الإسلام لا يقف أبدًا عقبة فى سبيل تنظيم الأسرة ، بل يساعد عليه من أجل النهوض بالمجتمع وتنميته على أفضل الوجوه . كما أصدرت الوزارة أيضًا كتيبًا عن «السلف والسلفية» يحدد المفهوم الصحيح للسلفية بعيدًا عن أى مذهبيات ذات توجهات متشددة بعيدة عن جوهر الإسلام .

وفى مجال الكشف عن الشبهات التى يثيرها خصوم الإسلام ضد هذا الدين . قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بحصر الشبهات القديمة والحديثة وناقشها ورد عليها بأسلوب علمى . وأصدر المجلس فى ذلك كتاب «حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين» . وتمت ترجمة معظم هذه الشبهات والرد العلمى عليها إلى الإنجليزية ، وصدرت أيضًا فى كتاب يتم توزيعه على نطاق واسع لينتفع به المسلمون فى الخارج وليطلع عليه غير المسلمين ليراجعوا ما درجوا عليه من تصورات غير صحيحة عن الإسلام والمسلمين .

واستمرارًا لهذه الجهود قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإصدار كتاب باللغة الإنجليزية عن التسامح فى الحضارة الإسلامية يشتمل على ترجمة لمجموعة من البحوث التى سبق أن قدمت إلى المؤتمر السنوى للمجلس فى دورته السادسة عشرة عام ٢٠٠٤ .

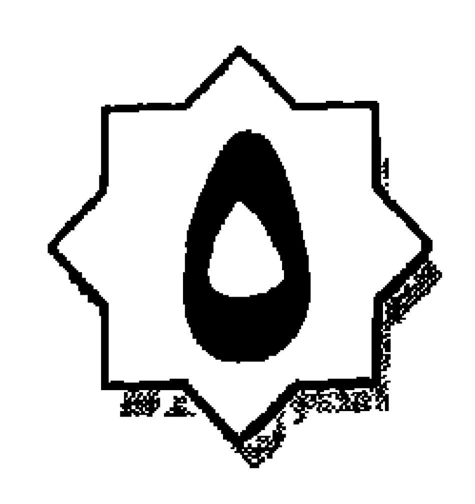
* * *

كلمة ختامية

لقد كانت هذه لمحة سريعة عن بعض الجهود التى تعبر عن التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى . ولسنا نزعم أننا بذلك قد أنجزنا كل ما هو مطلوب . فالأمر المهم فى هذا الصدد هو تفعيل البرامج والخطط التى وضعتها الوزارة بهدف تجديد الخطاب الدينى حتى تؤتى ثمارها المرجوة فى دنيا الناس ، وذلك بنشر القيم الإسلامية الدافعة إلى تقديم المجتمع والنهوض بالمواطنين من أجل سعادتهم فى دنياهم وأخراهم . فالإسلام ليس فقط عقيدة وشريعة . وإنما هو أيضًا أخلاق وحضارة . وهذا العنصر الأخير هو الفريضة الغائبة فى دنيا المسلمين . وأى تجديد للخطاب الدينى لا يشتمل على هذا العنصر يعد تجديدًا ناقصًا لا يحقق الغاية المرجوة فى النهوض بالمجتمع وتقدمه وازدهاره .

ولعله من نافلة القول أن نشير إلى أن قضية تجديد الخطاب الدينى الإسلامى تعد قضية تهم المسلمين جميعًا ولا يقتصر الاهتمام بها على شعب من الشعوب أو أمة من الأمم الإسلامية . ومن هنا فإننا فى مصر منفتحون على الاستفادة من كل التجارب الإسلامية التى سبقتنا فى هذا المجال . ويسعدنا اليوم أن نتعرف على التجربة التونسية فى تحديث الخطاب الدينى لنستفيد منها . ونحن على يقين من أنها سوف تثرى عملنا وتضيف إلى تجربتنا الكثير . وسوف نقوم بطبع أعمال هذه الندوة لتعم الاستفادة منها على نطاق واسع إن شاء الله .

* * *



الشـــباب وبنـــاء المســـتقبل

الشباب هم عدة الأمم وهم - كما يقال كثيرًا - نصف الحاضر وكل المستقبل . فهم الذين سيقودون بلادهم فى مستقبل الأيام . ومن هنا تعمد الدول الواعية إلى تربية شبابها تربية سليمة ، وتعمل على إعدادهم لتحمل مسئولياتهم المستقبلية ، وهى مسئوليات جسام من غير شك ، وثروة العالم الإسلامى فى شبابه وليس فيما يملكه من ثروات مادية طبيعية مآلها الزوال فى يوم من الأيام . وعلينا أن نحسن التعامل مع هذه الثروة الشبابية فى بناء أوطاننا وتعمير بلادنا . فالطاقة الشبابية تستطيع أن تنجز المعجزات إذا أحسن ترشيدها وتوجيهها التوجيه السليم .

وقد كان الإسلام حريصًا كل الحرص منذ اللحظات الأولى على إعداد الشباب لتحمل مسئولياته . ولم يكن هذا الإعداد مجرد تلقين نظرى وإنما كان تدريبًا عمليًا وممارسة على أرض الواقع . ولقد حدث هذا - على سبيل المثال - عندما كلف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة الشاب على بن أبى طالب لينام مكانه لتضليل مشركى مكة ، كما كلفه برد الأمانات التى كانت عنده إلى أصحابها ، كما كان ذلك واضحًا فى المهمة التى قامت بها ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر فى إيصال الغذاء للنبى صلى الله عليه وسلم وصحبة أبى بكر فى مأمنهما بعد خروجهما للهجرة إلى المدينة بعيدًا عن أنظار المشركين . وهى مهمة سرية بالغة الخطورة ، كما كان تدريب الشباب على تحمل المسئولية واضحًا أيضًا فى تكليف الشاب أسامة بن زيد بقيادة جيش المسلمين الذى وجهه النبى ﷺ إلى الشام لرد اعتداءات الروم المتكررة على الدولة الإسلامية وكان فى الجيش كبار الصحابة ، ولم يعترض أحد على ذلك ، والأمثلة فى هذا الصدد لا تحصى .

ونحن إذ نتذكر ذلك كله فى هذه الظروف الراهنة التى تعيشها أمتنا فلكى نستمد من ذلك الدروس والعبر ، ولكى نتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يفعله من تدريب للشباب على تحمل المسئوليات الجسام التى تصقل مواهبهم وتنمى قدراتهم وتزيدهم صلابة وعزمًا وقدرة على التغلب على كل ما يصادفهم من صعاب فى أحلك الظروف وفى أصعب المواقف .

وعالمنا اليوم يموج بتيارات متناقضة على نحو غير مسبوق . فتيار العولمة الزاحف بكل قوة عبر العديد من القنوات والمؤسسات الدولية له تأثيراته القوية على الشباب . وغير خاف على أحد ما تقدمه العولمة للشباب من خلال وسائل الاتصال والمعلومات وثورة التكنولوجيا الراهنة .

وإذا كان من المستحيل إيقاف قطار العولمة فإننا من ناحية أخرى ينبغى أن نتبين ما فى هذا التيار من جوانب إيجابية وأخرى سلبية حتى نستفيد من الإيجابيات ونتجنب السلبيات : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[1] .

ونحن مسئولون عن حماية هذا الشباب المسلم حتى يكون قادرًا على الإسهام فى بناء المستقبل ، وذلك بتحصينه ضد التيارات الضارة التى تحيط به من كل جانب وتزويده بالقيم الإسلامية الأصيلة التى تعد سياجًا منيعًا يحميه من الآثار السيئة للعولمة .

ومن حق الشباب علينا أن نقدم لهم التوعية الضرورية بما يدور حولهم فى عالم اليوم ، وذلك عن طريق التعليم الجيد الذى ينمى عقولهم ويجعلهم قادرين على التفكير السليم والتمييز الواعى بين الخير والشر والصواب والخطأ ، بين ما يفيد وما لا يفيد .

---

(١) سورة الرعد : ١٧ .

إننا مسئولون أن نقدم لشبابنا تعاليم الدين الإسلامى على أساس من الكتاب والسنة بعيدًا عن أى شكل من أشكال التطرف أو الانغلاق ، وإن نبصرهم بمقاصد الشريعة ووسطيتها واعتدالها . والتأكيد على حرمة النفس الإنسانية ، ومسئولون أيضًا عن نشر التسامح بين أبناء الأمة الإسلامية وإيقاظ روح التعاون والتضامن والإخاء ، وتعريف شبابنا بأن على رأس منظومة القيم الإسلامية قيمة الرحمة كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]. وفى الحديث الصحيح «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»[2] وفى حديث آخر «**من لا يرحم لا يُرحم**»[3]. وهذا يعنى أن العدوان وترويع الآمنين وقتل الأبرياء لا يقره عقل ولا دين ، وأن الإرهاب بكل صوره وأشكاله ظاهرة عالمية لا مكان لها فى دين الإسلام الذى يعتبر قتل نفس واحدة بمثابة قتل للإنسانية كلها . وبذلك نحمى شبابنا من الوقوع فريسة فى أيدى فئات تسىء فهم الدين ولا تقيم وزنًا لحرمة النفس الإنسانية .

إننا مسئولون أن نبصر شبابنا بأن الحرية حق للجميع ، ولكن هذه الحرية مرتبطة فى الوقت نفسه بالمسئولية ، فهى حرية مسئولة وليست حرية عشوائية . مسئولون أن نبصر شبابنا بأن المسلمين جميعًا بمثابة جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

إن التشرذم الحالى الذى تعانى منه الأمة الإسلامية قد أضعفها وجعلها مطمعًا للطامعين كما هو حادث الآن فى الكثير من بلدان عالمنا الإسلامى .

إننا إذا قمنا بواجبنا الإسلامى إزاء شبابنا فإننا بذلك نتيح أمامهم الفرصة ونمهد لهم الطريق ونهيئ لهم التربة الصالحة للإسهام بفاعلية فى بناء مستقبل هذه

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧.

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

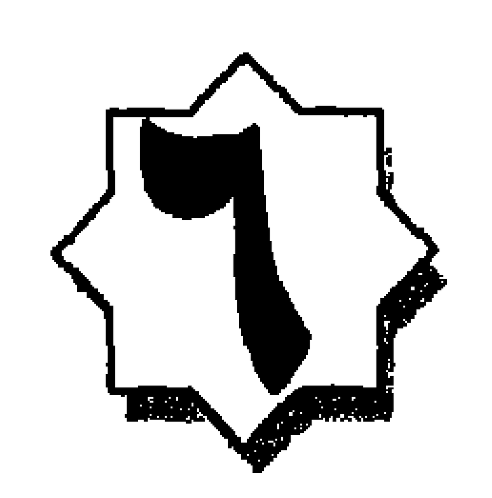
(٣) رواه البخارى فى صحيحه .

الأمة ، وغرس بذور الأمل فى كل أرجائها ، وحمايتها من أى أخطار تتهددها . والأمل معقود على هذا الشباب الواعد فى تحقيق الكثير من الإنجازات لأمته الإسلامية .

إن هذا التجمع الشبابى من مختلف بلدان العالم الإسلامى يقدم لهذا الشباب فرصة للتعارف وتبادل الأفكار والتعرف على قضايا الأمة . وسيكتشف هذا الشباب أن هموم الأمة الإسلامية واحدة ، وأن مصائرها مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا ، وأن حلول مشكلات الأمة متشابهة إلى حد بعيد . فالتفاعل بين شباب الأمة ضرورى من أجل تنظيم صفوفه وتنسيق جهوده والعمل سويًا والتفكير مليًا فى كل ما من شأنه أن يقدم الخير لهذه الأمة التى آن لها أن تحتل مكانها اللائق بها فى عالم اليوم ، وأن تمسك بيدها مصائرها وتسير فى طريقها الذى يحقق لها الأهداف المرجوة حتى تتحقق لها الوعود الإلهية الثلاثة التى وعد الله المؤمنين بها إذا استوفوا شروطها كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة النور : ٥٥.



التواصل الإنسانى(1)

الإنسان فى هذا الكون لا يستطيع أن يعيش وحده منعزلاً عن بقية الناس . ومن هنا عرَّف الفلاسفة القدماء الإنسان بأنه مدنى بالطبع ، كما عرفه علماء الاجتماع بأنه كائن اجتماعى . وهذا يعنى أنه فى حاجة إلى غيره من الناس فى شتى أمور حياته . ولا يوجد كائن بشرى يستطيع أن يستغنى عن بقية البشر ، وأقرب مثال على ذلك حاجته إلى المأكل والملبس والمشرب والمسكن وغير ذلك من حاجات تتوقف على أناس آخرين .

ومهما اختلف الناس فى لغاتهم وأجناسهم وعقائدهم فإنهم لا يختلفون فى جوهرهم . فطبيعة الإنسان واحدة فى كل زمان ومكان . ويبدأ اعتماد الكائن البشرى على غيره منذ لحظة ولادته . فهو فى حاجة إلى من يرعاه إلى أن يكبر ويستطيع أن يعتمد على نفسه .

وإذا كنا فى حاجة إلى غيرنا فإن غيرنا فى حاجة إلينا . وهذه هى سنة الحياة وطبيعة الجنس البشرى . فهناك تفاعل متبادل بين الناس بدرجات متفاوتة ، وتعاون متواصل بشكل مباشر أو غير مباشر . وهذا يعنى أن التواصل بين الناس يعد ضرورة حياتية واجتماعية . ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم على أن الله قد خلق الناس مختلفين ليتعارفوا . والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التواصل بين الناس والتعاون فيما بينهم من أجل خيرهم وسعادتهم .

وقد جعل الفيلسوف المعروف كارل ياسبرز من التواصل نقطة البدء فى فلسفته كلها سواء كان ذلك فى دائرة الفكر أو فى دائرة الواقع . وهذه الحقيقة يؤكدها الواقع

---

(1) نشر بجريدة أخبار اليوم فى ١٢/ ١/ ٢٠٠٨ .

الذى يعيشه الناس . والسؤال الذى يمكن أن يطرح نفسه فى هذا الصدد هو : كيف يتم هذا التواصل بين الناس ؟ أو : ما هى آليات التواصل ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان فى أحسن تقويم جعل من وجه الفرد نافذة يطل منها على هذا الكون ، ومن خلالها يتم التواصل عن طريق آليات عديدة منها السمع والبصر والكلام وتعبيرات الوجه وغير ذلك من وسائل . ومن خلال هذه النافذة البشرية يمكن أن يكون التأثير لدى الآخر بالإيجاب أو بالسلب . فإذا ظهر الإنسان بوجه بشوش أحدث لدى الآخر ارتياحًا نفسيًا واطمئنانًا يشعره بالتفاؤل فى إمكان التواصل ، أما إذا كان العكس فإن نتيجته هى النفور والصدود والتباعد والتشاؤم . ومن ذلك يتضح أن تعبيرات الوجه بصفة خاصة لها أثر بالغ الأهمية فى سلامة العلاقات بين الناس أو اعوجاجها .

ولأهمية الوجه وتعبيراته فى إمكان التواصل بين الناس يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « **تبسمك فى وجه أخيك صدقة** »[1] ، والبسمة تعبر عن نفسها فى انفراج أسارير الوجه . وفى ذات المعنى يقول النبى أيضًا : « **لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »[2] أى بوجه بشوش . ونظرًا إلى أن لكل إنسان جانبًا باطنًا لا يراه الآخرون فإن تعاملهم يتم عن طريق الجانب الظاهر وهو الوجه وما يحمله من تعبيرات تفصح عما بداخله فى العادة . فإذا أغلقنا هذه النافذة الظاهرة المتمثلة فى الوجه وما يعبر عنه استحال التواصل بين الناس وأدى ذلك إلى إغلاق كل سبل التفاهم والتجاوب بين البشر .

لقد كانت هذه مقدمة ضرورية أردنا بها أن نمهد لما نود أن نتحدث عنه حول ظاهرة بدأت تنتشر فى المجتمع بشكل لافت للنظر تتمثل فى إغلاق نافذة التواصل بين الناس . وحديثنا فى هذا الصدد يأتى انطلاقًا من مقررات العقل السليم وتعاليم الدين الصحيح بعيدًا عن أى مزايدات أو مهاترات .وما قلناه ينطبق على الإنسان

---

(١) رواه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

بصفة عامة سواء كان رجلاً أو امرأة ، كما ينطبق أيضًا إلى حد ما على علاقة الإنسان بالحيوان . والحديثان اللذان أشرنا إليهما لا يتعلقان بالرجال وحدهم بل يشملان النساء أيضًا . وهذا هو الشأن فى تعاليم الإسلام .

إن ظاهرة إغلاق نافذة التواصل بين الناس لدى فئة من النساء متمثلة فى إخفاء الوجه أو ما يسمى بالنقاب بدأت تنتشر بشكل ملحوظ فى كل مكان ، ووصلت إلى صفوف الممرضات فى المستشفيات والمدرسات فى المدارس والبنات فى المدارس الإعدادية ، ناهيك عن إدارات حكومية عديدة . ويحاول البعض أن يفسر هذه الظاهرة بأنها علامة على التدين والورع والتقوى ، والبعض الآخر يراها حرية شخصية لا دخل للآخرين فيها ، فلكل إنسان أن يرتدى ما يشاء من الملابس بالطريقة التى يرتضيها .

ونبادر بالقول إن هذا الأمر لا صلة له بالحرية الشخصية وإنما هو فى واقع الأمر إساءة استخدام لهذه الحرية لأنه فى حقيقته ضد الطبيعة البشرية ، وضد مصلحة المجتمع ، وذلك فضلاً عن أنه يعد إساءة بالغة للدين وتشويهًا لتعاليمه السامية .

ونود فى هذا المقام أن ننقل هنا عبارة للشيخ محمد الغزالى فى كتابه القيم : «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ». يقول رحمه الله : إن المعارضين لكشف وجه المرأة يتمسكون بأدلة واهية ، « ويتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى » .

ويعنى الشيخ الجليل رحمه الله أن إخفاء وجه المرأة يعد حلقة فى سلسلة متواصلة من الظلم الاجتماعى للمرأة الذى حكم عليها بالموت الأدبى والعلمى انطلاقًا من جهل بالدين وانحرافًا عن تعاليمه الصحيحة .

والحق أن هناك عادات وتقاليد بالية تريد أن تفرض نفسها على الدين ، ومن بينها إخفاء وجه المرأة تحت نقاب يلغى كيانها كإنسان . لقد أوجب الإسلام على المرأة أن تكشف وجهها فى الحج وفى الصلاة . ولا يوجد دليل واحد فى القرآن أو فى

السنة أو فى العقول السليمة يؤيد تغطية وجه المرأة . فالنقاب عادة وليس عبادة ، لأن العبادة لا تكون إلا بنص صريح . ومن المعروف أن بعض النساء فى الجاهلية ،وعلى عهد الإسلام كن يغطين أحيانًا وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء . وقد كان هذا العمل من العادات لا من العبادات .

لقد روى لى بعض الإخوة أنه شاهد برنامجًا فى إحدى الفضائيات - التى أصبح لها جمهور كبير من المشاهدين - يتحدث فيه المتحدث عن مواصفات النقاب ، وانتهى إلى القول بأنه لا يجوز أن يظهر من نقاب المرأة بياض عينيها أو رموشها . فالمسموح به هو سواد العين فقط .

فأين ذلك من قول الله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[1] ؟ .

إن غض البصر - كما يقول الشيخ الغزالى أيضًا - يكون عند مطالعة الوجوه ، فإذا كانت مغطاة فمم يغض المؤمنون أبصارهم ؟ ويتساءل الشيخ : أيغضونها عن القفا والظهر ؟ ويناقش رحمه الله من يحتجون بالآية الكريمة : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[2] ويقول : « لو كان المراد إسدال الخمار على الوجه لقال : ليضربن بخمرهن على وجوههن ، ما دامت تغطية الوجه هى شعار المجتمع الإسلامى ، ومادامت للنقاب هذه المنزلة الهائلة التى تنسب إليه . . . إن الآية ليس فيها نص على تغطية الوجوه » .

ومن المرويات فى هذا الصدد أن النبى عليه الصلاة والسلام خاطب النساء فى يوم عيد - وكان مصلى العيد يجمع الرجال والنساء - فقامت امرأة سفعاء الخدين وسألته توضيحًا لبعض ما ورد فى حديثه. فكيف عرف الراوى أنها سفعاء الخدين[3]، أى أن وجهها يجمع بين الحمرة والسمرة ، إلا إذا كان قد رأى وجهها على هذا النحو

(١) سورة النور : ٣٠.

(٢) سورة النور : ٣١.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

فى مجلس حضره رسول الله ﷺ ؟ ولا نريد أن نسترسل فى ذكر الأسانيد التى وردت فى السنة النبوية التى تؤيد كشف وجه المرأة وبالتالى ترفض النقاب . فالروايات فى هذا الصدد كثيرة ومتنوعة .

وإذا كان الأمر كذلك وهو أن القرآن والسنة يرفضان تغطية وجه المرأة فإن العقول السليمة لا تجد أى مبرر معقول لهذه العادة التى تمحو شخصية المرأة ، وتسئ فى الوقت نفسه إلى صورة الإسلام الذى يحترم المرأة ويحرص على كرامتها ويصون حريتها ويضعها فى أرفع مكان .

وأعتقد أن هذه الظاهرة جديرة بدراسات جادة من جانب علماء النفس وعلماء الاجتماع والمجلس القومى للمرأة ومنظمات المجتمع المدنى المهتمة بشئون المرأة ، وذلك فضلاً عن وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .فإن ما تنشره الصحف بين حين وآخر من إساءة استخدام النقاب من بعض النساء ، أو من بعض الرجال ينبغى أن يفتح عيوننا جيدًا ويدفعنا إلى التفكير مليًا فى هذه القضية وتداعياتها .

وندعو فى الوقت نفسه أخوتنا المنقبات – ولا شك فى أن غالبيتهن من الفضليات – أن يفكرن فى الأمر فى ضوء الموقف الصحيح للدين من هذه القضية ، وفى ضوء نور العقل – الذى هو أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان . ، وفى ضوء مصلحة المجتمع « فحيثما توجد المصلحة فثم شرع الله » ، وألا يلقين بالاً لما يقوله من لا علم لهم بالدين ، الذين « يتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى للأمة التى أكلها الجهل والاعوجاج عندما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى » – كما قال الشيخ الغزالى فى النص الذى سبق أن أشرنا إليه – ، والشيخ الغزالى – كما هو معروف – من كبار أئمة المسلمين الذين لا خلاف بين الجميع على إخلاصه وورعه وعلمه وفضله .

والله يهدينا جميعًا إلى سواء السبيل ، ، ،

* * *



التواصل المعرفى بين التراث والمعاصرة[1]

لقد مرت البشرية بحقب تاريخية مختلفة لكل منها ملامحها وقسماتها ، ولكن هناك خيطًا واحدًا يجمعها هو التاريخ البشرى . ومن هنا فإن كل أمة من الأمم – وبخاصة تلك الأمم العريقة – لها تاريخ يشتمل على ماض انقضى وترك آثاره فى حاضر تعيشه ، وتخطط فى الوقت نفسه لمستقبل تتطلع إليه . والأمة التى ليس لها ماض يحمل بصمة خاصة بها ليس لها أيضًا حاضر متميز ولا مستقبل واضح المعالم .

وتاريخ كل أمة يشتمل على مجموع تجاربها وخبراتها وإنجازاتها وإحباطاتها على جميع المستويات . ولا شك فى أن صحائف التاريخ الماضى لكل أمة ليست دائمًا ناصعة البياض ولاهى أيضًا حالكة السواد . ومن هنا تحرص الأمم الواعية على أن تستفيد من تجاربها وخبراتها السابقة ، وألا تهمل تاريخها ، بل تستحضره دائمًا لاستخلاص الدروس والعبر ، لتتفادى السلبيات وتؤكد على الإيجابيات . وتستشرف آفاق المستقبل بخطى ثابتة . ويمكن القول بأن حضارة الأمة تتمثل فى مجمل إنجازاتها على الصعيدين المادى والروحى . وقد قامت الحضارة الإسلامية منذ يومها الأول على أساس من المادة والروح ، وحققت فى عصر ازدهارها إنجازات رائعة استفادت منها الشعوب الأخرى وخاصة الحضارة الأوروبية .

والماضى الحضارى للأمة هو تراثها الذى خلفه لها السابقون ، وهذا التراث هو ميراث الأمة الذى لا يجوز أن تبدده ، فهى مسئولة عنه مسئولية تامة . والأمة التى تبدد مواريثها أمة لا تستحق الحياة ومصيرها النسيان ، تمامًا مثل أى فرد يبدد الميراث الذى ورثه عن آبائه وأجداده فيكون مصيره الخزى والعار .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١/ ٣/ ٢٠٠٨ .

والأمة الإسلامية - كما هو معلوم - أمة غنية بتراثها الحافل بالإنجازات التى حققتها فى جميع المجالات ، وكانت منفتحة فى ذلك على كل الحضارات التى سبقتها واستفادت من إنجازاتها الحضارية . وهذا الانفتاح الحضارى - أو التعرف على ما لدى الآخرين - يعد فى نظر الفيلسوف ابن رشد واجبًا شرعيًا ، ويضيف إلى ذلك قوله : « ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » .

ومن ذلك يتضح أن التواصل الحضارى الذى سلكته الحضارة الإسلامية فى السابق والذى عليها أن تسلكه فى حاضرها ومستقبلها يتمثل فى بعدين أساسيين : أولهما : - التواصل مع التراث الحضارى للأمة بصفة خاصة ، وثانيهما : - التواصل مع التراث الإنسانى بصفة عامة .

فالتراث الإنسانى أخذ وعطاء ، وهو ميراث مشترك للبشرية كلها . ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث . والتواصل المقصود هو تواصل معرفى يقوم على الدراسة الجادة لاستخراج العناصر الدافعة إلى التقدم والارتقاء .

وإذا كنا نؤكد على ضرورة التواصل مع التراث فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال العبودية لهذا التراث والسير على خطى السابقين بتقليد أعمى لا يميز بين الغث والسمين والجيد والردىء ، وإنما التواصل الذى نعنيه هو التواصل القائم على التفكير النقدى الذى يشق الطريق أمام الأمة مزيلاً من طريقها ما فى هذا التراث من ركام معطل لمسيرة التقدم ، ومبقيًا فقط على العوامل والمقومات الإيجابية التى كان لها الفضل فى كل ما حققته الحضارة الإسلامية من إنجازات .

إن التواصل مع التراث إذن ليس مجرد المحاكاة للسابقين فى كل أفعالهم وأقوالهم . فهذا أمر لا يجوز فى العقل أو الدين نظرًا لاختلاف الزمان والمكان ومتغيرات الحياة وتطورات العصر ، إنما المقصود - كما يرى الدكتور زكى نجيب

محمود أيضًا - هو محاكاة التراث فى الاتجاه لا فى خطوات السير ،وفى المواقف لا فى مادة المشكلات وأساليب حلها ، وفى القيم الإيجابية التى يقاس عليها ما يصح وما لا يصح ، وليس المجال الذى ندير عليه تلك القيمة المستعارة . وفى كل ذلك يمكن الحديث عن التواصل بين التراث والمعاصرة . فالتراث يكون بمثابة إطار عام يقدم المبادئ ولكنه لا يعوق الحركة أو يعطل مسيرة الأمة نحو التقدم والارتقاء .

وليس من مصلحة أمة من الأمم ، وعلى الأخص الأمة الإسلامية ، أن تضرب صفحًا عن تراثها ومواريثها الحضارية وتحدث قطيعة معها بحجة اللحاق بركب العصر . صحيح أن من حق كل أمة ، والأمة الإسلامية على وجه الخصوص ، أن تواكب تطورات العصر وألا تتخلف عن ركب التقدم على جميع المستويات . ولكن المعاصرة لا تعنى - ولا يجوز أن تعنى - اتخاذ موقف عدائى من التراث بحجة أنه ماض كانت له ظروفه التى لم تعد قائمة ، كما يقول الرافضون للتراث . فمن الوهم الاعتقاد بأن التراث مناقض تمامًا للمعاصرة أو أنه يشكل قيدًا على حركة الأمة . فالحق أنه لولا التراث ماكانت المعاصرة .

إن الفهم الصحيح للمعاصرة يعنى أنها امتداد زمنى للتراث تستمد منه مقوماتها وترتكز عليه وتضيف إليه وتبنى على قواعده الراسخة . أما المعاصرة التى تبنى قواعدها على الرمال فإنه لن يكون لها ثبات ولا استقرار .

وفى عالمنا المعاصر ظهر تيار جديد لا يستطيع أحد أن يتجاهله أو يقف فى طريقه ، هو تيار العولمة الجارف . والعولمة مثلها مثل أى ظاهرة جديدة تشتمل على إيجابيات ، كما تشتمل أيضًا على سلبيات .

ولا شك أن من الآثار السلبية للعولمة محاولة تذويب حضارات الأمم والشعوب المختلفة فى حضارة واحدة هى حضارة الأقوى . ولكن الأقوى ليس دائمًا على صواب . وإذا كانت الأمة الإسلامية قد توقف عطاؤها وتراجعت حضاريًا فى القرون الأخيرة فإن هذا التراجع الحضارى ليس قدرًا محتومًا لا يمكن تغييره ، وإنما هو مرحلة من مراحل تاريخ الأمة .

وإذا كانت هذه المرحلة قد طالت أكثر مما ينبغى فليس معنى ذلك أنه لا نهاية لها. فكل ما له بداية له نهاية . وفى غد نراه قريبًا ويراه أعداء الأمة بعيدًا سوف تكتب النهاية لهذا التراجع الحضارى بإرادة الأمة وعزيمتها وسواعد وعقول أبنائها . ومن هنا فإنه لا يجوز أن يكون هذا التراجع الحضارى المؤقت مبررًا لتخليها عن مواريثها الثقافية وهويتها الحضارية ، فارتباطها بموارثيها بمثابة ارتباط الروح بالجسد . وعليها أن تتبين مواطن الخلل فى مسيرتها لإصلاح المسار .

والمسلمون اليوم فى محاولتهم النهوض واللحاق بركب العصر فى حاجة ماسة إلى التعرف على منجزات العصر بعيون ناقدة كما فعل أسلافنا من قبل . وهذه النظرة النقدية لا يجوز أن تقتصر فقط على نقد ما لدى الآخرين وإنما تنسحب أيضًا على تراثنا . وهذا يعنى ضرورة تمكين العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل فى مسيرتنا الحضارية ، ومراجعة تراثنا مراجعة دقيقة بهدف وصل ما انقطع بينه وبين تطورات العصر وذلك بإزالة أسباب الجفوة المصطنعة بينها ، تلك الجفوة أو القطيعة التى يتبناها فريقان متنافران ، وكل منهما له أسبابه المختلفة تمامًا عن الفريق الآخر .

فالفريق الأول يتمسك بالتراث بإيجابياته وسلبياته ، ويغلق الباب تمامًا أمام أى شكل من أشكال المعاصرة ،ويرى أن المعاصرة ما هى إلا غطاء لمؤامرة ضد التراث ومحاولة ماكرة لمحو الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية . ومن أجل ذلك - كما يرى هذا الفريق - يجب التشبث بالتراث وحمايته من أخطار المعاصرة التى تشكل تهديدًا حقيقيًا للتراث .

أما الفريق الثانى فعلى الرغم من تبنيه للقطيعة بين التراث والمعاصرة فإن الأسباب التى تدفعه إلى ذلك مختلفة تمامًا عما أشرنا إليه لدى الفريق الأول . فإذا كان الفريق الأول يرفض المعاصرة لحساب التراث والحفاظ عليه فإن الفريق الثانى على العكس من ذلك يرفض التراث لحساب المعاصرة ، وينبنى هذا الرفض على أساس أن التمسك بالتراث هو سبب تخلف الأمة الإسلامية وأن المعاصرة هى طوق النجاة للأمة وهى سبيلها الأوحد للتقدم والرقى .

ونعتقد أن كلا من هذين الفريقين غير محق فيما ذهب إليه من تطرف ومبالغة فى وجهة النظر التى يتبناها كل منهما . فالتراث ليس خيرًا كله وليس شرًا كله أيضًا . ومن أجل ذلك فإن علينا أن ننقى تراثنا من الشوائب التى تضر ولا تنفع ، ولا ضير علينا إذا نظرنا فى تراثنا نظرة نقدية تبقى على كل ما هو إيجابى فى التراث وتنفى عنه كل السلبيات . وعندئذ سوف نرى أن التراث نفسه يدعو إلى المعاصرة الإيجابية .

ومن ناحية أخرى فإن المعاصرة أيضًا ، وإن شئت فقل العولمة ، ليست خيرًا كلها ولا شرًا كلها . ومن هنا فإن من واجبنا أن ننظر إليها نظرة نقدية نأخذ منها ما ينفعنا ويساعدنا فى مسيرتنا .ومن حقنا أن نرفض ما لا يلائمنا وما نرى أنه سيعود علينا بآثار سلبية ، كما سبق أن أوصانا بذلك ابن رشد .

وبعد هذه النظرة النقدية فى التراث من جانب وفى العولمة من جانب آخر سنجد أن القطيعة بينهما قد سقطت وحل محلها التواصل . وأمتنا الإسلامية فى أشد الحاجة إلى هذا التواصل المبنى على الوضوح وعلى النظرة النقدية البناءة . ولن يجدى أمتنا أن تقف موقف الرافض لكل شىء .فقطار التطور يسير بسرعة مذهلة ولن نستطيع أن نعزل أنفسنا بعيدًا عما يدور فى عصرنا من متغيرات متلاحقة .

* * *



ظاهرة الزواج العرفى [1]

لقد انتشرت فى السنوات الأخيرة ظاهرة انتشار الزواج العرفى بشكل لافت للنظر ، وتغلغلت هذه الظاهرة فى أوساط كثيرة فى المجتمع ووصلت إلى دور العلم المختلفة . وقد ترتب على ذلك العديد من المشكلات والكثير من المآسى . والضحية فى جميع الأحوال هن الفتيات اللاتى يتم التغرير بهن بوعود كاذبة . وقد تركز اهتمام الكثير من الفقهاء - للأسف الشديد - بشكل العقد فى هذا الزواج ، وأفاضوا فى الحديث عن قضية اكتمال أركان العقد فيه أو عدم اكتماله ، وأباح الكثيرون منهم هذا اللون من الزواج دون نظر إلى الآثار المدمرة المترتبة عليه ، ودون مراعاة لمصلحة الأفراد بصفة خاصة ومصلحة المجتمع بصفة عامة .

ومن المعروف لكل دارس للشريعة الإسلامية أنها تضع المصلحة المشروعة - مصلحة الأفراد والمجتمع - فوق كل اعتبار . فحيثما توجد المصلحة فثم شرع الله ، كما كان يقول الإمام نجم الدين الطوفى الذى كان يعتبر المصلحة مصدرًا مستقلاً للتشريع .

وإذا كان من القواعد المقررة فى الفقه الإسلامى أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأنه إذا تعارضت مفسدة ومصلحة فإن دفع المفسدة يقدم على جلب المصلحة ، وأنه إذا عم البلاء - والزواج العرفى أصبح بلاء لا يجوز تجاهله - فإن من حق الحاكم أو رئيس الدولة شرعًا تقييد المباح أو حتى تحريمه درءًا للمفاسد وصيانة للمجتمع .

---

(١) نشر بجريدة الأهرام فى ٣/ ٣/ ٢٠٠٨ .

لقد كان العرف السائد قديمًا هو عدم توثيق عقود الزواج ، فلم يكن التوثيق معروفًا ولا معمولاً به ، وكان يكفى تحقق أركان العقد مع العلانية ، ولم تكن هناك مشاكل تذكر . ومع تطور الزمن وتعقد الأمور وضياع الحقوق تغيرت الأوضاع الاجتماعية ، ودعت الحاجة إلى ضرورة التوثيق لعقود الزواج والطلاق ، واستقر الأمر على ذلك منذ عشرات السنين . وأصبح التوثيق عرفًا متبعًا لا خلاف عليه . وحل هذا العرف الجديد محل العرف القديم الذى كان سائدًا وهو عدم التوثيق .

والعرف له اعتباره فى الشريعة الإسلامية . فالمعروف عرفًا كالمشروط شرطًا ، كما هى القاعدة الفقهية . ومن الأمور المقررة لدى فقهاء الأمة الثقات ضرورة مراعاة الأعراف السائدة فى كل بلد عند التصدى لإصدار فتاوى شرعية تؤثر فى حياة الناس وسلوكهم . وفى ذلك يقول الإمام القرافى : « ينبغى للمفتى إذا ورد عليه مستفت، لا يعلم أنه من أهل البلد الذى منه المفتى وموضع الفتيا ألا يفتيه بما عادته أن يفتى به حتى يسأله عن بلده ، وهل حدث لهم عرف فى ذلك البلد فى هذا اللفظ اللغوى أم لا .» .

ومن المعروف أن الإمام الشافعى عندما قدم إلى مصر واستقر به المقام فيها بدأ يعيد النظر فى الآراء والفتاوى التى قال بها قبل ذلك فى بغداد ، نظرًا لما وجده من اختلاف فى الأعراف والتقاليد فى كلا القطرين .

وإذا كان من القواعد المقررة أنه « لا ضرر ولا ضرار » كما جاء فى الحديث النبوى الشريف[1] ، وإذا كان من المعروف أن الزواج العرفى كان سببًا فى ضياع حقوق أعداد كبيرة من الفتيات اللاتى يجدن أنفسهن بعد المرور بهذه التجربة المريرة لا يملكن أى دليل أو سند قانونى يحمى حقوقهن ويصون لهن كرامتهن . فإن السكوت على ذلك يعد إثمًا دينيًا واجتماعيًا وإنسانيًا .

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ، باب الأحكام .

ومن هنا فإن الضرورة تحتم وضع حد لهذه الممارسات غير الشرعية وغير القانونية ، وحماية المجتمع من الأضرار الماحقة لهذا اللون من الزواج الذى هو فى جوهره ليس زواجًا حقيقيًا ، وإنما هو بمثابة فخ منصوب للفتيات اللاتى يرتضين الدخول فى هذه التجربة . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إنه يعد نشرًا للفاحشة تحت غطاء دينى .

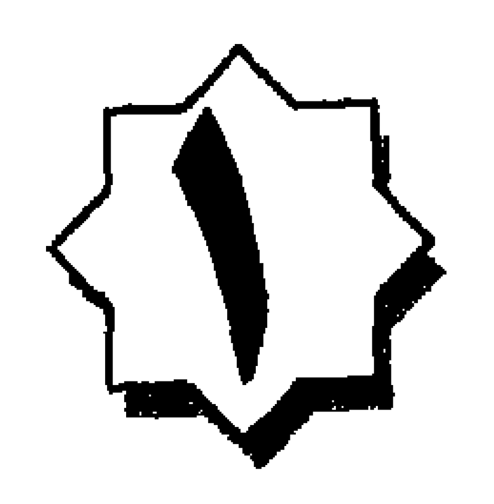
والذى أراه أن الوقت قد حان لوضع حد لهذا الزواج العرفى بأشكاله المختلفة ، وذلك بإصدار تشريع بتحريم هذا الزواج ، وإلزام كل من يريد الدخول فى علاقة زوجية بتوثيق عقد الزواج صيانة للحقوق وحماية لمصلحة الأفراد ومصلحة المجتمع .

* * *

الفصل الرابع

الإسلام والغرب وقضايا الحوار

- الإسلام والغرب
- الحوار الإسلامي المسيحي
- الحوار والتسامح
- الحقيقة المطلقة وحوار الأديان
- حول الإساءات المتكررة للنبي عليه الصلاة والسلام
- ظاهرة الإرهاب :
  الأبعاد والمخاطر وآليات المعالجة



الإسلام والغرب[1]

العلاقة بين الإسلام والغرب علاقة قديمة ومتجددة . وعلى مدى تاريخ الإسلام كله تأرجحت هذه العلاقة بين مد وجذب وصعود وهبوط وحرب وسلم

ولعل هناك كثيرين لا يعرفون أن البدايات الأولى لهذه العلاقة ترجع إلى زمن قديم قدم الإسلام ذاته ، وذلك فى وقت لم يكن قد حدث فيه أى لقاء مباشر بين الجانبين . ولكن البداية كانت على كل حال مبشرة بعلاقات طيبة مستقبلية ، على الأقل من جانب المسلمين . فقد أبدى المسلمون فى ذلك الوقت قبل الهجرة إلى المدينة تعاطفهم مع الروم المسيحيين عندما نشبت حرب بينهم وبين الفرس (الوثنيين فى ذلك الزمان) وانتهت بانتصار الفرس على الروم . ففرح المشركون فى مكة لأن الفرس كانوا وثنيين مثلهم ، وحزن المسلمون لأن الروم أهل كتاب مثلهم وهم أقرب إلى دينهم .وتجرأ المشركون على المسلمين وقالوا لهم : - « إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون (أى لا نؤمن بدين سماوى) . وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم » كما انتصرت فارس على الروم .

فنزلت الآيات الأولى من سورة الروم تبشر المسلمين بأن الغلبة فى المرة القادمة ستكون للروم بعد بضع سنين . وقد جاء هذا النصر بعد حوالى تسع سنوات ، ففرح به المؤمنون . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾[2] .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٦ ، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٧ .

(٢) سورة الروم : ٢ : ٥ .

وليس من غرضنا هنا أن نخوض فى تفاصيل تاريخ هذه العلاقات . ولكننا نود أن نتجه إلى المستقبل من خلال تأمل الواقع الراهن . فمتغيرات العصر المتسارعة وأحداثه المتلاحقة جعلت من الأمور الملحة ضرورة التعاون لمواجهة الأخطار المحدقة بعالمنا المعاصر . فما يجرى الآن فى مكان ما من العالم ينعكس أثره عاجلاً أو آجلاً فى كل مكان فى العالم تقريبًا . فكلنا فى عالم اليوم فى زورق واحد نتعرض جميعًا لنفس الأخطار التى تهددنا جميعًا.

وقد أُتيحت لى الفرصة فى الشهور القليلة الماضية للتحدث عن مستقبل العلاقة بين الغرب والإسلام فى محاضرتين فى كل من سويسرا وألمانيا مؤكدًا فيهما على أن مستقبل العلاقة بين عالمينا الإسلامى والغربى يتوقف على الحوار المثمر والتعاون البناء بينهما فى كل من شأنه أن يعود بالخير عليهما معًا . وقد لاحظت ظهور بعض التيارات الراديكالية فى أوروبا ، والتى لا تريد لهذه العلاقة أن تسير فى الطريق الصحيح وأن تنمو وتزدهر لصالح الجانبين ، وتحاول هذه التيارات إفساد الأجواء وإثارة الغبار وصرف الأنظار عن محاولات استعادة الثقة بين الجانبين وتحويلها إلى التخويف من خطر الإسلام والمسلمين .

وقد كان لى شخصيًا نصيب لا بأس به من الهجوم الضارى من جانب هذه التيارات قبل وبعد المحاضرة التى ألقيتها فى ألمانيا فى أكتوبر الماضى بزعم أننى أدعو إلى قتل المرتدين عن الإسلام ، وفوجئت بكم هائل من الهجوم على شبكة الإنترنت وبعض وسائل الإعلام . وعلى الرغم من ردى على هذا الاتهام فى الصحافة والإذاعة هناك إلا أن الهجوم لم يتوقف . وقد سئلت فى حديث للإذاعة الألمانية عن تفسيرى لهذا الهجوم إذا كان الاتهام باطلاً ، وكان ردى على ذلك أن لدى تفسيرًا واحدًا لهذه الحملة الظالمة وهو أن هؤلاء لا يريدون خيرًا للعلاقة بين الإسلام والغرب ، ومن أجل ذلك يحاولون جاهدين أن يصوروا الإسلام والمسلمين تصويرًا بشعًا يخيف الغرب من الإسلام والمسلمين ، كما أنهم لا يريدون أن تتاح الفرصة لصوت إسلامى معتدل يوضح الحقائق للجمهور الغربى .

وقد تأكد للجهة الداعية ممثلة فى عمدة مدينة أوزنابروك ورئيس الجامعة بها مدى كذب هذه الاتهامات . ومن هنا سارت الاستعدادات على نحو طبيعى لتنظيم المحاضرة والاستقبال فى القاعة التاريخية التى شهدت عام ١٦٤٨م إبرام اتفاقية السلام التى وضعت حدًا لحرب الثلاثين عامًا المشهورة فى التاريخ .

وبصرف النظر عن هذه المحاولات المعادية لكل ما هو إسلامى فإننى لا أزال على اقتناع تام بأن ما يجمع بين الجانبين - الغربى والإسلامى - أكثر مما يفرق بينهما . وقد أكد هذه الحقيقة الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا فى محاضرته عام ١٩٩٣ فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية حين قال : « **إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع مجالات البحث الإنسانى ، وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة ، إنه جزء من تراثنا وليس شيئًا منفصلاً عنه** » .

وفى السياق ذاته يقول روبين كوك وزير خارجية بريطانيا الراحل فى محاضرة له فى المركز الإسماعيلى فى لندن عام ١٩٩٨ : « **إن جذور ثقافتنا ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب بل هى إسلامية أيضًا ... وثقافتنا مَدينة للإسلام بدَين يجدر بالغرب ألا ينساه ... فإن الشئ الكثير من أسس حضارتنا يعود الفضل فيها إلى العالم الإسلامى** ».

وإذا كان البحر الأبيض المتوسط يفصل بين الشعوب الأوروبية والشعوب العربية الإسلامية التى تعيش على شاطئيه فإنه فى الوقت نفسه كان دائمًا حلقة وصل وجسرًا للتلاقى بين الجانبين . ومن هنا ظل التفاعل الثقافى قائمًا ومتواصلاً على مدى التاريخ رغم ما شاب هذه العلاقات فى فترات مختلفة من حروب وصدامات عسكرية .

ولكن دعاة صدام الحضارات لا يريدون أن يعترفوا بحقائق التاريخ ، بل يريدون إشعالها نارًا لا تنطفئ وحربًا لا تتوقف . ومن أجل ذلك كان الترويج ولايزال لصورة العدو المتبادلة بين الجانبين . فالإسلام هو العدو الأخضر بعد زوال صورة العدو الأحمر .

ومن هنا سمعنا فى الفترة الأخيرة شعارات تدق طبول الحرب . ومن ذلك على سبيل المثال : الغرب ضد بقية العالم The west against the rest ، والمقصود فى الحقيقة هم المسلمون على وجه الخصوص ، كما سمعنا التلميح بحرب صليبية ضد الإسلام بوصفها الوسيلة الوحيدة لحل جميع المشكلات . ومرة أخرى يتم العثور على كبش فداء لتحميله كل الآثام . فبالأمس كان استهداف اليهود ، واليوم يتم استهداف المسلمين . وأصبح من يملك القوة يستأثر بالحق ، « ومن ليس معنا فهو ضدنا» . فهل يمكن أن تكون هناك رسالة أكثر وضوحًا من ذلك ؟

إن المنادين بالصدام بين الحضارات والمروجين له يعتمدون على اختلاف الثقافات والأديان ، ومن ثم فلا أمل فى التلاقى . فالصدام فى رأيهم آت لا محالة . ولكن الذى يتأمل تاريخ البشرية يتضح له أن اختلاف الشعوب والثقافات والتفاعل الحضارى فيما بينها كان دائمًا يمثل دافعًا حاسمًا للتطور الإيجابى فى مختلف المجالات .

والقرآن الكريم لم يجعل من اختلاف الشعوب والثقافات منطلقًا للنزاع والشقاق ، بل على العكس من ذلك تمامًا . فهذه الاختلافات تعد من وجهة النظر الإسلامية منطلقًا للتعارف والتآلف والتعاون فى كل ما من شأنه أن يعود بالخير على الجميع : ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1] .

ويضاف إلى ذلك أن الشعوب فى عصرنا الحاضر ، عصر العولمة ، لم تعد كحالها فيما مضى يعيش بعضها بجانب البعض الآخر ، بل أصبحت إلى حد كبير يعيش بعضها مع البعض الآخر . فإذا كنا نريد العمل على تحقيق تعاون مثمر لتفاعل الثقافات ، فخير لنا ألا ننطلق من أى تعميمات أو تصنيفات للشعوب والثقافات والأجناس ، بل علينا أن ننطلق بالأحرى بادئ ذى بدء من القواسم المشتركة التى تجمعنا ومن الأوضاع المشتركة على وجه الخصوص .

فإذا كان علينا أن نطفئ حريقًا نشب فى أحد البيوت فإننا لا نسأل عن كل من يقيمون فيه ولا ندقق فى التعرف عليهم فردًا فردًا ، بل نطفئ الحريق بأقصى سرعة

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

ممكنة ، ونعمل على ألا تنتشر النار فى البيوت المجاورة . وهذا هو موقف الإسلام الذى دعا إلى التضامن بين البشر جميعًا من أجل درء الأخطار التى تهدد العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعًا .

وفى هذا الصدد يصور النبى عليه الصلاة والسلام البشرية كلها وقد اجتمعت فى سفينة بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . فكان الذين فى أسفلها إذا احتاجوا إلى الماء صعدوا إلى أعلى السفينة . وقد تعبوا من الصعود والهبوط ومضايقة الآخرين. وتفاديًا لذلك كله فكروا فى إحداث خرق فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن هؤلاء لو تركوا يفعلون ما يشاءون هلك الجميع وغرقت السفينة[1] . ومن هنا فإنه لابد من التعاون بين الجميع من أجل درء الخطر عنهم جميعًا .

والأمر الذى لا جدال فيه أن عصرنا قد تميز عن العصور السابقة بإنجازات غير مسبوقة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات . وهذه حقيقة ماثلة للعيان . ولم تقتصر هذه التطورات بطبيعة الحال على تأمين السلم والأمن للمجتمعات بل امتدت إلى أدوات الحرب . فبينما كانت الحروب فى سابق الأزمان تنشب بين بعض البلدان ، أو فى داخل البلدان ذاتها ، تغير الوضع بعد أن ابتدع عصرنا شيئًا جديدًا وهو الحروب العالمية والقنبلة الذرية .

وهذا يعنى أن قضية الحرب والسلام - أى الهدم والبناء - قد أصبحت بدرجات متفاوتة تمس العالم كله . وهذا يعنى أن التضامن العالمى أصبح ضرورة ملحة وله أولوية على كل أشكال التضامن الأخرى ذات التكتلات أو العصبيات الضيقة . ولن نستطيع البحث عن سبل لحل مشكلاتنا المشتركة إلا إذا كنا فى العالمين الإسلامى والغربى على استعداد لأن نتخلى عن الأحكام المسبقة القديمة وأن يحترم كل منا الآخر ويحترم ثقافته وموروثاته الحضارية .

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

وفضلاً عن ذلك فإن علينا ونحن بصدد اتخاذ قرارات مصيرية ألا نقصر تفكيرنا على اليوم وعلى اهتماماتنا الخاصة القصيرة الأجل وإنما علينا أن نفكر فى المقام الأول فى المستقبل الذى نحدده بقراراتنا التى نتخذها اليوم . والمستقبل لا يبدأ فى زمن بعيد ، بل يبدأ غدًا ، وإذا أردنا الدقة يبدأ فى كل لحظة وتبدأ عندئذ مسئوليتنا حيال هذا المستقبل .

وهؤلاء الذين يروجون لما يسمى بالفوضى الخلاقة فى العالم الإسلامى ، يتجاهلون المستقبل المشترك ولا يقدرون المسئولية العالمية . ولا يفكرون إلا فى سياساتهم القصيرة الأجل الهادفة إلى الهيمنة والمصالح الضيقة . والهدف من هذه الفوضى الخلاقة المزعومة هو إعلاء ثقافة الأقوى وبسط هيمنته فى هذا العالم ، وهذا يؤدى بدوره إلى تحطيم البقية الباقية من الثقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية . والترويج للفوضى الخلاقة لن يؤدى فى حقيقة الأمر إلا إلى فوضى واضطراب وفتن ونعرات عصبية وانشقاقات داخل المجتمع دون أى خلق جديد . وأمامنا النماذج المعبرة عن ذلك فى التدمير الذى تم على نحو منهجى فى بعض البلدان كالعراق ، والتخريب الذى يتم التخطيط له فى بلدان أخرى . والمتأمل فى هذه الأوضاع يتضح له أن مسار العولمة الحالية لن يؤدى إلى عولمة البشر وثقافتهم وإنما إلى عولمة الآلات والحروب .

ولعله كان من الأجدى إنفاق مئات المليارات من الدولارات - التى تنفق سنويًا على الحروب وعلى المزيد من التسلح - فى محاربة الفقر الذى يعد السبب الرئيسى لكل الصراعات ، وفى مقدمتها الإرهاب الدولى .

ومن المؤكد أن احترام ثقافات الشعوب ومعتقداتها ضرورى لفتح آفاق التعاون بين البشر . فمن حق كل أمة أن تكون لها ثقافتها ومنظومتها الاجتماعية والسياسية والقيمية الخاصة بها . والحوار المستمر بين الثقافات هو الذى يبقى عليها ويضمن تجديدها المتواصل ويرسخ قيم التسامح والاحترام المتبادل والتعددية الثقافية .

ولم يقتصر الأمر على تخريب عوالمنا الثقافية وقيمها العالمية نتيجة للحروب المتواصلة ، وإنما انتقل التخريب إلى الاستغلال الجائر والتدمير المتواصل لكوكبنا

الأرضي . صحيح أن الأرض لا ترد على ما تتعرض له بأعمال إرهابية ، بل بكوارث بيئية متزايدة تهدد العالم كله بالدمار . ومن بين الأسباب التى تعمل على تدمير البيئة على سبيل المثال انبعاث الغازات الضارة بالبيئة والاحتباس الحرارى والنفايات النووية ولا شك فى أن العالم الغربى وحده يتحمل النصيب الأكبر فى الإضرار بالبيئة.

إن ما نسعى إليه جميعًا هو فى نهاية المطاف نفس الشئ : أى حياة كريمة باعتبارنا أعضاء فى مجتمع إنسانى . وهذا يتطلب أن نسعى فى مجتمعنا المتعولم أولاً وقبل كل شئ إلى السلام فى عالمنا وإلى ما يرتبط به أو ما هو شرط له ، ألا وهو احترام حقوق جميع البشر أفرادًا وشعوبًا . ولكن الأمر المؤسف أنه غالبًا ما يتم الانحراف عن ذلك والانزلاق إلى حروب حمقاء لا معنى لها .

إننا نعتقد أن الإرادة الطيبة اللازمة للتعاون من أجل تحقيق هذا الهدف الإنسانى النبيل قائمة لدى العقلاء من الجانبين بصرف النظر عن المجموعات الراديكالية هنا وهناك . والمسئولية العالمية اليوم بالنسبة لنا لم تعد مجرد وصية من وصايا الأديان قد نتبعها وقد لا نتبعها ، فالقضية الآن قد أصبحت مصيرية ، أى قضية حياة أو موت .

والأمر الذى يجب التأكيد عليه أن اختلاف الشعوب والثقافات والديانات لا يمثل عقبة فى سبيل التوصل إلى تفاهم مشترك وتعاون بين البشر ، وإنما هو بالأحرى يمثل إثراء للتجربة البشرية ، وفهم كل منا للآخر يزيد من فهمنا لذواتنا . فنحن فى حاجة إلى الآخر ، كما أن الآخر فى حاجة إلينا . والآخر لا يمثل جحيمًا بالنسبة لنا – كما كان يقول سارتر – وإنما يمثل فى حقيقة الأمر فرصة ثرية تؤكد لدينا قيم التسامح وقبول الآخر والاحترام المتبادل ، وبالتالى تكون هناك فرصة لحل المشكلات المشتركة .

وهذا كله يتوقف على إعادة بناء الثقة بين الجانبين لإجراء حوار مثمر بينهما . ولا يجوز أن ينظر الغرب إلى الإسلام أو العالم الإسلامى على أنه مصدر الإرهاب أو بؤرة تفريخ للإرهاب . فهذه النظرة لا تعد فقط نظرة سطحية ، بل هى خاطئة تمامًا ،

وتؤدى إلى تدمير العلاقة بين الجانبين . فالإرهاب ليس من طبيعة الإسلام . والواقع يبين لنا أنه ظاهرة عالمية . والإرهابيون موجودون فى الغرب وفى الشرق على السواء ولكنهم قلة قليلة . ومن هنا فإنه لابد من أن تتعاون الكثرة الغالبة على الجانبين إلى التوصل إلى كلمة سواء .

ولكن الأمر الذى يقلق العالم الإسلامى حقًا ويثير الشكوك فى نفسه هو لجوء الغرب إلى معايير مزدوجة والكيل بمكيالين فى تعامله مع قضايا العالم الإسلامى وبخاصة فى الشرق الأوسط . وذلك فضلاً عن إشعال حروب فى المنطقة بحجة نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان فى حين أن هذه القيم ينبغى أن تنبع من الداخل ولا يمكن فرضها بالعنف . فالعنف لا يؤدى إلا إلى عنف مضاد . والعنف المضاد قد ينقلب إلى إرهاب . وفى خضم هذا الصخب المعكر لصفو العلاقات بين الجانبين الغربى والإسلامى نجد هناك أصواتًا عاقلة على كلا الجانبين وهى أصوات جديرة بالاستماع إليها والتجاوب معها .

ومن بين أمثلة عديدة فى هذا الصدد نشير إلى أحد أساتذة اللاهوت المشهورين ليس فقط فى ألمانيا بل فى العالم ، والذى أصدر ثلاثة مجلدات كبيرة درس فيها اليهودية والمسيحية والإسلام ، هذا الأستاذ هو هانز كونج الذى يقول فى محاضرة له منذ سنوات قليلة فى مدينة فرايبورج الألمانية : « **لا توجد دولة إسلامية حتى الآن قامت بالاعتداء على دولة غربية ، ولكن العكس هو الصحيح . وهذا من وجهة النظر الإسلامية يظهر الغرب فى صورة المعتدى** » .

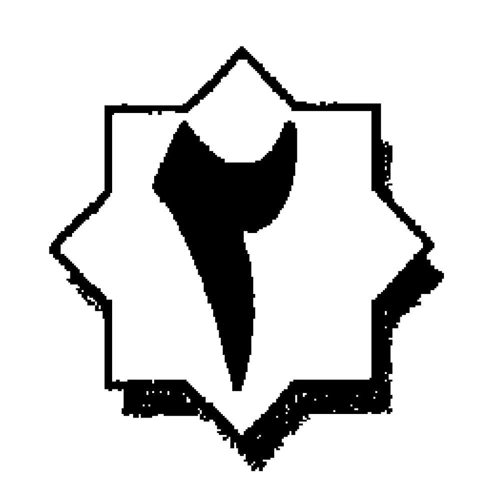
كما يقول عالم الإسلاميات المعروف فريتس اشتبيات فى كتاب له بعنوان : «**الإسلام شريكًا**» : « **إن الإسلام لا يشكل تهديدًا للعالم . ولكن الكثيرين من المسلمين يشعرون بأنهم مهددون فى عالمنا ، ومن الممكن والحال كذلك أن تنبثق عن هذا الشعور تصرفات رعناء وعدوانية . وإذا كانت الأصولية فى العالم الإسلامى ينظر إليها على أنها رد فعل حيال موقف تاريخى فلا ينبغى لنا أن نتوقع أنها ستفقد شيئًا من أهميتها قبل أن يتغير هذا الموقف من أساسه** » .

لقد كان الإسلام شريكًا مهمًا للغرب فى تاريخ تطوره ، وتلك حقيقة لا يجوز تجاهلها ، فقد كان العالم الإسلامى هو الذى أعطى الدفعة الحاسمة لنشأة الحضارة الغربية الحديثة ، عندما كانت حضارة المسلمين فى قمة ازدهارها فى الأندلس ، وعن طريق المؤثرات الحضارية الإسلامية استطاعت أوروبا أن تتخلص فى العصر الوسيط من جمودها وتخلفها . ومن المعروف أن أوروبا لم تعرف الفلسفة اليونانية فى بادئ الأمر إلا عن طريق المؤلفات العربية ، ولم تبدأ فى التعرف عليها من مصادرها اليونانية إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر .

ومن الأمور المصيرية التى يجب أن نلفت النظر إليها ، والتى يؤكد عليها عدد من عقلاء الغرب أيضًا ، أن أمن أوروبا لم يعد من الممكن تصوره بدون استقرار الأوضاع واستتباب الأمن والسلام فى الشرق الأوسط . والسلام لا يمكن فرضه بالعنف ، وإنما يمكن التوصل إليه عن طريق الحوار ومن خلال الشراكة والتعاون بين الجانبين من أجل خيرهما معًا

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان فى رحلة البحث عن السلام أن نضع فى اعتبارنا مصلحة الأجيال الجديدة التى هى مستقبلنا . ونظرًا لأنه لم يكن لهم أى ذنب فيما حدث فى الماضى من آثام وحروب وتدمير فإنهم يستحقون منا أن نتيح لهم فرصة النجاة والبقاء ، وبالتالى نتيح الفرصة للسلام والاستقرار ، وبذلك نصنع دوائر سلام تتزايد مساحتها باستمرار .

* * *



الحوار الإسلامى المسيحى[1]

١ـ تمهيد : ضرورة الحوار :

لقد أصبحت قضية الحوار فى عالم اليوم قضية ملحة على جميع المستويات . فنحن نعيش فى عصر تشابكت فيه المصالح وتعقدت فيه المشكلات على نحو لم يسبق له مثيل . وقد أصبح البحث عن حلول لهذه المشكلات عن طريق الحوار أمرًا ضروريًا . وقد يكون الحوار محليًا أو إقليميًا أو عالميًا حسب طبيعة القضايا المثارة ، وعلى كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها من مشكلات .

ومن هنا يمكن القول بأن الحوار قد أصبح ضرورة من ضرورات العصر للتغلب على المشكلات الواقعية فى عالمنا . والقضايا الدينية تعد جزءًا لا يتجزأ من مشكلات عالمنا الواقعية ، بل تعد القضايا الدينية فى كثير من الأحيان بمثابة الخلفية الفكرية لبقية المشكلات لما للدين من تأثير عميق فى نفوس الناس . هكذا كان الحال فى السابق ، ولا يزال الحال كذلك حتى اليوم رغم ما نراه فى كل مكان من مظاهر علمانية فى الشرق والغرب أو تصريحات سياسية تنكر هذه الحقيقة .

والحوار الدينى يعد أيضًا جزءًا لا يتجزأ من الحوار بين الحضارات . فالحضارات فى كل مكان فى العالم قامت أساسًا على قاعدة من الدين . ويعد الدين حتى اليوم فى نظر كتاب معاصرين فى الغرب أحد المكونات الرئيسية لأى حضارة بالإضافة إلى اللغة والتاريخ والثقافة .

ومن هنا يصف الغرب حضارته بأنها حضارة مسيحية كما نصف – نحن المسلمين – حضارتنا بأنها حضارة إسلامية . ومن أجل ذلك كله فإن الحوار الدينى

---

(١) محاضرة ألقيت فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (مايو ٢٠٠٨) .

لا يمكن عزله عن أشكال الحوارات الأخرى ، لأنه يتشابك معها بطريقة أو بأخرى تشابكًا ظاهرًا أو خفيًا أردنا أم لم نرد . وقد أكد هذه الحقيقة أحد علماء الأديان المعاصرين المستنيرين فى ألمانيا وهو الأستاذ هانز كونج بقوله : «لن يكون هناك سلام فى العالم إلا إذا كان هناك سلام بين الأديان ، ولن يكون هناك سلام بين الأديان إلا إذا كان هناك حوار بين الأديان ، ولن يكون هناك حوار مثمر بين الأديان إلا إذا كانت هناك دراسة متعمقة للأديان » .

وإذا كان عالمنا يتجه إلى الحوار على المستويات الأخرى فمن باب أولى ينبغى أن يكون هناك حوار على المستوى الدينى بهدف القضاء على الكثير من مظاهر الصراعات التى تلعب فيها العقيدة الدينية دورًا خطيرًا . وإذا كنا فى الماضى قد شهدنا حروبًا صليبية صريحة يرفع فيها شعار الدين فنحن نشهد اليوم حروبًا مظهرها عرقى أو اقتصادى أو غير ذلك من مسميات ولكن خلفيتها دينية بالدرجة الأولى وإن أنكر البعض ذلك . وهناك أمثلة عديدة على ذلك فى عالمنا المعاصر .

٢ ـ شروط الحوار :

وقبل أن أدخل فى تفاصيل الموضوع المطروح وهو الحوار الإسلامى المسيحى أود أن أوضح أولاً شروط الحوار بصفة عامة وهو ما ينطبق فى النهاية على الحوار الدينى أيضًا .

الحوار كما هو معروف يقتضى أن يكون هناك طرفان كل منهما ند للآخر . فالحوار بين طرف قوى يدرك مدى قوته ، وطرف ضعيف على وعى بضعفه ، يجعل الطرف القوى فى وضع يملى فيه شروطه على الطرف الضعيف الذى لا يكون لديه مجال للمناورة ، ومن هنا لا يكون هناك حوار ، بل يكون بالأحرى إرغامًا وفرضًا للرأى عن طريق القوة وإن كان فى الظاهر يأخذ شكل الحوار .

ويقتضى الحوار أيضًا أن تكون هناك قضية يتحاور الجانبان بشأنها ،ولابد فى هذه الحالة أن تحدد بدقة عناصر القضية حتى لا يكون الحوار دائرًا فى حلقة مفرغة مثل حوار الصم أو « الطرشان » ، كل يتحدث بلغة مختلفة وبمفاهيم مختلفة لا تربط بينها أرضية مشتركة .

ويتطلب الأمر أيضًا تحديدًا واضحًا لأهداف الحوار حتى تكون هذه الأهـداف دليل المتحاورين لا يحيد عنها طرف من الأطراف . ولا يجوز التقليل من أهمية هـذا التحديد الواضح للأهداف إذ بدونه سنجد كل طرف يغنى على ليلاه الأمـر الـذى يبعد المتحاورين عن إمكان الوصول إلى أى شيء مفيد .

ويضاف إلى ذلك ضرورة أن يكـون هنـاك منـاخ مناسـب للحـوار ينـأى عـن الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة ، ويتحرر من العقـد النفسية سـواء كـان ذلـك يتمثـل فى عقـد التفـوق فى جانـب أو مركـب الـنقص فى جانـب آخـر . فـالنعرات الاستعلائية خطرها فى أى حوار لا يقل عن خطر الشعور بالدونية .

وهكذا نجد أن أى حوار يمكن أن يكتب له النجـاح لا يجـوز أن تكـون غايتـه العمل على إلغاء الآخر ، أو استبعاده ، أو التقليل مـن شـأنه ، أو الادعـاء باحتكـار الحق دون الآخر . ولا يجوز أن تتخذ الحوارات الدينية ذريعة لسب دين الآخرين أو الاستهزاء به والسخرية منه . وقـد نهانـا القـرآن الكـريم أن نـسب المشركين حتـى لا يسبوا ديننا ، وذلـك فى قولـه تعـالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1] . كذلك لا يجـوز أن يـشتغل الإنـسان المـشارك فى الحوار بين الأديان بموضوعات هدفها المماراة والمخاصـمة ، بـل عليـه أن يجتهـد فى استخلاص النقاط المشتركة بين الأديان .

ويمكن القول بأن الحوار الدينى بالمعنى الحقيقى لهـذا المفهـوم لابـد أن ينطلـق بالإضافة إلى ما تقدم - من الاحترام المتبادل والمساواة التامـة بـين الطـرفين - ومـن نظرة إنسانية شاملة تقوم على احـترام الكرامـة الإنـسانية ووحـدة الجـنس البـشرى وانتفاء الأنانية والفهم المتبادل بمعنى التسليم بحق كل طـرف فى أن يكـون مفهومًـا من الطرف الآخر دون أى لون من ألوان التشويه أو التزييف .

(١) سورة الأنعام : ١٠٨ .

٣ ـ موقف الإسلام من الحوار بين الأديان :

لقد انطلقت المبادرة إلى الحوار الدينى فى الأساس من الإسلام . ويعد الإسلام أول دين فى تاريخ البشرية يؤكد على ضرورة الحوار الصريح بين الأديان . وقد استطاع اتخاذ هذا الموقف لأنه أول دين يعترف بوضوح بالأديان السماوية جميعها بوصفها طرقًا موصلة إلى الله . وقد جاءت الدعوة إلى الحوار بين الأديان فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١] .

فهذه الدعوة القرآنية دعوة صريحة إلى الحوار الدينى بين طرفين : الجانب الإسلامى وجانب أهل الكتاب من المسيحيين واليهود ، وهناك قضية يدور الحوار حولها وهى القضية المحورية فى الدين أساسًا وهى قضية وحدة الألوهية .

ولا يكتفى القرآن الكريم بمجرد المبادرة ، بل يرسم أيضًا أسلوب الحوار . فالحوار سيؤدى بطبيعة الحال إلى مناقشات ومجادلات ، ولكنها ينبغى أن تلتزم بأدب الحوار . ومن هنا يقول القرآن فى ذلك : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٢] ، كما جعل القرآن الجدال بالحسنى أحد المناهج التى يتحتم على الدعاة إلى الإسلام اتباعها ، لا مع أهل الكتاب فقط ، بل مع كل الناس : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٣] .

ويمتاز موقف الإسلام فى أى حوار مع الأديان الأخرى بميزة كبرى لا تتوافر لغيره من الأديان وهى إيمانه بكل الديانات السماوية السابقة عليه - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - . وهذه الميزة تجعله متحررًا من العقد والحساسيات والنفور الذى قد يشعر به الآخرون فى مثل هذه الأحوال .

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٣) سورة النحل : ١٢٥ .

ومن أجل أن يكون هناك حوار مثمر وتعاون وثيق بين الجماعات البشرية أيًا كانت انتماءاتها - دعا القرآن الكريم إلى ضرورة تعرف كل جانب على الجانب الآخر وتفهم مواقفه على قاعدة من المساواة التامة . وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[1].

وهذه الآية تبرز المعنى الإنسانى العام لطبيعة الإسلام . فنحن نتعرف على الآخر من خلال تعرفنا على أنفسنا ، الأمر الذى يؤكد وحدة الإنسانية ، وهى تلك الوحدة التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2] . وقد أكد الإسلام هذه الوحدة تأكيدًا لا يقبل التأويل حين اعتبر أن الإساءة إلى فرد واحد من أفراد الإنسانية تعد إساءة إلى الإنسانية كلها ، وفى المقابل يعد تقديم الخير إلى فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة تقديم الخير إلى الإنسانية كلها . وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة : ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾[3] .

وإذا كان القرآن الكريم قد اهتم اهتمامًا واضحًا بتأكيد الوحدة بين بنى الإنسان جميعًا بصفة عامة ، فإنه من ناحية أخرى قد اهتم أيضًا بصفة خاصة بتأكيد العلاقة الوثيقة التى تربط بين المسلمين والمسيحيين فى قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[4] .

وقد شعر المسلمون منذ البداية بهذه القرابة الروحية بين الإسلام والمسيحية . ومن هنا كان تعاطف المسلمين مع الروم المسيحيين عندما نشبت الحرب بينهم وبين

(١) سورة الحجرات : ١٣ .
(٢) سورة النساء : ١ .
(٣) سورة المائدة : ٣٢ .
(٤) سورة المائدة : ٨٢ .

الفرس الوثنيين آنذاك قبل الهجرة إلى المدينة المنورة . فعندما انتهت هذه الحرب بهزيمة الروم حزن المسلمون حزنًا شديدًا ، وفرح مشركو مكة لأن الفرس كانوا وثنيين مثلهم، وتجرءوا على المسلمين وقالوا لهم : «إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون (أى لا نؤمن بدين سماوى) ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم» كما انتصرت فارس على الروم .فنزلت الآيات الأولى من سورة الروم تبشر المسلمين بأن الغلبة فى المرة القادمة ستكون للروم بعد بضع سنين . وقد جاء هذا النصر الموعود بعد حوالى تسع سنوات ففرح به المؤمنون . وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

وأول من أجرى حوارًا مع المسيحيين فى الإسلام كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم . فقد أجرى حوارًا فى مسجده بالمدينة المنورة مع وفد من نصارى نجران بقيادة أسقفهم أبى الحارث . وكان حوارًا اتسم بأقصى درجات التسامح . فعندما دخل هذا الوفد إلى مسجد الرسول اتخذ أعضاؤه لأنفسهم ركنًا فى المسجد وبدءوا فى أداء صلواتهم . وقد استفز ذلك بعض الصحابة . ولكن النبى قال لهم : اتركوهم حتى ينتهوا من صلاتهم . وبعد انتهاء الصلاة جرى حوار هادئ بين النبى وبين هذا الوفد . فقد شرح لهم النبى عليه الصلاة والسلام رسالة الإسلام وما تشتمل عليه من تعاليم ، ومن جانبه شرح الوفد ما تشتمل عليه المسيحية من تعاليم . وكان هذا الحوار نموذجًا يحتذى ودرسًا فى التسامح للأجيال التالية .

ومثل هذه الحوارات الدينية الصريحة بين الأديان أو بين المذاهب المختلفة كانت تقام – على سبيل المثال – فى العصر العباسى ، وكان الخلفاء يدعمونها ، بل كثيرًا ما كانوا يترأسونها . وكانت تجرى فى جو من الصراحة الكاملة وتتضمن مناقشات علمية بين علماء يمثلون مختلف الطوائف والمذاهب والأديان .

---

(١) سورة الروم : ١ : ٥ .

وقد استطاع الإسلام أن يهيئ المناخ المناسب للحوار بين الأديان بما قرره من مبدأ حرية الاعتقاد والاعتراف بالتعددية الدينية التى وضع النبى عليه الصلاة والسلام أساسها الراسخ فى صحيفة المدنية التى تعد أول دستور يؤكد هذه الحقوق ويدافع عنها . وتأسيسًا على ذلك لم يلجأ الإسلام إلى إجبار أحد من أهل الكتاب على الدخول فى الإسلام .

ومن الثابت أن النبى عليه الصلاة والسلام قد كتب فى إحدى رسائله إلى أهل اليمن : «**إنه من كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يفتن عنها**»[1] ، كما كان أيضًا شديد الاهتمام بالحفاظ على الحقوق الإنسانية لغير المسلمين . ولهذا كتب - على سبيل المثال فى إحدى رسائله إلى أهل نجران : «**ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على ما لهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته**»[2] .

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون . فقد ضمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب « للسكان المسيحيين من القدس أمنهم . وأعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ... لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شئ من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام لم يقر فقط مبدأ الحوار بين الأديان بل دعا إليه ، كما قرر حرية الاعتقاد وأكد على ضرورة احترام التعددية الدينية وكفالة حقوق غير المسلمين ، وبذلك وضع الشروط الكفيلة لإنجاح أى حوار على المستوى الدينى الذى هو أعقد أنواع الحوارات على الإطلاق، لأنه لا يمس أمور الحياة الدنيوية العادية التى يمكن التساهل فيها ، وإنما يمس أمور العقيدة الدينية المترسخة فى النفوس والمتغلغلة فى الأعماق . فهى بطبيعتها أمور

(١) رواه البيهقى فى سننه .

(٢) رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

حساسة . ومع ذلك لا ينبغى أن نتهيب أو نخاف من إجراء حوار حولها إذا ما توافرت الشروط الضرورية لذلك .

٤ ـ مجالات الحوار مع الأديان الأخرى :

والسؤال المطروح الآن هو : ما هى القضايا التى يمكن أن تكون مجالاً للحوار مع أتباع الأديان الأخرى ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يمكن تلخيصها بالإشارة إلى محورين أساسيين يشكلان بصفة رئيسية مجالات الحوار الدينى الممكنة .

أولهما : الحوار حول العقائد التى تشتمل عليها الأديان .

وثانيهما : الحوار حول ما تشتمل عليه الأديان من قيم إنسانية .

(أ) حوار حول العقائد :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن القرآن الكريم قد طرح أهم قضايا الدين موضوعًا للحوار ونعنى بذلك قضية وحدة الألوهية . ومع ذلك لم يلجأ إلى أسلوب التخويف أو الإرغام لفرض وجهة النظر الإسلامية ، بل أكد فى وضوح لا لبس فيه حرية الاعتقاد : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1] . فإذا لم يقتنع الطرف الآخر بما يلقى إليه من أدلة وبراهين فهذا شأنه ، ولا سبيل لأحد عليه . فكل صاحب معتقد متمسك بمعتقده وما ترسخ فى ذهنه منذ نعومة أظفاره ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾[2] .

ولكن ليس معنى ذلك أن الأبواب قد سُدَّت ، وأن المنافذ قد أغلقت وأننا عندئذ نكون قد وصلنا إلى مرحلة اليأس من احتمال إجراء حوار مثمر بين الإسلام والأديان السماوية الأخرى . فهناك مجال آخر للحوار يمكن أن يصل فيه الطرفان إلى نتائج إيجابية وهو مجال الحوار حول ما تشتمل عليه الأديان من قيم إنسانية .

(ب) حوار حول القيم الإنسانية فى الأديان :

وهذا مجال ثرى ، فالأديان كلها أتت من أجل خير الإنسان وسعادته فى العاجل والآجل ، والقيم الدينية فى كل حضارة كانت هى الأساس الراسخ للقيم

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

الأخلاقية السامية والمبادئ الإنسانية الرفيعة . ومن هنا فإن الحوار حول ما يجمع أصحاب الأديان من قيم إنسانية مشتركة هو أفضل السبل لتفهم كل جانب للآخر، والتعاون البناء من أجل خير الإنسان وتقدمه واستقرار الأمن والسلام فى العالم . وعلى هذا النحو يمكن إقرار السلام بين الأديان الذى يعد شرطًا لا مفر منه لإقرار السلام بين بنى البشر .

ومن هنا لابد أن يكون الهدف القريب للحوار هو الوصول إلى شكل من أشكال التفاهم المثمر ضد كل شكل من أشكال الإلحاد الذى يهدد كل الأديان، وفى سبيل الخير العام للبشرية كلها للقضاء على الكثير من أشكال الصراع فى العالم . وهذا من شأنه أن يجعل هدف الحوار النهائى هو التعايش السلمى الإيجابى بين الأديان بصفة عامة ، وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة . من أجل خير الإنسان من حيث هو إنسان حتى يعم السلام العالم كله .

وقد رسم لنا الإسلام الطريق الصحيح للتعامل مع الآخرين على أساس من التعايش الإيجابى المثمر بين الشعوب من كل الأديان طالما أن الآخرين لا يعتدون علينا . وجاء هذا التوجيه الربانى فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

٥ ـ الحوار مع المؤسسة الاستشراقية :

ويتصل بالحوار الإسلامى المسيحى قضية أخرى بالغة الأهمية تتمثل فى ضرورة الحوار مع المستشرقين فى الغرب .

فالحوار مع المؤسسة الاستشراقية الغربية يعد أحد العناصر المهمة للحوار بين الإسلام والمسيحية لسبب مهم وهو أن الاستشراق فى الغرب نشأ فى الأصل نشأة لاهوتية لخدمة أغراض دينية تبشيرية . وقد كان ذلك واضحًا عندما صدر قرار مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢ بإنشاء أقسام للغة العربية فى خمس جامعات أوروبية هى

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

جامعات باريس وأكسفورد وسلمنكا وبولونيا بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية، كما أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦ قد نص صراحة على خدمة الهدف الدينى ، بالإضافة إلى الهدف التجارى أو الاقتصادى.

ولم يكن من السهل فى ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو التبشير أو عن الدافع الدينى بصفة عامة . فقد كان الدافع الدينى هو السبب الأول فى نشأة الاستشراق .

وإذا كانت الصبغة اللاهوتية للدراسات الاستشراقية حول الإسلام قد خفت حدتها وبدأ يحل محلها بالتدريج منذ منتصف القرن التاسع عشر صبغة علمية أكاديمية فإن استمرار الاستشراق فى الاشتغال بالإسلام والعلوم الإسلامية كانت نتيجته أن أصبح لدى الغرب الآن كم كبير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام لها تأثيرها الكبير فى أوساط المؤسسات الدينية الغربية .

ولا شك فى أن هناك اتجاهات عديدة فى أوساط المستشرقين فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين . فهناك المتعصبون الكارهون للإسلام ، وهناك المعتدلون الذين يحاولون تحرى الموضوعية والنزاهة العلمية فى دراساتهم عن الإسلام والمسلمين . وتاريخ الاستشراق حافل بالدراسات المنصفة والمغرضة . ومن هنا لا ينبغى أن نضع المستشرقين جميعًا فى سلة واحدة .

ومن المفيد جدًا أن يكون للمؤسسات العلمية الإسلامية صلات بالمستشرقين المعتدلين تهدف إلى إجراء حوار مستمر معهم وعقد لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين .

ولا جدال فى أن مثل هذه الحوارات سيكون لها أثرها الإيجابى على كلا الجانبين. فمن ناحية ستكون دعمًا لمواقف هؤلاء المستشرقين وتقوية لجانبهم وتشجيعًا لاتجاهاتهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة فى يوم من الأيام تيارًا عامًا فى الغرب يكون له أثره الفعال فى تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام فى العالم الغربى .

وسن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم وتقليدهم لهذه الأفكار وإعادتهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة .

والخلاصة أن الحوار مع المؤسسة الاستشراقية يدعم من غير شك الحوار الإسلامى المسيحى ، ولا يجوز تجاهله لأن الدراسات الاستشراقية تدلى برأيها فى كل خصوصيات الإسلام دينًا وحضارة وتاريخًا . وتعد هذه الدراسات أهم المكونات لتصورات المؤسسات الدينية وغير الدينية فى الغرب عن الإسلام .

عقبات فى طريق الحوار :

ولا يجوز لنا أن نتجاهل أن الطريق إلى حوار مثمر بين الإسلام والمسيحية ليس طريقًا ممهدًا ومفروشًا بالورود والرياحين ، وإنما هو طريق وعر المسالك تعترضه الكثير من العقبات التى لابد من التغلب عليها حتى يحقق الحوار أهدافه المرجوة فى التعاون البناء بين المسلمين والمسيحيين فى مختلف المجالات .

ومن بين العقبات الكثيرة على طريق الحوار نشير إلى النقاط التالية :

١ - ظاهرة الخوف من الإسلام :

لقد انتشرت فى الغرب خلال العقدين الماضيين بصفة خاصة نغمة جديدة تحذر المواطنين فى الغرب من الخطر الذى يتهددهم والذى يتمثل فى الإسلام ، وأصبح مفهوم الخوف من الإسلام أو ما يسمى (إسلاموفوبيا) يتردد على الألسنة وعلى أقلام الصحفيين والكتاب وفى شتى وسائل الإعلام الغربية ، وأصبح الإسلام هو العدو الأخضر البديل بعد زوال خطر العدو الأحمر الذى كان يمثله الاتحاد السوفيتى . وقد ترتب على ذلك انتشار موجة العداء للإسلام فى الغرب بشكل لم يسبق له مثيل . فقد أصبح ينظر إلى الإسلام على أنه مصدر الإرهاب فى العالم ، على أساس أن هناك بعض الحمقى من أبناء المسلمين يقومون بعمليات إرهابية ، فى حين أنهم لا يمثلون الإسلام ولا يمثلون العالم الإسلامى بأى حال من الأحوال .

والحق أن الإرهاب ظاهرة عالمية لا صلة لها بالأديان ولا يجوز إلصاقها بالإسلام والمسلمين . وقد عرفت أوروبا الجماعات المتطرفة والإرهابية فى النصف الثانى من القرن الماضى فى العديد من الدول الأوروبية . ولا تزال بعض هذه الجماعات تمارس هوايتها فى الإرهاب مثل منظمة إيتا فى إسبانيا على سبيل المثال .

والجميع يعلم أن هناك إرهابًا تمارسه بعض الدول مثل إسرائيل . ويغض الغرب الطرف عن ذلك تمامًا ويبرره بحجة الدفاع عن النفس .

ومن حق المسلم أن يسأل : هل كان المسلمون سببًا فى إشعال نار حربين عالميتين فى القرن الماضى واللتين راح ضحيتهما أكثر من ستين مليونًا من البشر ؟.

ومن الذى قام بمذبحة سربينيتسا Serbenica فى البوسنة عام ١٩٩٥ والتى راح ضحيتها ثمانية آلاف بوسنى مسلم لا ذنب لهم ولا جريرة إلا أنهم مسلمون .

أليس ذلك هو الإرهاب بعينه ؟

٢ - الإساءات المتكررة للإسلام :

ومن العقبات التى تعترض طريق الحوار تكرار الإساءات المتعمدة للإسلام ولنبى الإسلام سواء عن طريق الرسوم الكاريكاتورية أو الأفلام أو غيرها من وسائل النشر كالإنترنت . وتحاول الدول الأوروبية التنصل من مسئولية هذه الإساءات بحجة حق حرية التعبير المكفول للمواطنين . ونحن المسلمين مع حرية التعبير ، ولكن حرية التعبير لا صلة لها بحرية إهانة الآخرين والسخرية من معتقداتهم . والغريب أن هؤلاء الذين يتشدقون بحرية التعبير لا يستطيعون أن ينطقوا بكلمة واحدة يشتم منها من قريب أو بعيد معاداة السامية .

والأمر المؤسف والمحزن أن ينضم بابا الفاتيكان إلى قائمة المسيئين للإسلام بمحاضرته الشهيرة فى جامعة ريجنسبورج بألمانيا منذ نحو عامين والتى اتهم فيها الإسلام بالعنف ومعاداة العقل .

٣ - الانحياز التام ضد قضايا المسلمين :

ويتضح الانحياز التام ضد قضايا المسلمين بصفة خاصة فى قضية فلسطين على سبيل المثال . فلا توجد قضية فى العالم ظلت دون حل مدة ستين عامًا كاملة مثلما هو الحال فى فلسطين .

وهناك أمثلة عديدة لتطبيق المعايير المزدوجة فى القضايا الإسلامية ، وأقرب مثال على ذلك الموقف الغربى ضد قرار للجمعية العامة للأمم المتحدة فى العام الماضى (٢٠٠٧) مقدم من الدول الإسلامية يقضى بتجريم ازدراء الأديان بمناسبة تكرار الإساءة إلى الإسلام . فقد صوتت ضد القرار كل من دول الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا وإسرائيل .

٤ - المناهج الدراسية فى الغرب :

تشتمل المناهج الدراسية فى الغرب على أخطاء فاحشة فيما تتضمنه من معلومات عن الإسلام والمسلمين . فالأطفال الغربيون يلقنون فى مدارسهم صورة سلبية خاطئة عن الإسلام والمسلمين تعمق فى أذهانهم الخوف من الإسلام ومن كل ما هو إسلامى .

وعلى الرغم من أن هذه العقبات من شأنها أن تجعل الحوار الإسلامى المسيحى أكثر صعوبة فإنها من ناحية أخرى تؤكد ضرورة الحوار وتجعله أشد إلحاحًا من أى وقت مضى لإزالة تلك الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة عن الإسلام والمسلمين .

ولا يجوز لأية عقبات أن تثنينا عن المضى قدمًا فى جهود الحوار الإسلامى المسيحى لأن هذا هو السبيل لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب . وهذا هو واجبنا ، وتلك هى مسئوليتنا ولا يجوز لنا أن نتخلى عنها تحت أى ظرف من الظروف .

خاتمـــة

وفى الختام نود أن نؤكد أنـه عـلى الـرغم مـن بعـض الـصور القاتمـة فى علاقـة الإسلام بالمسيحية الغربية فإن هناك عنـاصر كثـيرة مـشتركة بـين الأديـان الـسماوية بصفة عامة وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة . فما يجمع بين هـذه الأديـان أكثـر بكثير مما يفرق بينها - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - . والحوار الإسـلامى المـسيحى يجب أن يركز على القواسم المشتركة بين الأديان السماوية . وقد أشار القرآن الكـريم إلى ثلاثة أسس مهمة مـشتركة بينهـا وهـى : الإيـمان بـالله واليـوم الآخـر والعمـل الصالح ، الذى هو تطبيق للمنظومة الأخلاقية المشتركة . وفى ذلك يقول الله تعالى :
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

وهذه الأسس يمكن أن تشكل ركيزة راسـخة للانطـلاق منهـا نحـو التعـاون المطلوب . فهناك مـشكلات كثـيرة مـشتركة فى عالمنـا المعـاصر لا يمكـن حلهـا إلا بالتعاون بين الأديان بصفة عامة وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة .

ومن بين هذه القضايا على سبيل المثال لا الحصر - قضية دور الأديـان فى حمايـة السلام العالمى ، والتعاون بينها من أجل منع الحروب التى لا مـبرر لهـا ، والحيلولـة دون تخريب الموارد الاحتياطية للأرض نتيجة حروب عبثية لا معنـى لهـا ، وإيقـاف الحروب الدينية التى تضطهد البشر ظلمًا وعدوانًا ، وتضطهد شعوبًا بأكملها بـسبب العقيدة ، والتعاون الفعال فى محاربـة الإرهـاب والتطـرف فى كـل مكـان فى العـالم ، والانتصار للحق والعـدل بـالوقوف مـع الحقـوق المـشروعة للـشعوب المظلومـة ، بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقيـة ، والتعـاون كـذلك فى حمايـة مؤسـسة الأسرة التى تمثل الخلية الأولى لكل حضارة إنسانية معروفة لنا ، والتى تتعرض اليوم للانهيار .

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

ومن البديهى أن التعاون بين الأديان لا يمكن أن يتحقق طالما بقيت الأديان تنظر صامتة إلى شعوب كاملة تتعرض بسبب عقيدتها للقهر والاضطهاد اللاإنسانى. ولهذا فإن الاستناد إلى معلومات صحيحة عن الأديان وعن العناصر المشتركة بينها من شأنه أن يساعد على اتخاذ المواقف الدينية الصحيحة التى تتسم بالتسامح والعدل .

إن هناك – على سبيل المثال – إرهابًا وتطرفًا فى كل ربوع العالم ، لا فى العالم الإسلامى وحده ، كما يزعم البعض . وسيتبين لكل إنسان يسعى لمعرفة الحقيقة الموضوعية أن الإسلام ، الذى هو دين السلام ، يرفض رفضًا مطلقًا كل شكل من أشكال الإرهاب والتعصب ورفض الآخر .

ومن المعروف أن كل سورة من سور القرآن الكريم تبدأ بالبسملة التى تتضمن التوجه إلى الله سبحانه وتعالى الموصوف بأنه الرحمن الرحيم . ورسالة الإسلام جاءت رحمة للعالمين كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] أى للبشر جميعًا دون استثناء . ومن هنا فإن عليهم فى المقابل أن يسعوا إلى تحقيق العدل والسلام .

والحوار بين الأديان على نحو يؤدى إل التعاون البناء هو السبيل الوحيد للتصدى بنجاح للظواهر السلبية فى عصرنا مثل : الإلحاد والانحلال والإدمان والإيدز والتعصب والتطرف فى الفكر أو فى السلوك . كذلك من شأنه أن يحقق نجاحًا أكبر فى حل مشكلات التنمية الاجتماعية والسياسية فى البلاد النامية .

إن من الضرورى المسارعة إذن فى مد أواصر التعاون بين الأديان من أجل حل كل هذه المشكلات ، لأنها تمس الإنسانية كلها بشكل أو بآخر . ولقد صور النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث له بشكل رمزى البشرية كأنها محمولة على ظهر سفينة واحدة[2] ، ولهذا فإن على البشرية أن تنمى الشعور بالتضامن الجماعى فيما بينها إذا أرادت لسفينتها ألا تغرق . فالأرض تحمل البشر جميعًا وهى تشبه السفينة الفضائية التى تسبح فى الفضاء الكونى .

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

ونود هنا أن نقتبس هذا الحديث النبوى لتطبيقه على ما يحيط بعالمنا المعاصر من أخطار . فالحديث - كما يتضح لنا - يبين بشكل رمزى الخطر الذى تتعرض له البشرية عندما تنقسم على نفسها إلى طائفتين ، طائفة تقيم فى أعلى السفينة تلتزم بحدود الله ، وطائفة أخرى على النقيض من ذلك تقيم فى أسفلها . أما الذين فى أسفل السفينة فعليهم كلما احتاجوا إلى الماء أن يصعدوا إلى أعلى السفينة ، ولكنهم فى نهاية الأمر ضاقوا بهذا العمل ذرعًا وفرغ صبرهم ، فقرروا أن يخرقوا خرقًا فى قاع السفينة ، ليتزودوا منه مباشرة بالماء . وهذا بطبيعة الحال عمل خطير من شأنه أن يعرض السفينة للغرق ويعرض ركابها جميعًا للهلاك . ويقول النبى عليه الصلاة والسلام: «**فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»[1] .

وهذا الخرق فى السفينة الذى ورد فى هذا المثال يذكرنا بثقب الأوزون الذى يهدد الآن عالمنا الذى نعيش فيه ، كما أن مثال السفينة يذكرنا أيضًا بأننا بالفعل محمولون على ظهر الأرض كما لو كنا فى سفينة عبر الفضاء . والعمل التضامنى المشترك يمكن أن ينقذ العالم من الدمار الذى يهدد بقاءه واستمراره .

وإذا صح عزمنا على أن نقيم حوارًا سليمًا بين الأديان ، فلا ينبغى أن ننفخ فى نار الكراهية ونحيى عقد الماضى من جديد ، وأجدر بنا أن نفكر تفكيرًا إيجابيًا يتجه إلى صياغة مستقبل ينعم فيه العالم بالسلام الضرورى .

إننا نواجه اليوم أجيالاً جديدة وبالتالى عوالم جديدة ، أجيالاً لا تلام على مظالم العصور الماضية التى لم ترتكبها ، ولا تمتدح على الإنجازات الإيجابية التى أنجزها السابقون . إن ما تحتاج إليه الأجيال الجديدة منا هو ألا نضيع عليها فرصة بناء حياة خصبة ، بل نقدم إليها العون على ذلك .

* * *

(١) رواه البخارى فى صحيحه باب الشركة .



الحوار والتسامح[1]

لقد خلق الله الناس مختلفين فى أشكالهم وألوانهم وأعراقهم، وسيظل هذا الاختلاف قائمًا ما بقى إنسان فى هذا الوجود. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[2]. ولكن هذا الاختلاف لا ينسحب على جوهر الإنسان. فالإنسان فى جوهره واحد فى كل زمان ومكان، خلقه الله من أصل واحد. ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى وضوح حين يقول: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[3]. ومن هنا فإن الاختلافات بين البشر لا ينبغى أن تكون منطلقًا أو مبررًا للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعًا إلى التعارف والتآلف والتعاون بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وإثراء للحياة والنهوض بها.

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس. فكانت اللغة التى يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم. ويعد التفاهم بين الناس عن طريق اللغة أسلوبًا راقيًا للحوار بين البشر والتواصل الفكرى فيما بينهم.

ولن يكون الحوار مثمرًا ومحققًا للأهداف المرجوة إلا إذا كان قائمًا على أساس من الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار، احترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر حتى لو كانت مخالفة لما يتبناه من أفكار وتوجيهات. فالحوار الهادف لا ينفصل عن التسامح واحترام حرية الآخرين. والخلاف فى الرأى وفى الفكر وفى

---

(١) نشر بجريدة أخبار اليوم فى ٢١/٦/٢٠٠٨.

(٢) سورة هود: ١١٨.

(٣) سورة النساء: ١.

الاعتقاد لا يجوز أن يفسد ما بين الناس من علاقات إنسانية . ومن هنا شاع بين الناس القول المشهور : « الخلافُ فى الرأى لا يُفسد للود قضيَّةً » .

وكما أعطى لنفسى الحق فى أن يكون لى رأيى الخاص ووجهة نظرى المستقلة فكذلك ينبغى أن أُعطى الحق ذاته للآخر . فمن حقه أيضًا أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة ، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف . فكل فرد فى هذا الوجود له شخصيته المستقلة . وقد أعطانا الله رمزًا لهذه الاستقلالية يتمثل فى عدم اتفاق بصمة إبهام فردين فى هذا الوجود مع بعضهما . فالخلاف فى الرأى إذن شىء طبيعى وليس أمرًا شاذًا .

ومن هنا فإنه لا يجوز للمرء أن يضيق صدرًا بالآراء المخالفة لرأيه ، ليس فقط فى مجال الأمور اليومية العادية ، بل حتى فى أمور الدين والفكر والسياسة . فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدَّعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل . وقد عبر الإمام الشافعى عن هذا المعنى فى تسامح رائع - كما سبق أن أشرنا - قائلاً : «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب ».

وقد بلغت السماحة فى الفكر الإسلامى المستنير حدًا لا نظير له ، عبر عنه الشيخ محمد عبده بقوله :« لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر » ويعقب الشيخ على ذلك قائلاً : فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ .

إن الحوار - فى معناه الصحيح - ليس هدفه مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة . وإنما هدفه الأكبر إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس ، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير . والحوار بهذا المعنى قيمة حضارية ينبغى الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات .

والوعى بذلك كله أمر ضرورى يجب أن نعلمه للأجيال جيلاً بعد جيل ، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين . فالواقع المؤلم أنه كثيرًا ما تحدث مشادات عنيفة تخرج عن نطاق الموضوعية ، وربما يتطور الأمر إلى شجار وتماسك بالأيدى بين الأطراف المختلفة فى الرأى ،لأن كل جانب يريد فرض رأيه بشتى السبل .

ولا يقتصر الأمر فى هذا الصدد على المستويات الدنيا فى المجتمع ، بل ينسحب أيضًا على شريحة لا يستهان بها بين المشتغلين بالفكر وبالثقافة بصفة عامة ، حيث يصل الأمر فى أحيان كثيرة إلى حد الخروج عن مناقشة الفكر بالفكر إلى الشتائم والتجريح الشخصى الذى لا صلة له بالنقاش الموضوعى . وإن دل هذا الخروج عن الموضوعية على شئ فإنما يدل على ضحالة فى الفكر وقصور فى الحُجَّة وفقر فى المنطق.

وهذا الخروج عن الموضوعية فى الحوار على هذا النحو أمر لا يليق بالإنسان الذى كرمه الله وفضله على بقية الكائنات ، وميزه بالعقل ، وجعله خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير ، ويملأها بالعلم ، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام .

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحًا من أى وقت مضى ، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر ، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات ، بل تنسحب هذه الضرورة أيضًا على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة بصفة عامة ،وبين الأديان والحضارات بصفة خاصة ، بهدف ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى هذا العالم .

وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار فإن على المجتمع الدولى أن يصحح الأوضاع ، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضارى فى التعامل وهو « الحوار » . فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال « الحوار » ، فى جو من التسامح الإيجابى والتفاعل الخلاق بين البشر ، بعيدًا عن أى شكل من أشكال الضغط أو الإكراه أو الإملاء أو

التعالى على الآخرين، أو محاولة استبعادهم أو إلغائهم . فالجميع شركاء فى كل شىء، والناس جميعًا سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى وبما يقدمه من خير للناس . ويؤكد الحديث النبوى الشريف هذه الحقيقة فى القول المعروف **«خير الناس أنفعهم للناس»**[1] .

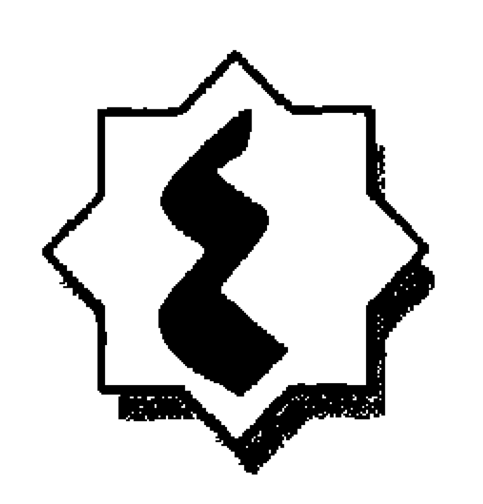
ولا شك فى أن عالمنا اليوم فى أشد الحاجة إلى التعايش الإيجابى بين الناس أكثر من أى وقت مضى ، نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات فى عصر العولمة يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التى أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب ، حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة .

وهذا يعنى أنهم يشتركون جميعًا فى المسئولية عما يحدث فى هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا . وإذا كان عصرنا قد شهد اتساع مساحات الحرية للأفراد والجماعات على مختلف الأصعدة فإن الحرية لن يكون لها معنى إلا إذا ارتبطت بالمسئولية . ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضًا ،لأن لهم نفس الحق الذى يطلبه الإنسان لنفسه .

وهذا يعنى أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هى - أو بالأحرى ينبغى أن تكون - علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل قيام مجتمع إنسانى يحقق الخير للجميع . وهذا لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه . فالتسامح صيغة تفاعل ، أى أنه ينبغى أن يكون من طرفين لا من طرف واحد ، والشىء نفسه ينطبق على الحوار الذى يعد تفاعلاً مع الآخر . وكلاهما - الحوار والتسامح - من القيم الإنسانية والحضارية التى لا يقوم أى مجتمع إنسانى متحضر بدون تحققها على أرض الواقع فى دنيا الناس .

* * *

(١) رواه السيوطى فى جامع الأحاديث .



الحقيقة المطلقة وحـوار الأديان[1]

منذ حوالى ثلاث سنوات دعيت لإلقاء محاضرة حـول « الإسـلام والمسيحية » فى جامعة فيينا بالنمسا . وقبل المحاضرة كان لى لقاء مع السادة أعضاء هيئة التدريس بكلية اللاهوت . وقد سألنى عميد الكلية حينذاك عما يعـد فى نظـرى قـضية مهمـة ينبغى أن يهتم بدراستها أسـاتذة الكليـة ؟ وكانـت إجـابتى عـن ذلـك تـتلخص فى ضرورة بحث قضية موقف الأديان من امتلاك الحقيقة المطلقة .

ومن المعروف أن أتباع كل دين من الأديان يعتقدون أن دينهم وحده دون غيره الذى يمتلك الحقيقة المطلقة . والنتيجة المنطقية المترتبة عـلى ذلـك أن مـا عـداه مـن أديان يعد خارجًا عن نطاق هذه الدائرة ، وببساطة يعد دينًا غير صحيح .

ولا يقتصر الأمر فى الواقع على الأديـان ، بـل يتعـداه إلى المـذاهب المختلفـة فى الدين الواحد . وأقرب مثال على ذلك ما أعلنه الفاتيكان منـذ فـترة قـصيرة مـن أن الكاثوليكية وحدها هى الممثلة الحقيقية لرسالة السيد المسيح . والشىء نفـسه نجـده بين المذاهب السنية والشيعية المتطرفة فى تاريخنا الإسلامى التى كانت تتبادل التكفير والخروج من دائرة الإسلام .

ومن الواضح أن القضية شائكة ومعقدة وتـتسم بالحساسية المفرطـة . ولكـن البحث فيها ضرورى بالنظر إلى جهود الحوار بين الأديان والمذاهب ، والتعاون فـيما بينها . ونعتقد أن أى حوار بين الأديان لن يكتب له النجـاح إلا إذا تـم حـسم هـذه القضية ، وإلا ستظل مثل هـذه الحوارات شـكلاً من أشكال العلاقات العامة التـى لا جدوى منها ولا فائدة ترجى من ورائها . فمن الشروط الأوليـة التـى لابـد منهـا

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٠/٨/٢٠٠٧ .

لإنجاح أى حوار ضرورة الاعتراف بالآخر والاحترام المتبادل والمساواة بين المتحاورين .

والذى يهمنا فى هذا المقال بصفة خاصة هو عرض وجهة النظر الإسلامية فى هذه القضية . فالإسلام - كما جاء فى القرآن الكريم - هو دين الله ، وهو دين جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى البشر وآخرهم محمد ﷺ . وقد يثير ذلك فى بادئ الأمر شيئًا من الحساسية لدى أتباع الديانات الأخرى . ولكن توضيح الأمر من شأنه أن يزيل أى لبس فى هذا الصدد . فالحقيقة واحدة وليست متعددة وإن كانت تتجلى فى أشكال مختلفة أو صور متعددة . وكل دين من الأديان جاء تعبيرًا عن شكل من أشكال هذه الحقيقة المطلقة الواحدة .

وعندما يقال إن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين كما يقول القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1] ، فينبغى أن نوضح أولاً المقصود من مفهوم الإسلام فى هذا الصدد حتى لا يكون هناك مجال لتخمينات أو افتراضات لا أساس لها .

فالإسلام بالمعنى العام يعنى إسلام الوجه لله ، وهذا أمر تشترك فيه كل الأديان . أما الإسلام بالمعنى التاريخى فهذا ما تختص به الرسالة المحمدية . وإذا كان الأمر كذلك فإن جميع الأديان التى أرسلها الله للبشر على يد الأنبياء والمرسلين تشترك فى الحقيقة المطلقة ، ولا يجوز لأى منها أن يدعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحقيقة المطلقة وأن غيره من الأديان ليس له نصيب منها .

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام نفسه آخر حلقة فى سلسلة الرسالات الإلهية للبشر ، وهذا يعنى الاعتراف بكل الرسل والأنبياء السابقين وما أنزل عليهم من كتب سماوية . ويصور النبى عليه الصلاة والسلام علاقته بالأنبياء السابقين تصويرًا رائعًا حين يقول : « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنا بيتًا فأحسنه وأجمله إلا**

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

موضع لبنة من زاوية فيه ، فكان الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

ومن هنا لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بالرسالات السماوية جميعها - كما يؤكد ذلك القرآن الكريم - : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾[2] .

وهكذا يتضح لنا بجلاء ، وبما لا يدع مجالاً لأى تأويل ، موقف الإسلام من قضية امتلاك الحقيقة المطلقة . ولذلك فإن الإسلام عندما يدخل فى حوار مع الديانات الأخرى فإنه يكون غير مثقل بحساسيات أو عقد من أى نوع . فنحن جميعًا ننتسب إلى الحقيقة المطلقة الواحدة . ويذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين يعتبر أن أى دين يؤمن أتباعه بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فهو دين يحظى بالقبول من الله - كما يقول القرآن الكريم - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[3] .

وعلى هذا الأساس انطلقت دعوة الإسلام إلى الحوار مع أتباع الديانات السماوية . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾[4] . ولم يكتف القرآن بالدعوة إلى الحوار وإنما رسم أيضًا منهج الحوار قائلاً : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[5] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، باب المناقب .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة : ٦٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٥) سورة العنكبوت : ٤٦ .

وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام أول من أجرى حوارًا دينيًّا فى مسجده بالمدينة المنورة مع وفد من نصارى نجران . وقد كان هذا الوفد مكونًا من خمسة عشر رجلاً بقيادة أسقفهم أبى الحارث . والجدير بالذكر أن أعضاء الوفد المذكور عندما دخلوا المسجد اتخذوا لأنفسهم ركنًا من أركان المسجد وبدأوا فى أداء صلواتهم . وقد استفز ذلك بعض الصحابة، ولكن النبى قال لهم : اتركوهم حتى ينتهوا من صلاتهم . وبعد انتهائهم من الصلاة جرى بينهم وبين الرسول حوار دينى اتسم بروح المودة .

وليس هناك مجال فى تعاليم الإسلام للتعصب ضد أى دين من الأديان السماوية . فالجميع – بنص القرآن – يشتركون فى الحقيقة المطلقة . وهذا الموقف يفتح الباب واسعًا للحوار الذى يؤدى إلى التعاون المثمر بين البشر جميعًا من أجل التنافس فى الخير ، كما يحثنا القرآن الكريم على ذلك فى قوله : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾[1] .

ومن التعاليم القرآنية أنه لا يجوز لنا أن نصدر أحكامًا بالكفر على هذا أو ذاك من الأفراد والجماعات ، كما لا يجوز أن نتبادل السباب مع الكافرين – كما جاء فى القرآن الكريم – : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾[2] .

وينبه القرآن الكريم إلى أن الله وحده هو الذى سوف يفصل بين الناس يوم القيامة . فالحكم على الآخرين ينبغى أن يترك أمره لله وحده خالق كل البشر ، الذى يعلم ما نخفى وما نعلن ، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بكل وضوح فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3] .

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٨ .

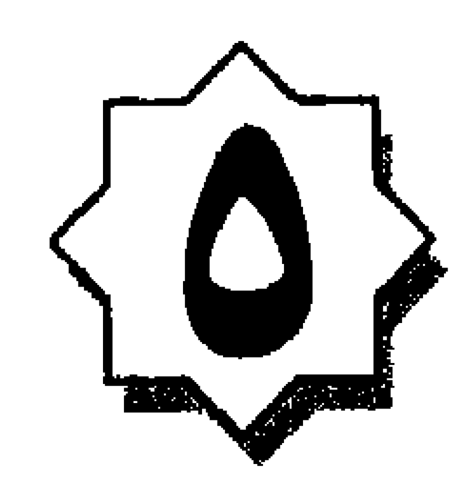
(٣) سورة الحج : ١٧ .

ولا شك فى أن العلاقة بين الأديان لو فهمت على هذا النحو لدى أتباع الأديان الأخرى فستختفى المشكلات بين الأديان ، وتختفى معها الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة لدى كل طرف عن الطرف الآخر ، وتكون هناك فرصة حقيقية لخلق أجواء صحية للحوار والتعاون والتعايش فيما بينها من أجل ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى العالم .

ولا يفوتنا فى ختام هذا المقال أن نشير إلى أن الأدب الأوروبى لا يخلو من بعض النماذج المضيئة التى سارت فى هذا الاتجاه . ومن ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – الأديب الألمانى الشهير « ليسنج » الذى اتسمت نظرته إلى العلاقة بين الأديان بسعة الأفق عندما عبر فى روايته «ناتان الحكيم» عن الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام بالحلقات الثلاث التى لا تتميز أى منها عن الأخرى .

والحق أنه عندما تسود النظرة الإنسانية الحقيقية بين البشر ، تلك النظرة التى ترتفع فوق كل عوامل التمييز بين الناس ، فإن ذلك من شأنه أن يفتح الباب أمام سيادة قيم التسامح والتقارب والتواصل بين الناس بعيدًا عن كل أشكال التعصب والتطرف والانغلاق . وعندئذ تكون الحقيقة المطلقة عامل تجميع لا تفريق . ومظلة واقية من كل عوامل الانقسام الدينى والشقاق المذهبى بين البشر على اختلاف معتقداتهم .

* * *



حول الإساءات المتكررة للنبى عليه الصلاة والسلام[1]

إن الأديان السماوية فى جوهرها رسالة سلام تسعى لغرس المحبة والأخوة بين الناس . ومن هنا فإنه لا يوجد بينها أى تناقض فى الأهداف التى تسعى إليها . وقد أكد النبى عليه الصلاة والسلام التكامل بين الأديان فى تشبيه رائع يقول فيه : « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنا بيتًا فجمله وأحسنه إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فكان الناس يطوفون به ويتعجبون من حسنه وجماله ولكنهم كانوا يتساءلون: هلا وضعت هذه اللبنة ليكتمل جمال البناء . ويقول النبى : فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم المرسلين** »[2] .

ومن هذا المنطلق يتعامل الإسلام مع الأديان الأخرى . ولا يجوز لمسلم بأى حال من الأحوال أن يسخر أو يستهزئ باليهودية أو المسيحية ، فنحن المسلمين نؤمن بكل الأديان السماوية دون تمييز كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾[3] . وعلى هذا النحو ينبغى أن يكون التعامل بين أتباع الأديان قائمًا على أساس من الاحترام المتبادل والتعاون المثمر فى كل ما من شأنه أن يعود على البشرية كلها بالخير .

وعلى الرغم من هذه الحقائق الواضحة التى لا جدال فيها والتى يتمسك بها المسلمون ولا يساومون عليها ، فإننا نجد – للأسف الشديد– فئة من أبناء بعض الدول الأوروبية يفاجئوننا بين الحين والآخر دون أدنى مبرر بسلسلة من الإهانات

---

(١) البيان الذى ألقى فى مجلس الشورى عام ٢٠٠٨ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه ، باب المناقب .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٥ .

والإساءات للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، ولا يتورعون من نشر إساءاتهم بمختلف وسائل النشر ، سواء كانت هذه الإساءات فى شكل رسومات أو مقالات أو أفلام يتهمون فيها الإسلام ونبيه باتهامات باطلة ، ويتمادون فى سخريتهم من نبى الإسلام على نحو لا يقبله أى ضمير حى .

وفى عام ٢٠٠٥ نشرت إحدى الصحف الدنماركية رسومًا كاريكاتورية مسيئة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وخرجت المظاهرات العارمة فى كل أنحاء العالم الإسلامى مستنكرة هذا التصرف الأحمق من هذه الصحيفة ، وكان لذلك تداعيات فى حينها على المستوى التجارى والسياسى . ثم هدأت العاصفة . وكنا نظن أن الدنمارك قد وعت الدرس ، ولكننا فوجئنا مرة أخرى بأن هناك سبع عشرة صحيفة فى الدنمارك قررت إعادة نشر هذه الرسوم مرة أخرى بطريقة استفزازية تضامنًا مع الصحفى الذى نشر هذه الرسومات أول مرة بحجة أنه قد تم تهديده بالقتل .

وإمعانًا فى الإستهانة بمشاعر المسلمين طالب وزير الداخلية فى الحكومة الألمانية بأن تقوم جميع الصحف فى أوروبا بنشر هذه الرسوم دفاعًا عن حرية التعبير كما يزعم .

ومن الطبيعى أن يغضب المسلمون ويعلنون فى كل مكان استنكارهم الشديد وإدانتهم القاطعة لهذه التصرفات الحمقاء . وتعبيرًا عن ذلك اندلعت المظاهرات فى معظم البلاد الإسلامية مندِّدة بهذه الإساءات ومنادية بالمقاطعة التجارية والسياسية وغيرها .

ولا جدال فى أن هذه المشاعر الإسلامية المتأججة والعواطف الجياشة الغيورة على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام لها ما يبررها . ومن هنا فإننا نرفض رفضًا قاطعًا هذه الاستفزازات المتكررة التى تستهين بمشاعر مليار ونصف مليار مسلم فى كل القارات . فليس هناك أدنى مبرر لهذه الإساءات لدى هؤلاء السفهاء من الناس الذين يتحدون المشاعر الإسلامية دون أى اكتراث .

ومن المفارقات الغريبة أن المحاكم الدنماركية لم تنصف المسلمين فى الدنمارك ، ورفضت كل الدعاوى التى تقدموا بها ضد المسيئين للرسول عليه الصلاة والسلام وقد طالعتنا الصحف فى ٢٠ / ٦ / ٢٠٠٨ م بخبر يقول : ردت محكمة استئناف

دنماركية أمس دعوى تقدمت بها سبع جمعيات إسلامية فى الدنمارك ضد مسئولين فى صحيفة «يلاندز بوستن» لنشرها ١٢ رسمًا كاريكاتيريًا للنبى محمد ﷺ فى سبتمبر ٢٠٠٥ م اعتبرتها هذه الجمعيات مسيئة للنبى والإسلام . وذكر بيان قضائى أن محكمة استئناف كوبنهاجن أكدت حكمًا سابقًا صدر فى أكتوبر ٢٠٠٦ عن محكمة فى مدينة آرهوس (بوسط الدنمارك) حيث مقر الصحيفة المذكورة لم يجد فى الرسوم هذه إهانة للإسلام . وزعمت محكمة الاستئناف أن الرسوم لا تمس بكرامة المسلمين، ولا تشكل ازدراء لهم .

ولكننا من ناحية أخرى نود أن نناقش الأمر فى هدوء :

أولاً : يبرر أصحاب هذه الإساءات تصرفاتهم الحمقاء بحرية التعبير التى تكفلها القوانين للمواطنين فى أوروبا . ونحن المسلمين مع حرية التعبير نؤيدها وندافع عنها . ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين حرية التعبير وحرية الإهانة والإساءة للآخرين ومقدساتهم . فلا صلة لذلك بحرية التعبير التى يتشدقون بها . ومن ناحية أخرى فإننا نتحدى هؤلاء أن يتفوه أى منهم من منطلق حرية التعبير بكلمة أو رسم أو مقال يمس من قريب أو من بعيد ، تلميحًا أو تصريحًا ، ما يسمى بمعاداة السامية. أليس الأمر هنا إذن أمر معايير مزدوجة تطبق بوضوح وبلا خجل أو حياء ؟.

ثانيًا : الإساءات للإسلام ونبيه قديمة ومتجددة . وترجع إلى القرون الوسطى فى أوروبا . والإساءات التى كانت رائجة فى ذلك الزمان عن الإسلام ونبيه أشد وأشنع من الإساءات التى تتردد اليوم . ولكنها لم تنتشر نظرًا لمحدودية وسائل النشر حينذاك . ومن هنا ظلت فى بطون الكتب . ونعتقد أن مسلسل الإساءات لن يتوقف، وسيتكرر بين حين وآخر . ولن يوضع له حد إلا إذا أصبح المسلمون أقوياء على مختلف الأصعدة . وعندئذ فقط لن يجرؤ أحد على السخرية منهم ومن دينهم ونبيهم .

ثالثًا : لقد جرب المسلمون ردود الأفعال العنيفة ، وسقط ضحايا أبرياء فى بعض البلاد الإسلامية فى غمرة الاحتجاجات منذ ثلاث سنوات . وسرعان ما تهدأ العاصفة دون اعتذار من جانب المسيئين سواء كانوا أفرادًا أو مؤسسات صحفية أو دينية أو سياسية . وقد أثبتت ردود الأفعال الصاخبة وفتاوى القتل للمسيئين فشلها فى الوصول إلى نتائج إيجابية . ونذكِّر فى هذا الصدد بسلمان رشدى وروايته آيات شيطانية . فقد أصبح هذا الكاتب المغمور بعد ردود الفعل العنيفة نجمًا مرموقًا وكاتبًا لامعًا واستقبله رؤساء الدول فى الغرب بوصفه بطلاً ، وترجمت إساءاته إلى عشرات اللغات فى العالم . وكان الخاسر الوحيد فى القضية هم المسلمون . وقس على ذلك كثيرين من أمثال سلمان رشدى مثل الكاتبة البنغالية المغمورة تسليمه نسرين وغيرهما . وهناك فيلم هولندى سيعرض قريبًا بعنوان « القرآن الفاشى » ، يقوم بإعداده عضو متعصب فى البرلمان الهولندى .

رابعًا : لقد بذلت جهود دبلوماسية مصرية وإسلامية فى العام الماضى بهدف استصدار قرار من الأمم المتحدة يجرِّم ازدراء الأديان . وصدرت بعض القرارات غير الملزمة التى عارضتها الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الاتحاد الأوروبى وكندا وأستراليا وإسرائيل .

والسؤال المهم فى هذا الصدد هو : ما السبيل إذن لمواجهة هذه الإساءات المتكررة ؟ والإجابة عن هذا السؤال لابد أن تعتمد على العقل وتواجه المشكلة بطريقة موضوعية بعيدة عن الانفعالات والتشنجات . وفى هذا الصدد نعرض تصورنا المتواضع لمعالجة هذه القضية ، وذلك على النحو التالى :

١ - من الواضح أن الذين يقفون وراء الإساءات المتكررة للإسلام وللنبى عليه الصلاة والسلام يهمهم أن تحدث ردود فعل عنيفة لدى المسلمين ليضاعفوا هم من إساءاتهم ، وهذا هو الذى يحدث الآن بالفعل ، وعلى المسلمين ألا يعطوهم هذه الفرصة حتى لا يتمادوا فى غيهم ويزدادوا تطاولاً على الإسلام والمسلمين .

٢ - من الضرورى أن يعرف المسئولون فى البلاد الأوروبية وجهة النظر الإسلامية عن طريق إصدار بيانات قوية من جانب المؤسسات المختلفة فى العالم الإسلامى معلنة رفضها لهذه الإساءات واستنكارها الشديد ومطالبتها للمسئولين فى البلاد الأوروبية باتخاذ مواقف حاسمة لوضع حد لهذه الإساءات . ومنع تكرارها ، وتحذير هذه الدول مما يمكن أن يترتب على التمادى فى هذه الإساءات من تشجيع للتطرف وزعزعة للاستقرار والسلام فى العالم ، على أن ترسل هذه البيانات إلى الدول الأوروبية المعنية عن طريق سفرائها فى القاهرة .

٣ - علينا بدلاً من ردود الأفعال غير المحسوبة أن نأخذ بزمام المبادرات الإيجابية بطريقة عقلانية ، وذلك بعرض سيرته عليه الصلاة والسلام بأساليب مختلفة وبلغات عديدة عن طريق المطبوعات أو الشرائط أو الأفلام أو بأية وسيلة أخرى فعالة ومؤثرة . وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أيضًا تصورات الجاليات الإسلامية فى البلاد الأوروبية حول أفضل السبل لمواجهة هذه الإساءات ، فهذه الجاليات أقدر على معرفة التوجهات فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وأذكر أن صحيفة سويدية قد نشرت منذ بضعة أشهر بعض الرسوم المسيئة وبدأت ردود الأفعال الغاضبة فى العالم الإسلامى . ولكن رئيس الجالية الإسلامية هناك طالب فضيلة شيخ الأزهر بإلحاح بترك معالجة هذا الموضوع للمسلمين هناك دون تدخلات خارجية .

٤ - ضرورة مواصلة الحوار مع عقلاء الغرب . فإن مما لا شك فيه أن الغرب كله ليس معاديًا للإسلام . ولكن حقائق الإسلام تضيع وسط الصخب الإعلامى الغربى الذى يربط الإسلام بالإرهاب وبخاصة منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ م . ومن هنا فإن من شأن الحوار مع العقلاء فى الغرب إظهار الحقائق وكسب أصدقاء . وبذلك نواجه الإساءات بشكل مؤثر وفعال .

ولدى وزارة الأوقاف برنامج لإرسال وفود من العلماء والمفكرين للحوار مع الجهات ذات التأثير فى أوروبا على المستويات السياسية والدينية والثقافية

والإعلامية . وقد سبق أن أرسلت الوزارة وفدًا إلى كل من إنجلترا وألمانيا . وفى الشهر القادم (يونية ٢٠٠٨) سيتوجه وفد إلى فرنسا . وسوف نواصل هذا البرنامج فى دول أخرى إن شاء الله من أجل توضيح الحقائق والرد على كل ما يثار ضد الإسلام من شبهات .

وفى هذا الإطار أدانت اللجنة المشتركة للحوار بين الأزهر والفاتيكان التى عقدت اجتماعاتها منذ أيام قليلة بحضور رئيس المجلس البابوى للحوار بين الأديان - أدانت بشدة إعادة نشر الرسوم المسيئة والهجوم على الإسلام وعلى نبيه الكريم ، وناشدت المسئولين عن وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية فى كل الدول ألا تتحول حرية التعبير إلى ذريعة لإهانة الأديان والمعتقدات والرموز الدينية وكل ما يعتبره الناس مقدسًا .

٥ - من المعروف أن لدى العالم الإسلامى إمكانات اقتصادية هائلة . وعلى العالم الإسلامى أن يوظفها سياسيًا فى الاستمرار فى الجهود الدبلوماسية وممارسة الضغوط على القوى الكبرى المؤثرة لاستصدار قرارات دولية ملزمة تجرم ازدراء الأديان تتساوى مع تجريم معاداة السامية .

٦ - إن من نافلة القول أن نؤكد أن الإساءات المتكررة للنبى عليه الصلاة والسلام مهما كان حجمها وانتشارها لم ولن يكون لها أدنى تأثير على مكانة هذه الشخصية العظيمة التى تقف كالطود الشامخ تتكسر عليه كل محاولات العدوان والإساءات . ويكفى أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحمايته من المسيئين والمستهزئين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[1] أى كفيناك شرهم وحفظناك من كيدهم .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

* * *

(١) سورة الحجر : ٩٥ .



ظاهرة الإرهاب :الأبعاد والمخاطر وآليات المعالجة

١ ـ مفهوم الإرهاب :

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م أصبحت قضية الإرهاب فى مقدمة القضايا ذات الأولوية القصوى فى العالم . وعلى الرغم من أن الإرهاب بالمعنى العام يمكن أن يطلق على كل فعل من أفعال العنف أو التهديد الذى يمارسه أفراد أو جماعات أو دول على الآخرين ، فإن هذا المفهوم لا يزال مفهومًا مطاطًا غير محدد المعالم . ومن هنا نجده يستخدم استخدامات متعددة تختلف باختلاف التوجهات أو المصالح التى يتبناها الأفراد أو الجماعات أو الدول . والأمر المؤكد أن الإرهاب فى عالمنا المعاصر قد أصبح أنجع سبيل لتخويف الشعوب فى العالم الغربى من أجل تنفيذ سياسات معينة .

ولا يوجد حتى اليوم تعريف جامع مانع لمصطلح الإرهاب ، على الرغم من أن هناك حاجة ماسة لتعريف دقيق للإرهاب وذلك لوضع الأمور فى نصابها الصحيح، حتى لا يترك الأمر لأصحاب المصالح لترويج ما يريدون . وقد يرى البعض منا أن الأمر واضح وضوح الشمس ، وأننا لسنا فى حاجة إلى خبراء ليفسروا لنا ما هو واضح . ولكن المشكلة أننا لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ، وأن أصواتنا مهما ارتفعت إلى عنان السماء فإنها لن تستطيع أن تواجه الآلة الإعلامية الدولية التى تقف وراءها قوى عظمى تقرع من خلالها الآذان ليل نهار بما تريد نشره على الناس .

وقد كانت هناك محاولات من جانب بعض المتخصصين أو بعض المنظمات الدولية لتحديد معنى الإرهاب ، ولكنها لم تأت بشىء جديد . ويمكن تلخيص ما انتهت إليه فى ثلاثة عناصر أولها :- أن الإرهاب استخدام غير مشروع للعنف ،

وثانيها أنه يهدف إلى الترويع العام، وثالثها أنه يرمى إلى تحقيق أهداف سياسية [1]. ولكن هذه المحاولات لم تصل إلى الحد الذى يمكن أن يزيل الخلط القائم بين ما هو إرهاب وما هو مقاومة مشروعة .

٢ ـ تاريخ الإرهاب :

وإذا كان العنف أو الإرهاب فى العصر الحاضر قد تم إلصاقه بالإسلام ظلمًا وعدوانًا فإن وقائع التاريخ تشير إلى أن أول منظمة إرهابية فى تاريخ البشرية قد ظهرت فى نهاية القرن الأول بعد الميلاد . وقد تشكلت على يد بعض المتطرفين من اليهود من طائفة الزيلوت (Zelot)الذين وفدوا إلى فلسطين فى ذلك الزمان لإعادة بناء الهيكل الذى عرف بالمعبد الثانى . وكانت هذه المنظمة ترتكب أعمالها فى وضح النهار وأثناء الاحتفالات العامة بهدف نشر الرعب بين الناس [2] .

وقد توالت الجرائم الإرهابية على مدى التاريخ ولدى كل الأمم والشعوب بلا استثناء قبل مجئ الإسلام وبعده . وإذا كانت جريمة الحادى عشر من سبتمبر قد اتهم فيها مسلمون فليس معنى ذلك أن الإرهاب من طبيعة الإسلام . فهذه العملية ليست إلا حلقة فى سلسلة طويلة من الحوادث الإرهابية التى عرفتها البشرية .

ولا ننسى أن أوروبا قد شهدت فى النصف الأول من القرن الماضى أبشع صور العنف الذى تمثل فى حربين عالميتين راح ضحيتهما أكثر من ستين مليونًا من البشر ، وأن النصف الثانى من القرن الماضى قد شهد ظهور جماعات إرهابية فى أوروبا قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر . وفضلاً عن ذلك فإن المسلمين كانوا فى كثير من الأحيان ضحايا الإرهاب . وما قتل ثمانية آلاف بوسنى مسلم عام ١٩٩٥م فى مدينة سريبنيتسا (Srebenica)على يد الصرب على مرأى ومسمع من المجتمع الدولى وتحت سمع وبصر قوات الأمم المتحدة إلا صورة من أبشع صور الإرهاب .

(١) مختار شعيب : الإرهاب ص٢٣– القاهرة ٢٠٠١(من سلسلة موسوعة الشباب السياسية)

(٢) المرجع السابق ص ١٣ وما بعدها .

ومن ذلك يتضح أن الإرهاب ظاهرة عالمية، لا وطن له ولا دين، وأن المسلمين يعانون من الإرهاب مثل غيرهم من الشعوب . ومن الظلم البيِّن أن يتهم المسلمون وحدهم بالعنف والعدوان . فالإسلام دين يحرم العدوان ويحارب الظلم ويحترم حرمة النفس الإنسانية .

٣ ـ صور الإرهاب :

وللإرهاب صور متعددة أو أبعاد متنوعة . ولعل أوضح هذه الصور فى العصر الحاضر هى صورة تلك التنظيمات التى لها أهداف سياسة ترتدى ثيابًا دينية تريد أن تصل إليها عن طريق العنف والإرهاب .

ومن صور الإرهاب أيضًا إرهاب الدولة حينما تعتدى دولة ظلمًا وعدوانًا وضد كل القوانين والأعراف الدولية والقيم الأخلاقية على دولة أخرى بقصد نهب خيراتها أو إخضاعها لنفوذها وإملاء سياسات معينة عليها . وذرًا للرماد فى العيون ترفع الدولة المعتدية فى العادة شعارات رنانة لتبرير عدوانها من قبيل إنقاذ الشعب فى الدولة المعتدى عليها أو أى أسباب أخرى واهية . ولا يمكن أن يصدق عاقل مثل هذه الذرائع . فدوافع التعاطف الإنسانى لا مكان لها فى هذه الأحوال ، وهناك بالقطع دوافع أخرى مختلفة تمامًا عما هو معلن[1] ، وهذا أمر لم يعد خافيًا على أحد فى عالم اليوم .

وقد أدرجت القوى العظمى فى قائمة الإرهاب صورة جديدة مغلوطة تتمثل فى المقاومة المشروعة من أجل استرداد الحقوق . فعلى الرغم من أن القانون الدولى يقف فى صف الشعوب المقهورة المدافعة عن حقوقها والرافضة لاحتلال قوى أجنبية لأراضيها فإن الدول المتنفذة فى عالمنا المعاصر قد استطاعت أن تروج لما تراه إرهابًا من جانب بعض الشعوب المظلومة المدافعة عن حقوقها .

وبمقتضى ذلك أصبح الفلسطينى الذى يدافع عن حقوقه إرهابيًا . وبذلك انقلبت الموازين وأصبحنا فى عالم يستخدم معايير مزدوجة تجعل من صاحب الحق

---

(١) د. جلال أمين : خرافة التقدم والتخلف – ص ١٢٩ .دار الشروق ٢٠٠٧م .

إرهابيًا ومن المعتدى ضحية . وقد لجأت هذه القوى إلى ترديد ما تريد ترويجه من مفاهيم خاطئة . ومن كثرة التكرار بدأ الناس يصدقون ما يلقى إليهم عن طريق الإعلام الدولى الموجه لخدمة مصالح معينة . ولم يعد العدل هو القيمة التى ينبغى أن يدافع الجميع عنها ويقفوا بجانب إقرارها ، وإنما أصبحت المصلحة هى الحاكمة فى عالمنا المعاصر . وهذا يعنى تراجع دور القيم الأخلاقية التى من شأنها تأكيد المعانى الإنسانية الرفيعة .

والإرهاب له أسباب كثيرة منها ما هو معلن ومنها ما هو غير معلن ، وتشير العديد من البحوث - حتى فى العالم الغربى أيضًا - إلى أن من أهم أسباب الإرهاب الفقر والاضطهاد وسوء الأحوال الاقتصادية [1] وغياب الحريات وانعدام الديمقراطية و إتباع سياسة المعايير المزدوجة من جانب القوى العظمى . ولا ينفى ذلك بطبيعة الحال أن هناك أسبابًا أخرى مهمة تتمثل فى الأطماع الاستعمارية ونهب خيرات الشعوب والاستيلاء على مصادر ثرواتها - كما سبق أن أشرنا - وذلك بالإضافة إلى الدوافع الإجرامية لدى بعض الجماعات والتنظيمات التى لها أهداف سياسية مغلفة بغلاف دينى .

ولا شك فى أن انتشار الإرهاب فى بلد ما من شأنه تعطيل التنمية فى المجتمع وإعاقة التقدم وانعدام الأمن وإشاعة الفوضى . وفضلاً عن ذلك فإن استخدام الشعارات الدينية من جانب الإرهاب يسئ إلى الدين إساءة بالغة .

٤ ـ أسلوب معالجة الإرهاب :

ولا جدال فى أن الإرهاب قد أصبح مشكلة عالمية . ومن هنا فإن مواجهته تتطلب جهودًا دولية على مستويات عديدة منها ما هو أمنى أو اقتصادى أو اجتماعى أو سياسى . ومناهضة الإرهاب لا تقتصر - ولا يجوز أن تقتصر - على الدور الذى تقوم به الحكومات ، إنه ميدان تشترك فيه العديد من المؤسسات وقطاعات الأعمال والأفراد [2] .

---

(1) Bertelsmann-Stiftung in Guetersloh

(٢) الإرهاب - التهديد والرد عليه : إريك موريس وألان هو . ترجمة د . أحمد حمدى محمود ص ١٦٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م .

(أ) الغرب والإرهاب :

ومن الواضح أن سياسة الحرب على الإرهاب التى تتبعها القوى العظمى والتى تركز فى المقام الأول على الجانب الأمنى وحده قد فشلت حتى الآن فى القضاء على هذه الظاهرة أو التخفيف من حدتها ، وذلك لأنها تعالج الظاهرة من سطحها ولا تعالج أسبابها الحقيقية .

وقد دعت مصر على لسان الرئيس مبارك فى يناير عام ١٩٨٦م أمام الجمعية البرلمانية للمجلس الأوروبى بمدينة استراسبورج إلى عقد مؤتمر دولى حول الإرهاب بهدف إنشاء آلية دولية تحت مظلة الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب على غرار آلية مكافحة المخدرات ، وهذا يتطلب بطبيعة الحال ضرورة التعاون الدولى لإحكام القبضة على الجماعات الإرهابية [1]. ولا تزال الأسباب الملحة لهذه الدعوة قائمة حتى اليوم .

وقد أدت السياسة الحالية فى محاربة الإرهاب إلى اتساع دائرته كما هو الحال فى العراق – على سبيل المثال – والذى لم يكن يعرف الإرهاب قبل الاحتلال .

ومن ناحية أخرى فإن سياسة محاربة الإرهاب الراهنة لا تفرق بين الإرهاب وبين المقاومة المشروعة ، وبالتالى فلن تنجح هذه السياسة فى القضاء على الإرهاب إلا إذا تضافرت الجهود على معالجة الأسباب الحقيقية التى تؤدى إليه ، ومن ذلك ضرورة تحقيق العدالة لكل الشعوب دون تمييز . وهذا يعنى أن القضاء على الإرهاب مرهون بإزالة الأسباب المؤدية إليه .

وفى هذا السياق يقول عالم الإسلاميات الألمانى المعروف فريتس اشتيبات (Fritz Steppat) : « إن الإسلام لا يشكل تهديدًا للعالم ، ولكن الكثيرين من المسلمين يشعرون بأنهم مهددون فى عالمنا . ومن الممكن والحال كذلك أن تنبثق عن هذا الشعور تصرفات رعناء وعدوانية . وإذا كانت الأصولية فى العالم الإسلامى

---

(١) مختار شعيب ص ٨٢ وما بعدها .

ينظر إليها على أنها رد فعل حيال موقف تاريخى ، فلا ينبغى لنا أن نتوقع أنها ستفقد شيئًا من أهميتها قبل أن يتغير هذا الموقف التاريخى من أساسه .» [1]

(ب) المعالجة الإسلامية للإرهاب :

أما معالجة الإرهاب فى عالمنا الإسلامى فإن لها طابعًا مختلفًا ، وذلك بالنظر إلى أن الإرهاب يرتدى فى العادة ثياب الدين اعتمادًا على أن الدين لا يزال له عمق عميق فى المجتمع الإسلامى . ومن هنا فإن المعالجة الدينية تكتسب أهمية خاصة بالإضافة إلى آليات المعالجات الأخرى الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهذا ما يدعونا لأن نركز على هذا الجانب الدينى لما له من آثار بعيدة المدى .

ويمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى عنصرين مهمين فى مواجهة الإرهاب : أولهما : التوعية الدينية السلمية فى الإعلام والمؤسسات الدعوية والتعليمية . فالإرهاب يعتمد على جهل غالبية الناس بتعاليم الدين الصحيحة . وعن طريق تعليم أبنائنا التفكير النقدى والكشف عن حقائق الدين والمعرفة السليمة بتعاليمه يمكن حماية أجيالنا من عمليات غسيل المخ والانجذاب نحو الشعارات البراقة التى يرفعها الفكر المتطرف . فالإرهاب فى العادة يعتمد على فكر خاطئ وتفسيرات مغلوطة للدين ، والفكر المتطرف إذا تحول إلى سلوك أصبح إرهابًا ، ومن هنا فإن أبلغ رد على هذا الفكر الخاطئ يتمثل فى إبراز الأفكار الإيجابية التى تعد أفضل السبل لمواجهة الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة ، وذلك عن طريق الإقناع الذى يعتمد على مقررات العقل السليم ، وعلى النصوص الدينية الواضحة التى لا تحتمل التأويل . والإنسان الذى يستخدم عقله على نحو سليم لا يستطيع أى فكر متطرف أن يخدعه أو يؤثر فيه .

وكمثال على كشف خطأ توجهات الإرهاب الذى يستخدم الدين فى عمليات التفجير البشرى ، التى تسئ إلى الصورة المشرقة للإسلام ، يمكن الكشف عن أن تفجير الشخص لنفسه وسط أبرياء يعنى من وجهة النظر الإسلامية ارتكاب

---

(1) Fritz Steppat : Islam als Partner , Beirut 2001 , P . 392 .

جريمتين فى وقت واحد . فالجريمة الأولى هى قتل الشخص لنفسه . وهذا جرم منهى عنه فى الإسلام . فالقرآن يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [1] ، ويقول ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [2] ، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « من تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فى نَارِ جَهَنَّم خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا ، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمَّهُ فى يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا » [3] .

أما الجريمة الثانية فهى فى حق الإنسانية لأن الإسلام يعتبر قتل النفس الواحدة بغير حق بمثابة قتل للبشرية كلها - كما يقول القرآن الكريم - ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [4] .

أما العنصر الثانى فى مناهضة التطرف والإرهاب فيتمثل فى ترسيخ قيمة التسامح فى نفوس أبناء الأمة عن طريق التربية والمناهج التعليمية .

والتسامح فى الإسلام ليس مجرد قيمة نظرية أو شعار لا مضمون له وإنما كان وسيظل واقعًا معاشًا له رسوخه فى العقول ومكانته فى القلوب وجذوره فى التاريخ . وغنى عن البيان أن عالمنا المعاصر فى أشد الحاجة إلى التسامح لمواجهة طوفان التعصب والكراهية الذى يريد أن يغرق العالم فى دوامته المدمرة لسفينة هذا العالم .

ولعل التعرف على نموذج التسامح فى الإسلام وتطبيقه عمليًا فى دنيا المسلمين وإبرازه للآخرين يكون ، بالإضافة إلى مناهضته للتطرف والإرهاب ، دافعًا لهم إلى إعادة النظر فى الكثير من المفاهيم الخاطئة والأفكار المغلوطة عن الإسلام والمسلمين ، ويسهم بشكل إيجابى فى مزيد من التقارب والتفاهم والتعاون بين الأمم والشعوب فى ترسيخ أسس السلام فى العالم .

---

(١) سورة النساء : ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٥ .

(٣) رواه البخارى فى الصحيح .

(٤) سورة المائدة : ٣٢ .

والتسامح يعنى احترام التعددية الدينية والثقافية ويعنى قبول الآخر والحوار معه بصرف النظر عن انتماءاته العقدية أو العرقية ، ويعنى أيضًا احترام الرأى الآخر مهما كان مخالفًا لرأينا . فليس من حق أى مخلوق أن يدعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل . وقد عبر الإمام الشافعى عن هذا المعنى فى تسامح رائع قائلاً : « رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .ويعبر الشيخ محمد عبده عن خلق التسامح الإسلامى بقوله : « لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر » .

والتسامح الإسلامى ليس تسامحًا حياديًا ولا تسامحًا باردًا وإنما هو تسامح إيجابى يحث على التعاون مع الآخرين بلا حدود طالما أن فى ذلك خيرًا للجميع . وليس من التسامح فى شىء الرضا بالظلم والوقوف حياله موقفًا سلبيًا ، فدفع الظلم عن المظلومين وردع الظالمين مبدأ أخلاقى وإسلامى لا يجوز التفريط فيه أو الخلط بينه وبين التسامح .

فالإسلام ينتصر دائمًا لحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته الدينية أو العرقية أو الثقافية . وذلك كله يعبر تعبيرًا لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامى الذى سيظل عنوانًا على هذا الدين إلى آخر الزمان .

٥ ـ التعاون فى مجال محاربة الإرهاب :

ونظرًا إلى أن الإرهاب – كما يعرفه العالم اليوم – يمثل ظاهرة عالمية يكتوى بنارها الجميع من كل الأديان والحضارات فإن الأمر يدعو – كما سبق أن أشرنا – إلى تضافر الجهود والتعاون الوثيق من أجل القضاء على كل الأسباب التى تؤدى إلى الإرهاب وتساعد على انتشاره .

ولا شك فى أن هذا التعاون لن يتحقق على نحو فعال إلا إذا كان هناك تفاهم مشترك وإدراك حقيقى بحجم الأخطار التى تهدد الجميع والتى لن ينجو منها أحد .

وللوصول إلى هذا التفاهم المشترك لابد من الحوار بين الأديان والحضارات . فهذا الحوار هو السبيل القويم لدعم قيمة التسامح والتعايش بين البشر لمواجهة كل أشكال التطرف والإرهاب ودرء المخاطر التى تهدد البشرية وتهدد الحضارة والأديان اللذين يمثلان صمام الأمان وحصن السلام للبشرية جمعاء .

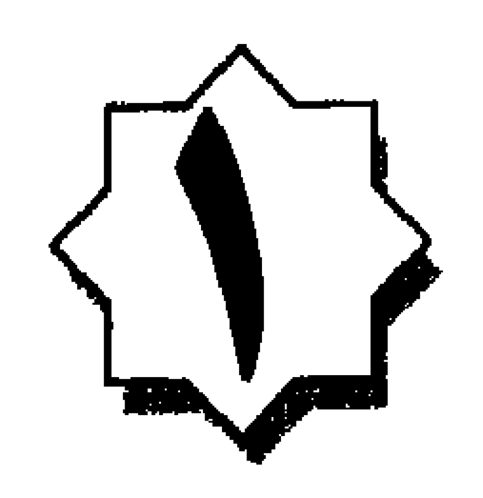
وليس هناك من شك فى أن عالمنا المعاصر فى أشد الحاجة إلى التضامن الفعال من أجل درء خطر الإرهاب والقضاء عليه حتى يعم السلام فى هذا العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعًا .

* * *

الفصل الخامس

حوار مع الماضى البعيد

- دور القيم فى الحضارة المصرية القديمة
- عودة الوعى الحضارى
- قيمة الانتماء



دور القيم فى الحضارة المصرية القديمة(1)

تُعَدُّ القيمُ فى كل مجتمع معايير للسلوك الإنسانى . والمجتمع المتوازن هو ذلك المجتمع الذى ينتشر فيه الوعى بالقيم ، ومن ثم الالتزام بها . ويرتبط بازدياد الوعى بالقيم والإحساس بها مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط .

والأمر الذى لا جدال فيه أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى مجتمع دون قيم تحكم سلوكه على المستوى الفردى والاجتماعى ، بل وتحكم سلوكه إزاء الكائنات جميعًا . وهذا يؤكد أن الإنسان يعد كائنًا أخلاقيًّا لديه بالفطرة ضمير يلزمه بالسلوك الأخلاقى ، باستثناء من فسدت فطرتهم ، وصموا آذانهم وعقولهم عن صوت الضمير . فهؤلاء من الشواذ الذين لا يمثلون النوع الإنسانى ، ولا يؤثر وجودهم فى جعلنا نفقد ثقتنا فى الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم من الناحيتين المادية والمعنوية .

ومن الحقائق الواضحة أن منظومة القيم الأخلاقية لها جذورها الضاربة فى أعماق النفس البشرية لدى الشعوب المختلفة منذ آدم حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة . فلا خلاف على أن الصدق والأمانة والعدل والإحسان إلى الوالدين من الفضائل التى ينبغى على الإنسان أن يلتزم بها ، وأن ما يقابلها من الكذب والخيانة والظلم وعقوق الوالدين من الرذائل التى ينبغى على الإنسان أن ينأى بنفسه عنها . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على ثبات القيم على الرغم من اختلاف تصورات الأجيال فى النظر إليها .

والأمر الجدير بالتأمل والاعتبار أن مصر – صاحبة الحضارة العريقة – قد عرفت القيم بصورة واضحة تمامًا قبل أن تعرف تعاليم الأديان السماوية . وهذا يدل

---

(1) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١/ ١٢/ ٢٠٠٧ .

من ناحية على أن القيم فطرية فى النفس البشرية قد زود بها الإنسان عند خلقه ، وأن الطبيعة الإنسانية فى أصل فطرتها طبيعة خيِّرة وليست شريرة . فالأصل هو الخير والشر طارئ عليه . ومن أجل ذلك فإن الخير سيظل موجودًا فى العالم على الرغم من طغيان الشرّ . فالشرُّ مهما كانت سطوته لن يستطيع أن يمحو الخير من الوجود لأنه أصل الطبيعة الإنسانية .

ومن ناحية أخرى يدلنا توصل المصريين القدماء إلى التعرف بصورة كاملة على القيم على مدى التقدم الرائع لديهم فى هذا المجال ، الأمر الذى كان له أثره العظيم فى مساعدتهم على البناء الحضارى الشامخ الذى يعرفه التاريخ . فالحضارة ليست فقط أبنية شاهقة أو تقدمًا فى المجال المادى ، وإنما هى - قبل كل ذلك - تقدم أخلاقى من شأنه أن يدفع إلى التقدم فى كل المجالات الأخرى فى الحياة . وهذا يعنى أنه كلما ازداد الإحساس بالقيم والوعى بها كان ذلك دافعًا إلى الصعود قدمًا فى درجات التحضُّر والرُّقىِّ .

ومن خلال تصفحنا لما ورد عن قدماء المصريين فى هذا الصدد نجد أنفسنا نقف إجلالاً وإكبارًا لأسلافنا العظام الذين كانوا حريصين كل الحرص على القيم الأخلاقية والاجتماعية . وإن نظرة سريعة على ما جاء - على سبيل المثال - فى « كتاب الموتى » الفرعونى المأخوذ عن «بردية آنى » - التى لا تزال موجودة بالمتحف البريطانى والتى تشتمل على اثنين وأربعين بندًا - نجد منظومة أخلاقية متكاملة شملت كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والدينية . ومن هذه المنظومة نقتطف بعض ما جاء فيها لنتذكر مفاخر أسلافنا من ناحية ، ولنعتبر بما جاء فى هذه المقتطفات من ناحية أخرى .

يقول « آنى » معبِّرًا عن هذه القيم والحفاظ عليها فى دفاع الميت عن نفسه فى العالم الآخر أمام الآلهة الذين يقطنون قاعة العدل والحق : إنى لم أرتكب إثمًا ولم أسرق ، ولم أقتل ، ولم أنطق بالأكاذيب ، ولم أُسبِّب ألمًا أو حزنًا أو بكاءً لأحد ، ولم أرتكب الزنا ، ولم أتعامل بخبث ، ولم أرتكب الغش ، ولم أتسبب فى خراب أرض

محروثة ، ولم أتلصص على أحد أو أرتكب نميمة ، ولم أكن حانقًا غاضبًا إلا من أجل الحق ، ولم أغرر بزوجة إنسان ، ولم أدنِّس نفسى أو أسبِّب الرعب لإنسان ، ولم أرتكب الفُحشَ ، ولم أصم أذنى عن كلمات الحق والعدل ، ولم أمارس الكبرياء ، ولم أشعل نيران خصام أو عراك ، ولم أحكم دون روية ، ولم أسع فى وشاية ، ولم أضخم الكلمات ، ولم ألوث أبدًا المياه ، ولم أنطق باستهزاء ، ولم أحرم الرضيع طعامه .

وفى بردية أخرى يقول « نو » : لم أعامل الخدم بسوء ولم أسمح بضرر يقع على خادم ممن يعلوه ، ولم أسبب تعاسة لأحد ، ولم أسلب المظلوم ما يملك ، ولم أتسبب فى ألم ، ولم أجعل أحدًا يشعر بالجوع ، ولم أقتل ولا أمرت بالقتل لحسابى ، ولم أرتكب الزنا ، ولم أدنس نفسى ، ولم أزد ولم أنقص شبرًا من الأرض ، ولم أستول على حقول الآخرين ، ولم أغش فى الكيل ولم أطفف فى الميزان ، ولم أطرد قطيعًا من مراعيه ، ولم أحول مياه الرى فى موسمها ، ولم أخرِّب قنوات المياه الجارية .

وفى بردية « نو » - أيضًا - من خطاب إلى آلهة العالم السفلى نقرأ : لقد أعطيت الخبز للجوعى والماء للعطشى والكساء للعرايا وزورقًا لمن تحطمت مراكبهم .. إلخ. وفى بردية نبسنى « الناطق بالحق » تتردد نفس المعانى فى اثنين وأربعين بندًا . ومن الملاحظ أن عدد هذه البنود يتفق مع عدد الآلهة الاثنين والأربعين الموجَّه إليهم الخطاب والجالسين فى قاعة العدل . وفى كل هذه البرديات تأكيد على احترام المقدسات الدينية والحفاظ عليها وعدم تدنيسها بأى شكل من الأشكال .

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مدى الإحساس الخُلُقى المرهف والإدراك الواعى للقيم الأخلاقية وأهميتها فى حياة الأفراد والجماعات . وحين نطالع ذلك فإننا نشعر أن هؤلاء الذين قالوا ذلك منذ آلاف السنين كأنهم لا يزالون يعيشون بيننا الآن ، يشاركوننا الرؤية ذاتها التى ننظر بها إلى القيم الأخلاقية . فالإنسان هو الإنسان فى كل العصور بصرف النظر عن تغيير الأحوال والظروف . وهذا يدل على أن القيم الأخلاقية ثابتة لا تتغير بتغيُّر الزمان والمكان . فالفضيلة لا يمكن أن تنقلب إلى رذيلة ، والخير لا يمكن أن ينقلب إلى شر . فنحن مهما تغيَّرت وجهات نظرنا وتصوُّرنا للناس والأشياء فإن هناك ثوابت فى حياتنا ومن بينها « القيم الأخلاقية » .

والأمر الذى نود أن نؤكد عليه فى هذا الصدد هو الارتباط الوثيق بين الرقى المادى والرقى الأخلاقى فى الحضارة المصرية القديمة . فالبناء المادى يحتاج إلى الإخلاص فى العمل والإتقان فيه والأمانة فى التنفيذ والصدق فى القول والعمل والبُعد عن الغش والتزوير وبصفة عامة يحتاج إلى المسئولية بأوسع معانيها . ومن هنا فإن المجتمع الواعى المدرك للمسئولية الإنسانية سيصل حتمًا إلى تحقيق الآمال والطموحات ، ليس فقط على المستوى الشخصى وإنما أيضًا على المستوى العام . والمصريون القدماء قد استطاعوا أن يبدعوا فى كل المجالات انطلاقًا من هذا الشعور الواعى بالمسئولية .

والسؤال هو : إذا كان هذا هو شأن المصرى القديم الذى ترك لنا آثارًا خالدة تدل على إبداعاته فى كل مجالات العلوم والفنون فما لنا نحن الأحفاد قد توقفنا ؟ هل اختلفت الجينات بمرور الزمن وأصابها الضمور فتوقف الإبداع ؟ إن أمامنا القدوة ماثلة أمام الأعين فلماذا لا نراها ؟ وفى هذا المقام يحضرنى سؤال وجهه لى صديق ألمانى عاشق للحضارة المصرية القديمة . فقد سألنى : هل المواطن المصرى على وعى بهذه الحضارة وإنجازاتها الرائعة ؟ وهنا لُب القضية . فكيف يمكن لنا أن نرتقى بوعى المواطن المصرى ليدرك إدراكًا حقيقيًّا هذه الإنجازات الرائعة فى حضارته القديمة على المستويين المادى والأخلاقى ؟

لا شك فى أن المناهج التعليمية والتربية الوطنية والتوعية الإعلامية تتحمل جميعها مسئولية الارتقاء بوعى المواطن وجعله يشعر بالفخر والاعتزاز برصيد هذه الحضارة الخالدة ويستعيد الثقة بنفسه وبقدراته ، الأمر الذى يدفعه إلى الاقتداء بها والسير على منوالها .

وهذا يعنى أنه لا يجوز لنا أن نكتفى بالوقوف عند الأطلال قانعين باجترار ذكريات عزيزة علينا . فهذا هو موقف الكسالى الذين لا يريدون أن يفعلوا شيئًا مكتفين بترديد القول : أفلا ترون كيف كان آباؤنا وأجدادنا ؟ وهؤلاء وأمثالهم هم الذين عناهم جمال الدين الأفغانى عندما قال : لقد كان آباؤكم وأجدادكم رجالاً ،

ولكن لا يليق بكم أن تتذكروا مفاخرهم إلا أن تفعلوا فعلهم . بمعنى أن نسير على نفس الدرب ونبدع كما أبدعوا .

ولا يتعارض ما ورثناه من حضارتنا القديمة من قيم نبيلة مع ما ورثناه من قيم عظيمة من حضارتنا الإسلامية . فالقيم الإنسانية لا تتعارض ولا تتناقض وإنما تتكامل . ولنا فى هذا الصدد أسوة حسنة فى النبى عليه الصلاة والسلام الذى أثنى على بعض القيم النبيلة التى كانت لدى العرب فى عصر الجاهلية ومن بينها نصرة الضعيف والمظلوم التى تم الاتفاق عليها فى حلف الفضول وقال فى ذلك : « لو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت »[1] .

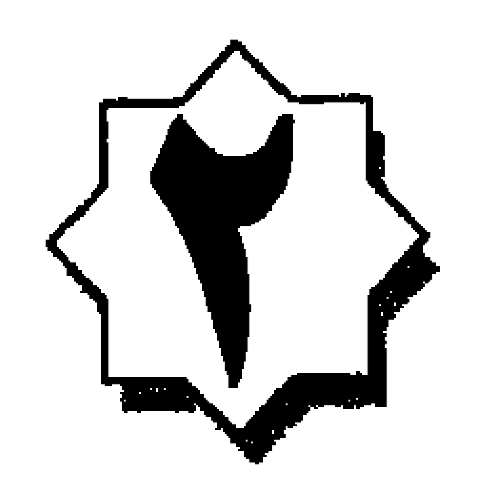
إن التراث الإنسانى أخذ وعطاء ، ولا توجد أمة تبدأ من الصفر ولكنها تتفاعل مع مواريثها أولاً ، فإذا لم يكن لها نصيب من ذلك التفتت إلى مواريث غيرها ، وليس فى هذا بأس على الإطلاق .

وقد قرر فيلسوفنا العظيم ابن رشد أن الاطلاع على ما لدى الآخرين واجب شرعًا ، وأشار إلى أن ما جاء فيه إن كان موافقًا للحق أخذنا به وسررنا به وشكرناهم عليه ، وإن كان غير ذلك لم نأخذ به ونبهنا عليه وعذرناهم .

إنها دعوة إلى عودة الوعى بحضارتنا المصرية القديمة والإسلامية أيضًا لنأخذ منها الدروس والعبر والقدوة والشعور بالمسئولية لنستكمل المسيرة ونواصل طريق التقدم والارتقاء بعد توقف طال إلى الحد الذى بدأنا فيه ننسى مواريثنا الحضارية . وهذه تذكرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* * *

(١) رواه البيهقى فى سننه . ونصه : « لقد شاهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » .



عـودة الوعى الحضارى[1]

لقد كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر أغسطس ٢٠٠٦م وصباح اليوم نفسه من اللحظات المشهودة فى تاريخ مصر الحديث ، حيث شهدت شوارع العاصمة المصرية رحلة ملكية نادرة الحدوث ، وخرج الشعب ليحيى ملك مصر العظيم رمسيس الثانى الذى حكم البلاد قبل ثلاثة آلاف عام ، وتجاوب الملك مع الشعب ، فلم يسرع الخطى ، بل سار موكبه المهيب فى تؤدة ووقار يليقان بمواكب الملوك العظام الذين يحظون بحب غامر فى أعماق الشعب العظيم ، شعب مصر الرائد فى الحضارة والتاريخ .

لقد كانت مناسبة غالية استعاد فيها أبناء مصر فى ذاكرتهم أمجاد حضارتهم العريقة وتاريخهم المجيد ، وذكرتهم بأنهم من سلالة بناة تلك الحضارة العريقة ، وأحفاد بناة الأهرام والفنانين العظام الذين سجلوا مآثر هذه الحضارة فى معابد وتماثيل ورسوم ونقوش لا تزال خالدة وباقية على مدى آلاف السنين .

ومن حق شعب مصر أن يفخر بحضارته ويعتز بملوكها وعلمائها وفنانيها وعطائها الحضارى الخالد .

ولكن الذى أود أن أؤكد عليه فى هذا الصدد هو أهمية عودة الوعى بهذه الحضارة لدى المواطنين وضرورة ترسيخ هذا الوعى فى نفوس وعقول كل المصريين . فليس الأمر مجرد مناسبة عابرة خرج فيها عشرات الآلاف ، من أبناء مصر لتحية ملكهم العظيم رمسيس الثانى ، وتابع فيها مئات الآلاف بل الملايين الموكب الملكى على شاشات التليفزيون الذى أحسن صنعًا حين واصل على مدى أكثر من عشر ساعات بث وقائع هذه الرحلة المهيبة .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٠٠٦/٩/٩ .

إن الأمر يحمل فى طياته دلالة بالغة الأهمية عميقة الأثر ، ولا يجوز أن تمر هذه المناسبة مرور الكرام ، ويكون مصيرها فى زوايا النسيان . ولا أعدو قول الحق إذا قلت إن البعد الأهم فى هذه المناسبة التاريخية بعد مصيرى فى حياة مصر كلها ومستقبلها .

فليس هناك من شك فى أنها حرَّكت فى نفوس المصريين ما يمكن أن نطلق عليه بذور عودة الروح الحضارية . وهذه البذور فى حاجة إلى من يتعهدها بالرعاية والعناية حتى تثمر الثمرة المرجوة بالخروج من مرحلة اللاوعى إلى الوعى الحقيقى المحرك للطاقات لدى أجيال مصر ، مستنهضًا هممهم ، شاحذًا لعزائمهم ، مفجرًا لمواهبهم وباعثًا لقدراتهم للنهوض ببلادهم حتى يكونوا جديرين بالانتساب إلى هذه الحضارة المصرية الخالدة .

ويحضرنى فى هذا المقام حوار دار بينى وبين صديق ألمانى مبهور بالحضارة المصرية إلى درجة تفوق الوصف . فقد قال هذا الصديق متسائلاً : ماذا كنا نحن حينما كان هؤلاء يبنون هذه الحضارة العظيمة ؟ وأجاب هو نفسه عن هذا التساؤل قائلاً : لقد كنا حينذاك مازلنا نتحرك ونقفز فوق الأشجار ، ويقصد أنهم كانوا لا يزالون فى مرحلة ما قبل الحضارة . ثم وجه لى سؤاله المهم : هل هناك وعى حقيقى لدى شعب مصر بهذه الحضارة العريقة ؟

وتلك هى القضية المهمة ذات البعد المصيرى الذى أشرنا إليه . إن من حق شعب مصر أن يتعرف على حضارته على نحو يحرك طاقاته ويدفعه إلى البناء والتعمير بثقة واعتزاز مستعيدًا هذه الأمجاد . فهل نعمل حقًّا من أجل عودة الوعى بذلك ؟

إن مناهج التاريخ المدرسية لا تلبى هذا الطموح ، والبرامج الإعلامية - وبخاصة التليفزيون - لا تحفل بذلك كثيرًا ولا تضعه فى قائمة أولوياتها ، وإن فعلت فإن ذلك يأتى فى مناسبات عابرة . فالمواطن العادى ليس لديه وعى بأهمية هذه الحضارة ، لقد تعود على رؤية الأهرامات وأبى الهول وغيرهما من آثار مصرية قديمة كما تعود على المرور بجوار المتحف المصرى دون أن يحرك ذلك فى نفسه شيئًا ذا بال ،

وكأنما هذه الآثار أمر يخص الأجانب السائحين ، وهذا يعنى أن هذه الحضارة لم يتولد عنها فى وعى المواطنين ثقافة توجه السلوك وتحرك العقول . فهل بُعد المسافة الزمنية وتداول الحضارات على أرض مصر قد أنسى شعبها حضارته المصرية القديمة ؟

إن الإسلام عندما دخل مصر منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنًا من الزمان وجد هذه الآثار الخالدة فلم يمسها بسوء لأنها شاهدة على قدرة الإنسان المستمدة من قدرة الله . والقرآن نفسه يطلب من البشر التعرف على حضارات وتاريخ السابقين واستخلاص الدروس والعبر منها فى مسيرتهم الحياتية .

وليس صحيحًا أن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة . فالإسلام كان أحرص الأديان والحضارات على الحفاظ على العلم والعلماء وعلى التراث الحضارى الإنسانى . والثابت علميًّا أن هذه المكتبة قد أحرقت قبل دخول الإسلام إلى مصر بحوالى ثلاثة قرون .

لقد كان أمرًا عظيمًا أن يعاد بناء مكتبة الإسكندرية لتذكرنا وتذكر العالم من حولنا بأننا - نحن المصريين - نسير على درب أجدادنا بناة الحضارة العظيمة . والسؤال هو : هل تحقق بإنجاز هذا الحدث العظيم تحريك الوعى الحضارى لدى المواطنين ؟

إننا فى حاجة إلى توظيف إعادة بناء مكتبة الإسكندرية ورحلة الملك رمسيس الثانى من ميدانه فى وسط القاهرة إلى مقره الجديد فى المتحف الكبير ، وما نملكه من آثار رائعة ، لغرس الوعى بحضارتنا القديمة فى النفوس ، فذلك له تأثير بالغ الأهمية فى رفع معنويات المواطنين وتحميسهم للعمل من أجل بناء وطنهم . ولا نشك فى حب المصريين لبلادهم ، ولكن الوعى الحضارى من شأنه أن يترجم هذا الحب إلى العمل والإنتاج . إن أبناء مصر فى حاجة إلى مشروع حضارى يلتفون حوله ويبذلون ما يستطيعون من أجل تحقيقه .

ولقد كان الفن فى الماضى القريب سبَّاقًا إلى التذكير بحضارتنا الخالدة وغرس الوعى الحضارى فى نفوس المواطنين . ولا أظن أن الكثيرين من الأجيال الجديدة

تتذكر كوكب الشرق أم كلثوم وهى تشدو بقصيدة حافظ إبراهيم « مصر تتحدث عن نفسها » وتقول :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر كفونى الكلام عند التحدى

وتنتهى القصيدة بمناشدة مصر لأبنائها بالعمل بجد ونشاط للنهوض بها :

واستبينوا قصد السبيل وجدوا فالمعالى مخطوبة للمُجِدِّ

إن الساحة الفنية قد امتلأت بدلاً من ذلك بالغث من الكلمات والردىء من الألحان والخليع من الأصوات المستوردة والإسفاف فى الحركات ، فكيف لهذه الأجيال فى خضم هذا الصخب العبثى أن تلتفت إلى حضارتنا الخالدة وتتعرف على مآثرنا العريقة ، وتعى قيمة إرثنا الحضارى الذى ليس له نظير ؟

إن شعب مصر لا يزال يحتفظ بالجينات الإبداعية الخلاقة التى ورثها عن أجداده العظام ، ولكنها للأسف فى حالة كُمُون ، وما نفعله بأجيالنا على مستويات كثيرة يساعد على زيادة كُمونها لا على تنشيطها .

ولكن الأمل لا يزال يداعب الأجفان المرهقة فى تغيير ثقافتنا الجامدة الرتيبة إلى ثقافة خلاقة ، تعيد إلينا الوعى بحضارتنا العظيمة ، وتعيد الروح التى غرستها هذه الحضارة إلى أجيالنا الجديدة ، وتقضى على شعور اللامبالاة و « الأنامالية » السائد .

إن ما رواه لى الصديق الألمانى يجعلنى أذكِّر بالتجربة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية . لقد تم تدمير البلاد فى هذه الحرب تدميرًا يكاد يكون كليًّا . ولكن الشعب الألمانى رفض أن يستسلم لما حل به من دمار ، وكان التحدى الكبير . وفى فترة زمنية قصيرة حقق ما يعرف بالمعجزة الاقتصادية ، وعادت ألمانيا أكثر قوة وأكثر شموخًا بسواعد وعقول أبنائها الذين رفضوا الهزيمة فخلقوا منها نصرًا جعل منهم أقوى دولة فى أوروبا المعاصرة . إن التذكير بأمجادنا الخالدة مهم . لكن الأهم من ذلك ضرورة استعادة الوعى بهذه الأمجاد واستحضارها دائمًا أمامنا لتكون نبراسًا يضىء لنا طريقنا ويدفعنا إلى مواصلة السير على الدرب ، ومن سار على الدرب وصل .

* * *



قيمــة الانتمـاء

من بين القيم العديدة التى نتمنى أن نجـد لهـا مكانًـا بـارزًا فى حياتنـا الخاصـة والعامة قيمة الانتماء . والانتماء يعنى الانتساب المقترن بالولاء والتقدير لمكان معـين أو لجهة معينة أو لشخص من الأشخاص أو لمؤسسة لها دور مهم فى حياتنا . فهنـاك - مثلاً - الانتماء للوطن ، والانتماء للمؤسسة التى يعمل فيها المـرء ، والانـتماء لمهنـة من المهن ، والانتماء للأسرة ، والانتماء لعقيدة من العقائد أو فكرة من الأفكار . ومن أجل ذلك نجد أصحاب كل حرفة يشكِّلون فيما بينهم نقابـة أو رابطـة تـربط بيـنهم ينتمون إليها ويحرصون عليها ويشعرون بالولاء لها .

ومن الواضح أن الانتماء ينبنى على أساس أن الجهة التى أنتمى إليها قد أسدت لى صنيعًا ، وأنى مدين لها بالفضل والامتنان ، وأرى من واجبى أن أحفـظ لهـا هـذا الجميل وأردَّ لها هذا الدَّين . وكمثال على ذلك ما نشعر به من انتماء وولاء للـوطن . فالوطن له فى القلوب منزلة عظيمة ومكانـة فريـدة . فهـو المكـان الـذى ولـدنا فيـه وعشنا على أرضه ونعمنا بخيره وتنفَّسنا هواءه ، وهو الذى يحمـل أغـلى ذكرياتنـا فى طفولتنا وشبابنا وكهولتنا وحتى آخر لحظة فى حياتنا ، ولا نرضى به بديلاً مهما كانت الأحوال ومهما تعرضنا من أجله لمحن وأزمات . وهذا ما دعـا أمـير الـشعراء أحمـد شوقى إلى القول :

بلادى وإن جارت على عزيزة   وأهـلى وإن ضـنوا على كـرام

ومن منطلق هذا الشعور الغامر بالحب والإعزاز الذى يـشعر بـه كـل مـواطن نحو وطنه كان قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - عنـدما هـاجر مـن مكـة إلى

المدينة مخاطبًا وطنه العزيز مكة : « **والله إنك أحب أرض الله إلى نفسى ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت** »[1] .

وذلك على الرغم مما تعرَّض له فى وطنه مكة من ألوان الإيذاء والغدر والعدوان على يد مواطنيه المكيين الذين عفا عنهم جميعًا عندما عاد مرة أخرى إلى وطنه فاتحًا منتصرًا .

والشعور بالانتماء للوطن والولاء هو الذى يجعل المواطنين يهبُّون للدفاع عنه ضد أى خطر يهدده ، ويبذلون الدماء والأرواح فداء له وذودًا عن عزته وكرامته .

إن قيمة الانتماء للوطن - إذن - ليست مجرد كلمة تقال أو أغنية حماسية نرددها فى المناسبات ، وإنما هى فى حاجة مستمرة إلى ترجمة حقيقية لعمل ملموس يرفع من شأن الوطن ويُعلى من مكانته فى السلم وفى الحرب على السواء . ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن قيمة الانتماء للوطن فإن ذلك يتطلب منا أن نبرهن دائمًا على هذا الانتماء بأدلة حقيقية . فإذا كان انتمائى للوطن يتطلب منى أن أحافظ عليه وأحميه من كل عدوان خارجى أو اعتداء على أرضه وسمائه ، فإننى مطالب بنفس القدر أن أحمى أرض هذا الوطن وسماءه من التلوُّث بأى شكل من الأشكال ، حتى ينعم المواطنون فيه ببيئة نظيفة .

وهذا يتطلب منا أن نربِّى أبناءنا وبناتنا على الحرص على نظافة شوارعنا فى مدننا وقرانا ، ونعوّدهم على النظام والانضباط فى البيت وفى العمل وفى المدرسة ...إلخ ، ونغرس فى نفوسهم حب العلم والاستزادة منه والنبوغ فيه ، وننمِّى فيهم حب العمل من أجل خير الوطن والمواطنين ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، وحماية ممتلكات هذا الوطن وثرواته من أى عبث أو إفساد ، والضرب بشدة على يد كل من تسوّل له نفسه أن يعبث بشىء من مقدَّرات هذا الوطن ، كما ينبغى أن نحرص على سمعة الوطن وكرامته وأمنه واستقراره ، وعلى حماية المال العام ، ونظافة وسلامة كل المرافق العامة فى الدولة بوصفها ممتلكات للمواطنين

(١) رواه أحمد فى مسنده ، وأبو داود فى سننه .

جميعًا ، وذلك كله ما هو إلا تعبير عن الانتماء الحقيقى للوطن ، وترجمة صادقة للولاء والحب الذى تكنُّه القلوب للوطن .

ومن ذلك يتضح أن قيمة الانتماء للوطن قيمة شاملة لكل ما يتعلق بهذا الوطن من قريب أو من بعيد ، وأنها تشمل كل ما يمكن أن يتصوَّره المرء من جهود تُبذل لتقدم الوطن والمواطنين حتى تظل رايته خفَّاقة عالية تمثل شموخ الوطن وعزَّة المواطنين .

وما يقال عن قيمة الانتماء للوطن يقال عن الانتماء للإنسانية بصفة عامة ، والانتماء للأسرة ، وللمهنة، وللعقيدة، وللفكرة التى يقتنع بها الإنسان ، وللمدرسة، وللجامعة ، وللمؤسسة التى يعمل بها المرء .

وكل هذه الانتماءات والولاءات تصبُّ فى النهاية فى نهر الانتماء للوطن فتزيده تدفقًا للخير والتقدم والازدهار الذى يعود على الجميع بالحياة الحرة الكريمة والسعادة الغامرة والخير العميم . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

وفى ظل الظروف الراهنة التى تعيشها مصرنا العزيزة ، والتحولات الديمقراطية غير المسبوقة ، واللحظات الفارقة فى تاريخها الحديث ، يتطلب الأمر منا بذل أقصى ما فى وسعنا من جهد من أجل الإسهام الإيجابى فى تشكيل مستقبل هذا الوطن الذى ننتمى إليه . فالانتماء قيمة إيجابية تدل على الفعل وتدفع إلى المشاركة وتدعو إلى المبادرة ، وهى فى الوقت نفسه مسئولية أخلاقية . أما السلبية وعدم الاكتراث والبعد عن المشاركة من جانب المواطنين فى تشكيل مستقبل وطنهم فإنها مواقف لا تتفق بحال من الأحوال مع الانتماء وما يفرضه من التزامات على كل فرد فى أى موقع من المواقع .

وليس من المعقول أو المقبول أن نظل - على سبيل المثال - جالسين فى بيوتنا نتفرج على ما يحدث فى الوطن من تطورات ونكتفى بمقاعد المتفرجين كأننا نشاهد إحدى المسرحيات ، نمتعض إذا شاهدنا مشهدًا لا يعجبنا ، وتتهلل أساريرنا عندما

نشاهد مشهدًا آخر يمتعنا . إن الأمر جد خطير ولا يجوز عقلاً ولا شرعًا أن نكون متفرجين ، بل واجبنا أن نكون فاعلين مؤثرين محركين للأحداث .

ونحن على يقين من أن كل مواطن فى مصر يحب وطنه ويتمنى له أن يكون أفضل الأوطان فى العالم . ولكن الأمر ليس مجرد أمنيات . فنيل المطالب لا يأتى بالتمنى ولكن بالعمل الجاد الدءوب . ومن هنا فإننا نكون مقصرين فى حق بلادنا ومفرطين فى انتمائنا لهذا الوطن إذا لم تكن لنا مشاركة فعالة فى صنع مستقبلنا ومستقبل أجيالنا القادمة .

إن عزوف أكثر من ٧٥٪ ممن لهم حق التصويت من أبناء مصر - الذين لا نشكك إطلاقًا فى حبهم لبلادهم - عن المشاركة فى الإدلاء بأصواتهم فى صناديق الانتخابات يعبر - للأسف الشديد - عن انتماء منقوص ، ولا أكون مجاوزًا للحقيقة إذا قلت إنه يعد تفريطًا فى حق الوطن . ولا شك فى أن هناك أسبابًا عديدة تراكمت على مدى عقود طويلة كانت وراء الميل إلى هذا العزوف ، ولكن الظروف قد تغيرت ولم يعد هناك مبرر لهذا العزوف .

ونحن اليوم مقبلون على مرحلة فاصلة فى تاريخ أمتنا . وبلادنا فى أشد الحاجة الآن لتكاتف جميع المواطنين للوقوف صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص لصنع مستقبل مصر .

ولا شك فى أن مناخ الحرية الذى تشهده بلادنا قد أتاح الفرصة أمام كل مواطن ليعبر بصدق عما يريده لرفعة وطنه وتقدمه وازدهاره . ولا يجوز فى ظل هذه الظروف أن نتخلف عن المشاركة فى رسم الصورة الجديدة لوطننا ، ولا يجوز لأى مواطن من عامة الشعب أو من علية القوم أن يعتقد أن رأيه لن يلتفت إليه أو أنه لن يكون مؤثرًا فى صنع الأحداث . فالأمر لا يهم فئة معينة أو طائفة خاصة وإنما يهمنا جميعًا - نحن المصريين - رجالاً ونساءً ، شيبًا وشبانًا . وهناك فرق كبير بين أن نصنع نحن الأحداث أو أن نتركها تفاجئنا بما لا نريده أو نتمناه لبلادنا .

إننا مهما اختلفنا فى وجهات نظرنا لا ينبغى بأى حال من الأحوال أن يكون ذلك مبررًا لتقاعسنا عن أداء واجبنا نحو وطننا ، كما لا يجوز أن يكون ذلك داعيًا لأن نختلف على الهدف الأسمى وهو عزة هذا الوطن ورفعة شأنه والارتقاء به فى جميع المجالات .

إن مصر صاحبة التاريخ العريق والتى قدمت للبشرية الكثير من العطاء فى جميع المجالات الحضارية تقف اليوم فى مفترق طرق ، وتنادى أبناءها جميعًا مستنهضة للعزائم وشاحذة للهمم ومحركة للإرادات للحفاظ على عطائها الحضارى وتراثها الإنسانى وقيمها الغالية وتقاليدها الراقية . وهذا كله لن يتأتى إلا بسواعد وعقول أبنائها الحريصين على التعبير عن انتمائهم وولائهم لهذا الوطن والمستعدين لبذل كل غالٍ ورخيص فى سبيل عزته ورفعته .

إن مصر - التى هى فى خاطرنا جميعًا والتى يجرى حبها فى دمائنا - لها حقوق على كل منا . ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتأخر مواطن واحد عن أداء الضريبة المستحقة عليه لهذا الوطن . فكل حق يقابله واجب . وواجبنا فى المرحلة الحالية أن نحمى هذا الوطن من كل ما يحيط به من أخطار داخلية كانت أم خارجية .

ونحن جميعًا نعلم أن مصر مستهدفة من جهات عديدة ، ولا يراد لها أن تلعب دورها الحضارى الريادى فى هذه المنطقة من العالم ، وانتماؤنا لمصر يحتم علينا أن نقف صامدين نرد عنها كيد الكائدين وعبث العابثين ، وأن نسير بها نحو مستقبل مشرق قد بزغت شمسه بالفعل وبدأت نسائم صبحه تنعش النفوس بالآمال الكبار . إنها دعوة لكل مصرى ومصرية أن يترجم انتماءه لوطنه إلى أفعال تدفع به إلى طريق التقدم والازدهار والأمن والأمان والاستقرار ليأخذ مكانه اللائق به بين الأمم ويمارس دوره الفاعل فى دعم واستقرار عالمنا المعاصر .

* * *

أهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولا: مؤلفات عربية :

١ - تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) - دار المعارف بالقاهرة .

٢ - المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) - دار المعارف بالقاهرة .

٣ - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى - دار المعارف بالقاهرة . ومكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٨ .

٤ - الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة .

٥ - الدين والحضارة (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة .

٦ - حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومكتبة الشروق الدولية .

٧ - دراسات فى الفلسفة الحديثة - دار الفكر العربى .

٨ - مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية) - دار الفكر العربى .

٩ - مقدمة فى علم الأخلاق - دار الفكر العربى .

١٠ - مقدمة فى الفلسفة الإسلامية - دار الفكر العربى .

١١ - الإسلام فى مرآة الفكر الغربى - دار الفكر العربى .

١٢ - الإسلام فى عصر العولمة - مكتبة الشروق الدولية .

١٣ - الحضارة فريضة إسلامية - مكتبة الشروق الدولية .

١٤ - الإسلام وقضايا الحوار - مكتبة الشروق الدولية ، ومكتبة الأسرة ٢٠٠٧م .

١٥ - الإسلام والغرب - مكتبة الشروق الدولية .

١٦ - هموم الأمة الإسلامية - دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٧ - الإنسان والقيم فى التصور الإسلامى - دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٨ - ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر .

١٩ - الإسلام فى تصورات الغرب - مكتبة وهبة .

٢٠ - الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا (محاضرة) - مكتبة وهبة .

٢١ - الإسلام وقضايا العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٢ - من أعلام الفكر الإسلامى الحديث - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٣ - الإسلام وقضايا الإنسان- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٤ - مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٥ - مفاتيح الحضارة وتحديات العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٦ - الفكر الدينى وقضايا الأمة الإسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٧ - المسلمون فى مفترق الطرق - دار الرشاد - القاهرة ٢٠٠٧م .

٢٨ - الفكر الدينى وقضايا العصر - دار الرشاد - القاهرة ٢٠٠٨م .

ثانيًا: مؤلفات باللغات الأجنبية :

١ - فى اللغة الألمانية :

أربعة كتب هى : « فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت » ، «مدخل إلى الإسلام » ، « قضايا حول الإسلام » ، « الإسلام وقضايا الحوار » . وذلك بالإضافة إلى اثنى عشر بحثًا منشورة فى ألمانيا والنمسا ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٢ - فى اللغة الإنجليزية :

- ترجمة لكتاب : « الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك » ، وكتاب : « مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد » ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

- ثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) ونيودلهى (الهند) وهى على التوالى :

- « دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى » ، « الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب » ، « السلام فى نظر الإسلام » . وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ومكتبة الشروق الدولية البحوث الثلاثة الأخيرة بالإنجليزية فى كتاب بعنوان :

«On Philosophy Culture and Peace in Islam».

٣ - فى اللغة الفرنسية :

- ترجمة لكتاب : « حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك » .
- « الحوار الإسلامى المسيحى » .
- حوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٤ - فى اللغة القازاقية :

- ترجمة لكتاب : « حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك » .
- « الإسلام وقضايا الحوار » .

٥ - فى اللغات الروسية والتايلاندية والإسبانية والإندونيسية :

- ترجمة لكتاب : « حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك » .

٦ - فى اللغتين التركية والإندونيسية :

- ترجمة لكتاب : « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى » .

٧ - فى اللغة البوسنية :

- ترجمة لكتاب : « فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت » .

٨ - فى لغات أخرى :

وبالإضافة إلى ذلك تمت ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوروبا إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى : « قضية

الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة » ، « إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام » ، « التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام » ، « السلام فى نظر الإسلام » .

ثالثًا: مساهمات فى أعمال علمية أخرى :

- ترجمة كتاب : بوخينسكى : « مدخل إلى الفكر الفلسفى » من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى) .
- الاشتراك فى ترجمة كتاب بروكلمان : « تاريخ الأدب العربى » إلى اللغة العربية .
- مراجعة على النص الألمانى لترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب : « فلسفة التاريخ لهيجل » دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٦ .

* * *

المحتويات

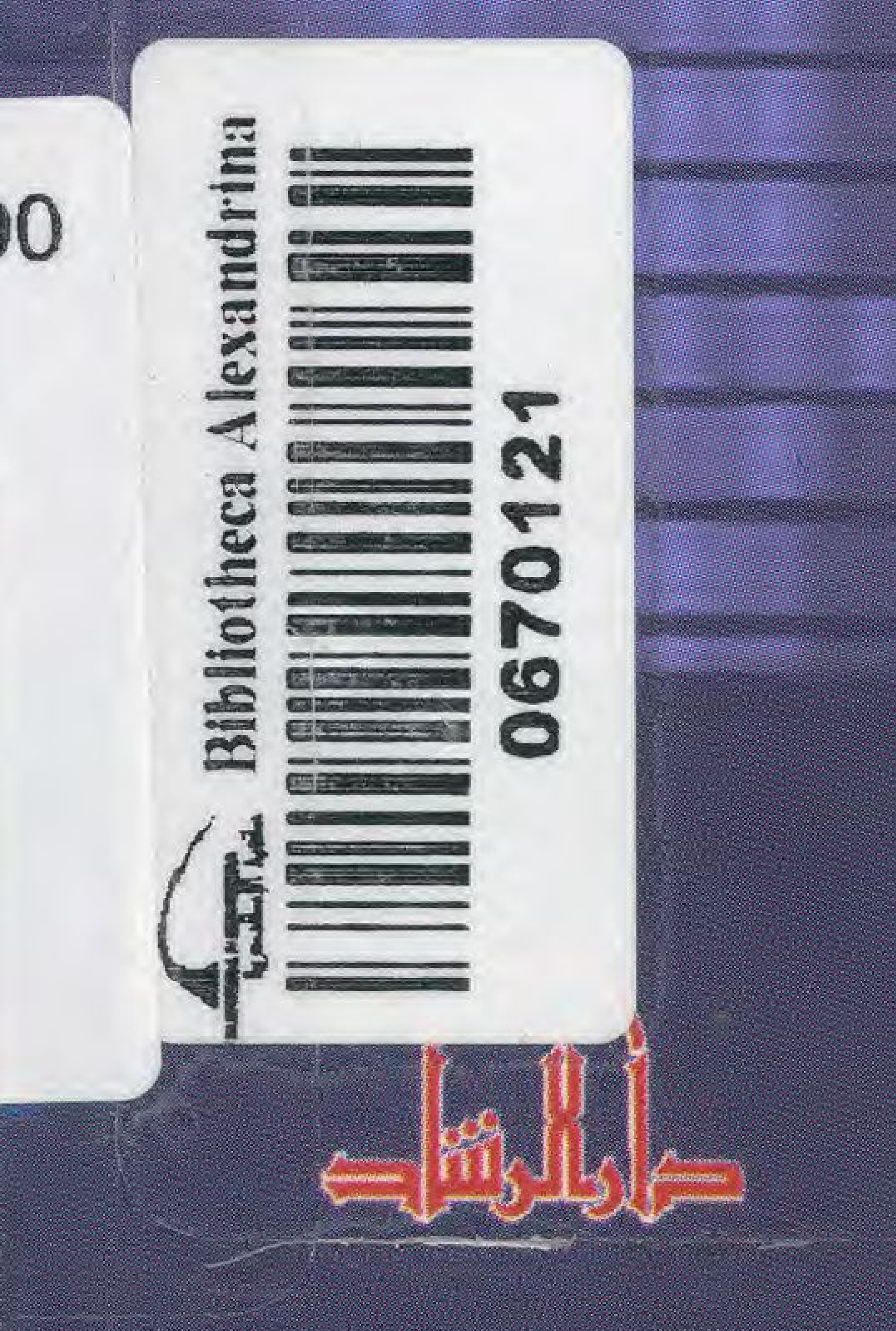
* * *

للدين فى المجتمعات الإسلامية عمق عميق فى النفوس . ومن هنا فإن للفكر الدينى السائد فى مجتمع من المجتمعات تأثيره البالغ على توجهات الناس سلبًا أو إيجابًا . فإذا كان الفكر الدينى منفتحًا ومستنيرًا كان تأثيره إيجابيًا ، أما إذا كان فكرًا جامدًا ومتخلفًا فإن تأثيره يكون سلبيًا . ومن أجل ذلك فإن تجديد الفكر الدينى فى المجتمع الإسلامى يعد أمرًا ضروريًا لتطوير المجتمعات الإسلامية وتقدمها وازدهارها .

وهذا الكتاب يدعو إلى تجديد الفكر الدينى ويكشف عن كثير من المفاهيم الخاطئة والأفكار المغلوطة ، التى تحول دون التجديد المطلوب . ويؤكد الكتاب فى فصوله المختلفة على أمر فى غاية الأهمية وهو ضرورة تمكين العقل من أداء دوره كاملاً فى الحياة ، ولن يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلا إذا أزيلت العقبات التى تعطل وظيفته وتحول دون أدائه لهذا الدور .

وانطلاقًا من ذلك كله يأتى هذا الكتاب بمثابة محاولة جادة للفت الأنظار وتنبيه الأذهان إلى ضرورة إعادة النظر فى الأوضاع التى آلت إليها أحوال أمتنا الإسلامية على مختلف المستويات بصفة عامة وعلى مستوى الفكر الدينى بصفة خاصة من أجل استعادة الوعى بالمسئولية الحضارية لإخراج الأمة الإسلامية من أزمتها الحضارية الراهنة التى طالت أكثر مما ينبغى .

الناشر



دار الرشاد


ISBN: 977 - 364 - 140 - 6